مقالات

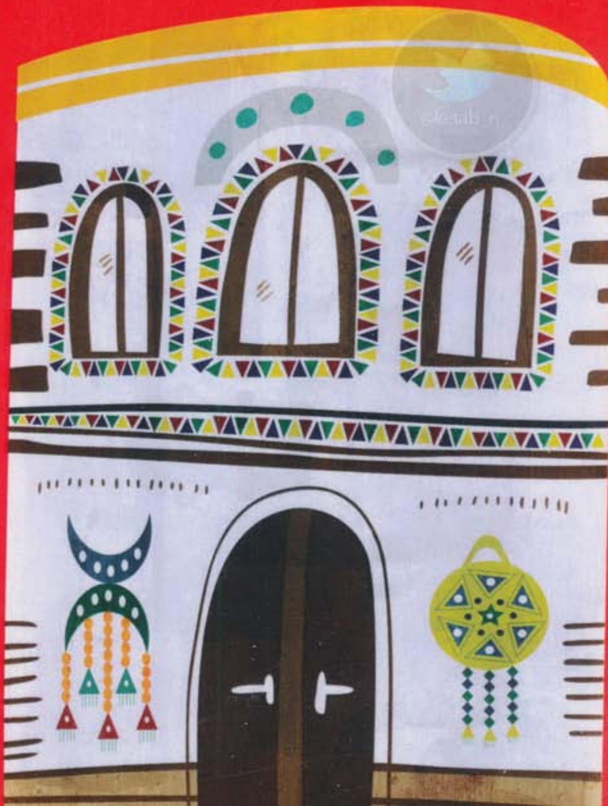
16.2.2022

محمد مستجاب

نبش الغراب
في واحة العربي

الجزء الثالث – الأشياء

مختارات الكرمة



محمد مستجاب

نبش الغراب
في واحة العربي

الجزء الثالث - الأشياء

الكرمة

نبش الغراب
في واحة العربي

الجزء الثالث – الأشياء

الكرمة

facebook.com/alkarmabooks

twitter.com/alkarmabooks

instagram.com/alkarmabooks

مستجاب، محمد.

نبش الغراب في واحة العربي - الجزء الثالث: الأشياء / محمد مستجاب - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢١.

٢٧٢ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: 9789776743502

١- المقالات العربية.

أ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٣٩٤ / ٢٠٢١

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

المحتويات

القلم

قدرة العقل وطاقة القلب وكاتب التمائم والشعر وحيثيات الأحكام

القلم هبة إلهية، أداة الكتابة، وأقرب الأدوات ـ جميعًا ـ إلى قلب الإنسان، ويطلق أحيانًا على سورة «ن» في القرآن الكريم: سورة «القلم»، تكريمًا له، كما جاء في أولى السور التي نزلت على النبي العظيم: «ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ»، ومع صغر حجمه بالنسبة للفأس والسيف والمدفع وكبشة الطبيخ إلا إنه هو القادر على إضاءة المسافة بين السماء والأرض، وفي المقابل يمكنه أن يطفئ المصابيح أيضًا، شرس قوي حزين ومراوغ، يختصر قدرة العقل وطاقة القلب في سنه المدبب ليصنع الأعاجيب، وكلما تغذى جيدًا وتشذب جيدًا وانشحن جيدًا زادت رهافته وبصيرته وخطورته، وعندما تتقلب به الأمور يصيبه الاضطراب والوجل، ولذا فإن القلم يظل طوال حياته ينظر بنصف عين إلى السلطة: يداورها وتداوره حتى يغض أحدهما البصر عن الآخر، وهي ـ إلا فيما ندر ـ أكبر أعدائه بعد

الجهل، والسلطة الذكية لا تقع في مأزق مع القلم، وأخطر ما يمكن أن يواجه القلم الأنواع الرديئة من الورق، واليد التي استغرقها عدُّ النقود، والحقد، والأصابع التي أجادت فتل حبال المشانق، والجوع الشديد، والكتابة دون اقتناع، والرائحة النتنة، والتدليس والتزوير، وجفاف العقل، وقصائد الشعر الساذج.

ولغرام السلطات به استعارته عنوانًا لأخطر إداراتها: قلم المباحث وقلم الشكاوى وقلم المخابرات، ثم هناك ـ لا يزال ـ قلم المحضرين الذين يتولون إبلاغ وتنفيذ الأحكام، لكن الذي يحط من شأن القلم إدمانه كتابة التقارير، والشكاوى الكيدية، ونصوص الأدب فاقدة التألق، والتأشيرات الرقابية، وإنصاته أكثر مما يجب لما يحدث في الفراش، ونكوصه عن قول الحق، وسكوته عن مواجهة الباطل، وكتابة التمائم والأحجبة، والصكوك تحت الإذعان، ورسم حواجب الأنثى ورموشها.

والقلم هو الأداة الوحيدة التي تعيش عمرها محاطة بهالة من الإشارات الخفية المنذرة، ليست من السلطة ـ بأنواعها ـ فقط، بل ومن الأخلاق، والمواضعات الاجتماعية، والتناقضات الوطنية، وأكل العيش، والأصدقاء، والعلاقات الخاصة، والتاريخ المستقر، والتصادم مع الأقلام الأخرى. وكثيرًا ما يفقد القلم قدرته على استقبال هذه الإشارات المنذرة فيداهمه الصراخ والنحيب والانفعال والافتعال تمهيدًا لأن يصبح شهيدًا.

والقلم يفوق المحراث في عمق الخطوط، والصاروخ في اختراق الأجواء العليا، والدرر في الاستيلاء على قلوب من لهن

قلوب، واللسان في النفاق، ومبضع الجراح في التمزيق، والورد في أريجه، كما أن ضجيجه أعلى من أصوات الآلات الموسيقية في الألحان المعاصرة، وأكثر صخبًا من أفراح الرعاع، لكن أكثر الأقلام المعاصرة صفاء: أحمد بهاء الدين، وحزنًا إنشائيًّا غامرًا: المنفلوطي، وجسارة تتجاوز الحمق: زكي مبارك، وسخرية: المازني ومحمد عفيفي، وطزاجة حامية: يوسف إدريس وزكريا تامر، وسعادة: كل كُتَّاب صفحات التسالي، وعمقًا: عبد الرحمن بدوي وزكي نجيب محمود، واتساع أفق: حيثيات الأحكام القضائية، وشراهة: نقاد الأدب، وتألقًا: مصطفى أمين وبعض أفراد مدرسة التابعي، وأجمل قلم تزوج من ريشة هو الذي أثمر صلاح جاهين، وهناك آخرون تحول بيني وبين منحهم بعض الحق: المنافسة، أو الصداقة، أو سوء الفهم. وهي الأمور التي تحاصر قلمي وتشله عن عمله في بعض الأحيان وتجعل إيقاعه بطيئًا كإيقاع أقلام الوشم على الجلد.

كلمات لها معنى

أصبح من المناسب تجهيز الملوخية العصرية بإسقاط «الباكو» ذي الفتلة في طبق الماء الساخن.

*

قالها واحد لا أعرفه: لا تبالغ في الحلم فقد يتحقق.

*

أجمل ما في الدنيا شخص آخر ينتظرك في لهفة،
دعك من الدائنين.

*

الأمم المتحررة حديثًا كالمرأة التي تزعم لكل رجل يسيطر عليها أنه الوحيد والأهم في حياتها، بغض النظر عن التاريخ الذي يتعلق بأذيالها كالعيال.

*

أقصى ما يطلبه منك الفندق تكاليف إقامتك، البيت يطلب تكاليف إقامتك وإقامتهم.

*

نجا الحيوان من أخطر ما عذب الإنسان: قول الحكمة،
وبصمات الأصابع.

*

الحياة مسرح كبير، لكنه ليس أكبر من الصالة التي
تعج بالمتفرجين.

*

وجدتها بخطي في خطاب إليها: كل شيء حولي كان يساعدني أن أصبح لصًّا، غير أن الظروف ساءت فأصبحت كاتبًا.

البيت

تكوين تاريخي تمارس فيه الأحياء أقصى حالتها: ذكاء وغباء

البيت منشأة هندسية ظهرت في حياة الأحياء في عصور مبكرة، تستهلك عمرها فيه، وخلال ذلك تحلم وتفكر وتمكر وتغني وتتكاثر وتبكي وتفخر وتضحك وتصوغ الحقائق والقوانين والأهداف والدساتير بين جدرانه، قد تتسع فتصبح قصرًا ذا حدائق وبساتين وملاعب وبحيرات ومطارات، وقد تضيق فتصبح منزلًا أو شقة أو كهفًا أو شرنقة أو عشًّا أو قوقعة أو ثقبًا. وفي كل الحالات يفرز البيت ـ أي بيت ـ سيدين: الأول معلن والثاني مهيمن، ويفخر السيد الأول دائمًا أن تاء التأنيث لم تصبه ولم تلحق باسمه. وكثيرًا ما يتألق البيت ليكون جنة أو يعمه الظلام ليمسي قبرًا، أو يداهمه الفقر ـ فقر الفكر والملكية والتوجس والشر والرعب والاعتزال ـ فيكون سعيرًا، وأكثر البيوت عددًا بما يفوق بيوت الإنس والنمل، في الشعر. وقد تأثر بيت الشعر الحديث فتساقطت وحداته ليصبح غرفًا متناثرة على

السطور المنمقة، وأجمل البيوت وأحلاها نجدها في بيت النحل، وألذها «بيت الكلاوي»، وأثمنها في شرانق دودة القز، وأكثرها جلالًا في بيوت الله من مساجد ومعابد، وألعنها بيت العقرب، وبيت النار ـ الغرفة التي تحتوي على طلقات المدافع والبنادق ومؤخرات غرف الدفع الغازية في الصواريخ، وأوهاها: بيت العنكبوت، وأكثرها فنية وتألقًا: دور الأوبرا والموسيقى والمتاحف.

والمعدة بيت الداء، والأقدام بيت النقرس ـ داء المترفين والكسالى. أما بيت العدل فهو المحاكم في حين أن بيت الحكمة هو المقر المركزي لنقابة الأطباء، وأبسطها عرين الأسد، وكذلك أقلها تكلفة، إن كان بها شيء سوى أسرة الأسد، وبيت ابن لقمان: مبنى قديم أقام به الملك الفرنسي «لويس التاسع» بعد دحره وأسره في مدينة المنصورة المصرية خلال الحروب الصليبية. وبيت القاضي: بيوت أثرية قديمة متناثرة في كثير من العواصم العربية كبغداد ودمشق والقاهرة تكون قد أدت دورًا في أنظمة القضاء والتحاكم. وبيت الطاعة: دار تجهز لاستعادة الزوجات الناشزات عند صدور أحكام لصالح الأزواج المكروهين. أما بيت الكرم ـ بالفتح ـ فالمقصود به الأثداء، فإذا سكنت الراء أصبحت العنب (الكروم)، وبيت الفكر: الجمجمة، في حين أن بيوت الأمعاء في البطن، وبيت الإيمان: المخ والقلب، أما بيت الحب والتراحم فهو القلب فقط.

وبيوت الليل: بيوت تقام للمتعة الليلية تنهار في أغلب الأحيان من وقع الموسيقى الصاخبة والهمسات المحرمة، وتحتوي ـ في العادة ـ على غرف وقاعات وموائد للميسر وفنون المقامرة، أما بيوت العز:

فهي نفس البيوت السابقة مع مراعاة استبعاد ما يمارس فيها. وبيت لحم: مدينة بفلسطين وُلد فيها السيد المسيح عليه السلام، وبيت الزواحف: موقع ذو جحور لعرض الزواحف من ثعابين وسحالٍ، تُنشأ في حدائق الحيوان بشكل يسهل به متابعة حياة هذه المخلوقات، وكذلك: بيت الأسد وبيت الفيل. أما بيت جحا فهو تكوين ذو سراديب متداخلة ومتقاطعة تصيب الزائر بالحيرة والاضطراب بقصد المتعة، أما بيت القصيد فهو ما يزعم النقاد أنه أهم بيت في القصيدة العمودية ـ ثم استخدم التعبير مجازًا لما هو مقصود عمومًا.

كلمات لها معنى

الحب والكراهية، كلاهما طاقة ثمينة
لا يصح أن نبددها فيمن لا يستحق.

*

ليس هناك من يمكنه أن يقاوم سحر ضوء قمر على وجه أنثى جميلة، وغريبة.

*

يحظى الكاتب البارع بأجرين:
مرة لكي يكتب، ومرة لكي لا يكتب.

*

كل بلاد الله ملك مشاع لذي خيال رحب، وذكي.

*

لا تزال الخدمة الكبرى التي تؤديها الصحافة لم يتناولها دارس بعد: أوراق اللف.

*

لو أنك أتحت للطفل الذي بداخلك فرصة يومية للعبث الجميل: لما سقطت أسنانك.

*

احتفت السينما الحديثة بالفك المفترس، العين أكثر افتراسًا.

*

في المدن فقط: نهيمن على كلب ونمارس استعراضًا ونحن نجره خلفنا في الشوارع، تصل الموعظة إلى ذروتها حينما يقضي الكلب حاجته بين أقدامنا.

القمر

هذا الفاتن في الوجوه والأغاني، والذي تحاصره بنات الحور والقنابل والصواريخ وحق الأداء العلني

تكوين ساحر فاتن أينما ظهر: على الجليد أو بين الغيوم أو فوق الرمال أو في قاع بئر، في ليل صيف بليد حار أو وراء أشجار أو على هامة الأكمات أو فوق الأطلال والخرائب، أو حتى من خلال فوهة كهف ذئب يفترس حملًا. لكنه يصل إلى فتنته إن أصبح كلاهما بدرًا: أنت رائق الجوانح مستعيدًا اللياقة الإنسانية المزعزعة، وهو: عندما يتجرد من منغصات العصر الحديث الذي وطأ القمر وداس على روائه ذي السنا الباهر.

ولقد أهلك العشاق القمر في وجه المحبوب منذ بكور التاريخ، ولو كان للقمر نسبة في حق الأداء العلني المدر كنزًا لكل فصائل الشعراء والمغنين لانحرف الغزل إلى النجوم الفقيرة، ولأصبح للقمر مكتبان في باريس وفي جنيف ليرعيا حقوقه المتناثرة بين الدول الموقعة على الاتفاقية المعروفة. مع أن القمر أكرم من أن

تحتويه القصائد والأهازيج وآهات الغزل، تراه مترقرقًا في عيني أول أطفالك (لمدة محدودة)، وفي انحناءة أم تلقم وليدها ثديها، وفي صوت أمر الإفراج عن معتقل، وفي اتساع رقم مالي مقبول الدفع ولو كان مكتوبًا على ورق اللف والتعبئة، وبين أنامل تتلمس التوقيع على أوتار الموسيقى، وأول ما تستشرفه عينا العائد إلى الوطن. لكنه ـ هذا القمر ـ يفقد قدرته على السحر والجاذبية ليصبح تكوينًا ماديًّا مظلمًا في كتب الجغرافيا وعلى وجوه الدائنين، وبين ثنايا حواجب مفتشي الشرطة، وفي ضيق أفق نقاد الفن والأدب، وتحت إبط الرعاة والمراقبين للمناطق ذات الأسلاك الشائكة. ويعقد القمر دورته المتلألئة ـ في موعد معلوم ـ باحثًا عن الاكتمال، فيبعث في الجسد الأنثوي حمى يقظة الطبيعة، وفي لذة الصوم الشهي لطبق قمر الدين، وفي وجه الصبية الصغيرة استدارة قمر ١٤، ولعل لفظ «أمورة» الذي نسبغه ـ مصغرًا بالعامية ـ على عزيزاتنا ناجم من سطوة القمر الأمير.

ويغضب القمر أن يقع على وجهه ظل الأرض، فيحتقن غضبًا رافضًا قيام بنات الحور بمحاصرته وخنقه، ويسيل نوره أحمر كابيًا ذليلًا مخنوقًا، وتنطلق تحذيراته كي لا تتم أفراح الزيجات ليلتها، فسوف يحاصرها الشؤم والضيق ومعاكسة الدهر. كما أنه لا يجوز ليلتها عقد الصفقات أو ملازمة الزوجات: لأن النتائج لن تسر الخاطر. لكن المدينة لم تعد تهتم بحصار بنات الحور للقمر: أكلت وشربت وفرحت، ثم ولدت صفقات بائرة وزيجات عقيمات، وأثمرت ظلامًا في نفوس أبنائها، وانطفاء في وجدان ساكنيها، ولعل بقية النور ذي السنا

الذي يشع من أبناء المدن هو البقية الباقية من عصور الطفولة في براح القرى واتساع الوديان وامتداد آفاق الصحراوات والبحار والبراري، تلك التي يسبح القمر في عليائها ويحب بين آكامها وربواتها وأغصان شجرها دون اضطراب من هذا الوهج المصنوع من الكهرباء وإشعاعات القنابل وضجيج الصواريخ وساريات التلفزيون واكتناز الأموال وطوابير الجيوش، وهذه الأثقال التي يئن تحتها الفؤاد من أكداس مواد القوانين وتضخم أبنية المحاكم والمدارس ومخازن اللبن الصناعي.

ويظل القمر كوكبًا سيارًا، يهدي من يتلمسه ويشبع من يمعن بعيونه فيه، ويحنو على من افتقد الابتسام، دون اهتمام بهذه الأدران التي تتركها أقدام الهابطين على وجهه الجميل المبتسم.

كلمات لها معنى

أدعو بسوء التغذية على كل من يمد قلمه شاطبًا مرتبي أو كلمة من سطوري، حتى لو كانت هذه الكلمة ذاتها!

*

نعم: الطفل العربي في حاجة إلى رعاية، ليت ذلك يتطور إلى المحب العربي أيضًا.

*

أعرف أشجارًا توقفت عن الإثمار بعد رحيل أصحابها، وزوجات في انتظار الإثمار بعد رحيل أصحابها.

*

حتى القصور العتيدة عندما تخلو من النفس (بفتح النون والفاء) يصيبها التشقق.

*

بدأت المسائل تتغير، فوجدت زوجتي ترفع على الحائط: «القناعة كنز لا يفنى»، آه! لقد بدأت الكارثة.

*

انقطعت رسائلنا، أول مرة نتفاهم...

*

«أسمع جعجعة ولا أرى طحنًا»: أصدق تعبير عن عظمة حب فاشل.

*

كانت قد أخفت تحت ملابسها ملاكًا وذئبًا وثعبانًا، وصمتًا مرعبًا، وظلت تبتسم.

*

كلنا يحتاج إلى حب عميق، لتنتشله سيارة وتقوده إلى زوجة العزيز، رتب أمرك على أن السيارة قد لا تأتي.

الذهب

هذا الكامن مطمورًا في المناجم والخزائن يحرك المؤامرات والقصائد والأمنيات ويقلب الأحلام، ويحتمي بغطاء وهمي من الورق

الذهب ملك المعادن وسيد المقتنيات، حتى لو كان البلاتين أثمن الجواهر أكثر تألقًا، لديه قدرة فائقة على مداهمة الأحلام وتحطيم الأمنيات وصياغة الجسد والأقدار والمقالة والقصيدة. مناجمه القديمة في الصحراء الشرقية المصرية وسيبريا والغرب الأمريكي والجنوب الأفريقي شرايين تتمدد في الجسد الحي للجغرافيا. يعشق أطراف الإنسان ويتراقص في أصابعه وأذرعه وأذنيه وأسنانه، مشعًا بالجمال والسطوة. ينافس القيود في المعاصم، والمشانق في الرقاب، والأغلال في السيقان، والنجوم في الأنوف. الأنقى والأثمن هو الذهب الأحمر، الذي ظل معشوقًا من القبائل والمجتمعات التقليدية قبل أن يتفشى الذهب المعاصر المخلوط بالنحاس أو البرونز، بصفته أكثر مرونة واصفرارًا. والذهب هو المعدن الوحيد الذي تعالى

على التاريخ وتسامى على التقسيمات: العصر الحجري ـ العصر الحديدي ـ العصر النحاسي، حيث ظل تعبير «العصر الذهبي» قاسمًا مشتركًا موصوفًا لكل العصور، يأخذ كل صاحب صولة جولة بين أقدام الحاكم متمسكًا بشدة على أن عصره هو العصر الذهبي. ولذا ليس ثمة خلاف ذو شأن بين القصيدة العصماء التي ألقاها شاعر طيبة ـ من الصعيد ـ في مجلس «مينا» الموقر في منف، وكل القصائد التي أريقت في سائر المجالس المظفرة التي تتالت حتى الآن أمام كل الحكام والعواهل والملوك في شتى بقاع العالم.

والذهب معدن وهمي، مثله مثل الأفكار الوهمية الراسخة في العقول اللاواعية التي تعيش في الأكذوبة الكبرى. ويكفي أن تعلم أن هذا المعدن ذا البريق المتألق، المكدس في خزائن الحكومات والمصارف والعصابات والمناجم والمؤسسات والأفراد، والذي يحرك الشهوات والمطامع ويفسد العلاقات ويصنع اضطرابات للطبقات والبورصات والجماعات، هذا المعدن القادر على إصلاح كل الأفئدة والضمائر والأوتار والحناجر، وينشر الدفء في المكائد والمؤامرات والمجالس والمراقد والمواقف، ويثير أريج الزهور ودبيب المحاكم ودخان المصانع وروائح بلاليص الجبن القديم وبراميل المشروبات المعتقة.

ويحمي الإخلاص ويكسو العرايا ويقيم وزنًا لمن لا وزن له، هذا المعدن الخطير الذي لم يتغير دوره المؤثر منذ اكتشافه الموغل في القدم حتى الآن، غطاؤه من الورق، ينام كل هذا الكنز الذهبي تحت لحاف من الورق المطبوع، ورق لو جردناه من معناه لما أنضج احتراقه عدة كيلوجرامات من اللحم المشوي، ولما استطاع

ما يساوي مليون دولار منه أن يحمي كلبًا عاويًا من الريح، لكنه ـ بقدرة متسلطة ـ يمكنه أن يتحول في غمضة عين إلى فراش وثير، وجميلات جذابات، وتذاكر سفر، وتنظيمات سياسية، وأخلاق عالية، وأمواج هادرة، وكراسات للتلاميذ، وأحذية للانزلاق، وحصون للسجون، ومجلات وصحف سيارة، وأكاذيب مقنعة، وسباع أليفة، وسيارات مدرعة، ودعاء في الساحات والميادين والشاشات، دون أن يتحرك هذا المعدن اللئيم من مكمنه ويتعرض لضوء الشمس المرهق، تاركًا أمر وظيفته وتنفيذ تعليماته لهذا الغطاء الورقي الوهمي الطريف، حتى ولو كان المعنى معكوسًا والغطاء ذهبيًّا.

لكن الذهب ـ في حالته الفقيرة ـ يسبغ على عيون الأنثى بريقًا غير ما تعودنا من بريق، في العيون الأخاذة، واقتراب غمازة الخد، وارتعاش الأصبع المشرعة، عندما تلتف حولها دبلة الخطوبة، حيث تسقط كل المعاني الأخرى للذهب، ولو لفترة محدودة تكفي لإنجاب أربعة أنجال يستحقون أن يوهبوا كل كميات الغطاء الورقي الوهمي الذي نسعى للحصول عليه طوال العمر.

كلمات لها معنى

أحس أنني أنبوبة عصرية: تدخلها النقود من طرف وتخرج من الطرف الآخر مأكلًا وملبسًا ومسكنًا وعدة كراسات للعيال وقصة قصيرة بين الحين والحين.

*

تنشغل السكرتيرة الجديدة ـ في أول الأمر ـ كي تصبح ذاكرة لرجل الأعمال، ثم لا تلبث أن تنجب بعد العلاوة الثالثة على أكثر تقدير.

❋

ليست السحب هي التي تحجب أشعة الشمس، إنها المظلات والسقوف والضجيج وعظام الجمجمة وبلاهة الأصدقاء.

❋

قالها شاعر محترف: «إنني أسكن القصيدة»، لكنه لم يذكر رقم البيت.

❋

أصبحت كلمة «الهاتف» أكثر استقرارًا لمعنى التلفون، بعد أن اتضح لنا أنه لا يعمل في مجال «المسرة» فقط.

❋

انتبه: شخص بليد لا يتورع عن تدمير توازن يومك، حارس بيتك ومدرس ابنك وصراف بنكك وزوجتك، ثم خادم مائدتك، واحد منهم يكفي.

❋

كل مخلوق يبحث عما يأكله إلا الإنسان الذي لم يترك شيئًا في بطن البحر أو على وجه الأرض أو في أعالي السماء، ويمكنه ـ بعد كل ذلك ـ أن ينام قريرًا تحت دعوى أنه الأرقى.

النار

ذات الجذوة المشتعلة في الأجساد والأمنيات والموتورات وتحت أسياخ الكباب

النار من أخطر ما اكتشف الإنسان منذ بواكير وجوده، إن لم تكن الأخطر على الإطلاق. ولا يزال خيالنا، وجوانحنا، تتحسس هذا الرعب الفظيع المبكر الذي ارتبطنا به مع النار: حريق الرغبة، والغابات، والحب، والمروج، والغيرة، والصواعق، والحقد، والانتقام، والفشل، ثم هناك النيران السرية التي تشوينا ونحن نحلم ونكتب ونبحث عن السلوان، أو تلك التي نستخدمها في الحفر المناسبة لدفن أمنياتنا القديمة وآمالنا الخائبة. ولذا فقد قدس الإنسان النار قبل أن يستوعب معناها، ثم ازداد تقديسه لها بعد اكتشافها وحل ألغاز اشتعالها، وجعلها عنصرًا أصليًّا في تصوره لأسس قيام العالم: النار والماء والتراب والهواء، ثم تراجع عن تقديسها بعد انبثاق الديانات السماوية ونمو العلوم. وأجمل النار ما يُعد لتدفئة أول ماء لاستقبال الجسد تطهيرًا لأولى ليالي الهناء والسعادة، ولاستقبال

أول مولود، ونار إشاعة الدفء في جسد وحيد بارد مقرور، ونار التخلص من وعثاء السفر، ونار الضيافة تحت ظل أسياخ الكباب، ويمكن إضافة الطيور إلى بعض الأسياخ، ونار النجاح التي من قوتها يمكن أن تدفعني إلى أعلى لأصطدم ـ بقوة ـ بالسحاب، ونار الحرية الجاذبة خارج الجدران والمعتقلات، وطاقة النار التي تحرك كل موتورات العالم.

والضوء ابن النار، نراه ونحس به في نور الشمس، وتألق رقبة المحبوب، وانعكاسه على صفحة الخير والقمر والنهر وخدود الصبايا، وفي عيون الأطفال والقادة المنتصرين، وفي الإحساس بالأيام الكريمة المفترجة، وفي تسلل شعاع من عيون تود الانغلاق اعتزازًا قبل أن تفترقا، وفي شطرة بيت تشدو به أم كلثوم «أسهر على ضي ميعادك»، وفي البرق تنبيهًا من الطبيعة، وفي الإبراق تنبيهًا للوصول والتواصل، وفي تلمس اليد الخاشعة المؤمنة ستائر الكعبة. وألعن ما في النار: الأوار، هذا الاشتعال الذي تطقطق فيه العظام الجبارة الرافضة لقوانين الكون والامتثال للرب، جهنم تفتح اتساعها المرعب، عيون الأم المظلومة من ولائدها وبنيها، فحيح الأفعى لحظة الانقضاض، انطلاق الرصاصة وانفجار القنبلة، اندفاع الكلمة الغبية الفظة الجارحة، انشقاق الجمجمة كي تكشف عن المخ، حنك الأسد المفتوح ناهشًا رقة الغزال المضطرب، المقولة الفاسدة الشائكة الصادرة من منصب مؤثر لتمزق الأمة، قطة تشتعل في جسدها نيران خصوم وسط حقول القمح، أوار حرائق الخماسين

في القرى والبيوت الكامنة تحت البوص والقش، وإشعاعها المدمر في الانفجارات الذرية ومكائد الخبثاء وفخاخ الثعابين. والنار ـ بعد ذلك ـ هي عنصر فاعل في النضج، التهابًا، كانت، أو حرارة، وفي التطور، وفي تشغيل الحواس وتوصيل المدركات، وفي قيام الفنون، والآداب، والظنون، والطبيخ، والانفعال، وسريان الحب، وإبراز الجمال (وكم هو مشهد محبط غلالة هفهافة فوق جسد ساكن بارد وفاقد لحرارته)، لأن الحرارة هي إشعاع الحياة، ورائحتها، وابتسامتها، وحيويتها، فإن زادت الحرارة أصبحت أوارًا، فتتحول كل المسائل الجميلة إلى كوارث محترقة. وإذا انخفضت أكثر مما يجب بدت المساكن: قبورًا، ومقدم الصدقة: صرافًا، والحبيبة: زوجة، والعشق: تعاطفًا، والفنان: صانعًا، والأديب: كاتبًا، والناصح: متطفلًا، والقائد: موظفًا، والتلفزيون: صندوقًا، والماء: ثلجًا، والحياة: مأزقًا. وفي الماضي السحيق خسرنا دفء الفردوس وحرارة الجنة، وها نحن نحاول أن نوقف دفء وحرارة حياتنا في الحدود المحتملة كي لا تصبح جحيمًا ـ أي جهنم، نوع من التأجيل فيما أظن.

كلمات لها معنى

أمعنتْ في وجهه طويلًا، ثم أرخت رموشها وأغلقت عينيها: طلب أن يكون العشاء «لبن زبادي».

*

افهم واشرح: تجار قماش بطانة الملابس الصوفية ليسوا هم تجار الأقمشة الصوفية.

❊

حتى الحجر الأصم يستجيب ويلين لأنامل فنان بارع.

❊

هجر البشر وابتنى بيتًا في منطقة مذهلة الاتساع، وجلس أمامه وحيدًا يستمتع بالطبيعة ويشكو ـ بين الحين والحين ـ من النمل.

❊

لا يوجد نبات يزهر دون أن يثمر، يوجد عقل محدود الإدراك.

❊

النساء أكثر تحملًا للرجال من الرجال.

❊

قرر قيس أن يصبح ـ للعشق ـ رمزًا، فتزوجت ليلى من غيره.

❊

تقوم راحة البال على راحتين صغيرتين: الجيب والجسد.

❊

ليس هناك بينك وبين زوجتك أسرار، السر يكون دائمًا بعيدًا، وتخشى أن ينسل إليكما.

❊

قدمتُ لزوجتي خمسين جنيهًا فطلبت زيادة، رفضت أنا فأعادت لي عشرة متبرمة، تكرر ذلك كثيرًا، صباح اليوم اكتشفت أثناء

اطلاعي على عقد زواجنا مصادفة أن مؤخر صداقها خمسون جنيهًا!

*

سألني أبوها إن كنت أحوز سكنًا؟ فقلت: «نعم، عندي شقة»، فوافق على زواجنا، ثم رفض أن يكتشف خداعي واستمر يبحث لنا عن سكن.

السينما

فن الشاشة البيضاء الذي أثر في السلوك والعقول والتاريخ واقتحام البنوك ووسائل النصب

عندما أدار الأخوان «لوميير» آلة «السينما توجراف» (١٨٩٥) ليعرضا صورًا متحركة على ستار فضي، أو على شاشة بيضاء، مستفيدين بآلة أكثر قدمًا ـ هي «الكيتوتوسكوب» التي ابتكرها الشهير «إديسون»، لم يطف ببالهما أنهما قد فتحا العقل الإنساني لآخر المدى، وأنهما أطلقا أحلام يقظة البشرية فردًا وجماعة وأممًا، ليعود الإنسان إلى مشاعره وسلوكه وخططه ليعيد صياغتها، وليدخل هذا الابتكار تعديلًا في تكوينات دم الإنسان ليصبح كرات حمراء، وكرات بيضاء، وهيموجلوبين، وبلازما، وسينما.

والذين يعيشون على الأرض الآن ـ أطال الله في عمر الجميع ـ استلمتهم السينما الناضجة أطفالًا، أي بعد أن نمت وكبرت ووضعت على سحنتها المكياج المناسب، وخصوصًا بعد أن أضافت للشاشة أبعادًا ولوسائل العرض تضخيمًا، لتصبح السينما عنصرًا أساسيًّا

في طقوس حركة الناس وعاداتهم وأساليب حياتهم. فاستفاد الغرام المكتوم المحاصر ليغدو مشبوبًا وملتهبًا ومؤثرًا، ولتمسي العلوم الصعبة المعقدة صورًا حية معبرة واضحة يسهل فهمها، ولتتغذى حكايات البطولة والاستشهاد بمشاهد اقتحام الحصون والعوائق والقلاع والخطوط الدامية، ولتقدم لذوي النوايا السيئة خططًا كاملة ـ ودقيقة ـ لمداهمة البنوك واختطاف الطائرات ووسائل النصب والإيقاع بالفاتنات، والهروب داخل الأنفاق الأرضية، شوشرة الجواسيس على إشارات مسؤولي الأمن. كما قدمت التاريخ لمن يصعب عليهم إدراك ما يعنيه التاريخ، غزو نورماندي، وموقعة دنكرك، ومحاكمات نورمبرج، وظهور الإسلام، وحياة المسيح، وسرقة كنوز الفراعنة، ومطاردة المصريين لليهود في الوصايا العشر. كما نجحت القوى المؤثرة في إسباغ أيديولوجياتها على السينما، ومن بين أسباب انهيار الاتحاد السوفيتي: السينما الغربية ـ الأمريكية على وجه التحديد والذي يشاهد فيلم «دكتور زيفاجو» (عمر الشريف ـ «جيرالدين شابلن») سيرى فيه ما يوازي طاقة سلاح كامل من الطيران والمدفعية، وجهد ألف كتاب دعائي، ومائة وخمسين سفارة موجهة، لكنه كان فيلمًا واحدًا ـ فما بالك ومؤسسة السينما الغربية كلها ظلت مشغولة منذ البواكير بتحطيم الاتحاد السوفيتي؟

لم تترك السينما علمًا دون أن تلتهمه وتفرزه صورًا وموسيقى: الهندسة والرياضة وحركة الإلكترونيات والفنون الجميلة والاكتشافات والرحلات، وما زلت حتى اليوم لا أمل من انغماس في جولاتها داخل المناجم والكهوف وعلى السواحل وفي عمق الغابات، وعلى

مسطحات ثلوج الشمال تحت سطح الماء وبألفين من الأميال، وهي - مع ذلك - قادرة على إشعال النار في الأجساد الميتة، وإذكاء اللهب في القلوب الباردة، وإثارة الذكريات الحبيبة الكامنة في حفريات الماضي الأثير. وهي خلال أي من ذلك لا تعدو أن تكون ماردًا عملاقًا يلبي - سريعًا - مطالبك وأمنياتك وأحلامك، على أن تجيد فتح القمقم - في الوقت المناسب، مع إدارة هذا المارد بالكلام المناسب أيضًا.

ومن نافلة القول أن نعتبر التلفزيون (ومعه الفيديو) ضد السينما، إنه قد يؤثر في صناعتها، لكنه الابن البار للأم القوية الذي أدرك مراميها وأهدافها، فامتدت نشاطاته لتنقل الشاشات البيضاء من الساحات والقاعات: إلى الشقق والمقاهي والبيوت، ليحرمنا من تلك المتعة التي انحسرت وذبلت: أن تأخذ زوجتك وتسيرا معًا مثل المغرمين، وتدعوها لمشاهدة «رامبو» أو «روكي» في أي من أجزائهما المتعددة، ذلك لأن «سيلفستر ستالوني» ينام في أحد الأدراج منتظرًا بالبيت.

كلمات لها معنى

الفرق بين الجبن والشجاعة، أن ثمة أنواعًا من الشجاعة منزوعة الدسم.

*

حقائق الحياة ثابتة لا تتغير ولا تُستبدل ولا يمكن لحامها، تنفجر فقط.

*

كلما قررت أن أواجه بعض الأمور الجميلة تعطيني ظهرها غاضبة.

*

الاتفاق الديمقراطي واضح: أن أصرخ ضد حكوماتنا دون أن أخشى السجن، وتفعل حكوماتنا ما يحلو لها دون أن تخشى السجن أيضًا.

*

السياسي: رجل لا تعرفه، له الحق أن يوقع باسمك على ما لا تحب.

*

العداوة: سمكة، الصداقة: أخطبوط.

*

سمعًا وطاعة يا مولاي، السمع حاسة واحدة، الطاعة بقية الحواس.

*

على جميع أولياء الأمور من آباء وأمهات ومربيات التوقف عن فض غلاف الشيكولاتة للأطفال، البهجة والمتعة لا تنحصران في طعم الشيكولاتة فقط.

السوق

أنت السلعة مهما كنت وأينما كنت إلا في سوق

حسن فتحي

وأنت قابع الآن مع التلفزيون أو زوجتك أو خيالاتك، أي: وأنت في أي مكان وفي ظل أي أفكار، إنما أنت في الموقع الذي أنتجته قوى السوق، العرض والطلب بالضبط، مع أنك سوف تزعم أنك اخترت وأن هذا الاختيار جاء موافقًا لمؤهلاتك أو أهوائك. كل هذا صيغة تبدو مقنعة لحرية وهمية نحب أن نثرثر بها، حتى لو مزقت كل شروط التعاقد واكتفيت بملبس بسيط وتوجهت حافيًا بالشصِّ أو السنارة إلى شاطئ النهر مكتفيًا بسمكة صغيرة واحدة ـ فأنت لم تخرج عن دائرة إرادة الحاجة والمحتاج التي ترتكز عليها عناصر السوق، وستظل طرفًا في مجال قوى واضحة أو غامضة بقدراتك ومشاعرك وإبداعاتك ورغائبك وأحلامك وإحباطاتك أيضًا. والقاعدة: أن كل ما تود اقتناءه، أو استعماله، إنما هو ملك لطرف بعيد يرقب حركتك ويسحب في هدوء سنارته لتخرج ـ أنت إليه ـ بصفتك سمكته الأثيرة،

ليلبي رغبتك مقابل أن تدفع له شيئًا: من الجهد أو المال أو المرح أو الثناء أو التوسل أو الدعاء بطول العمر، لا شيء يتم مجانًا.

والسوق الكبرى تعم الكون، وتتكون من أسواق أصغر وسويقات أدنى. وعلى أرصفتها الممتدة تجد كل ما يخطر على بالك: القنابل الذرية والصواريخ والأبقار والجنس والمدافع والمقالات والأخشاب والغزلان والكلاب والقصائد والذئاب والأناشيد والمدارس والقوافل والأصوات الجميلة والحبوب والجواري والأسهم والجياد والمجلات الملونة والسندات ودور السينما والماعز والقطط والاستوديوهات وماء النهر والبترول والبغال والعبيد ونقل الدم والغلمان وتغيير الأعضاء والسكر والرقص والبرلمانات والكحول وأدوات التجميل وموادها والورق والبنوك وموجات الإرسال والنكت والأهازيج والملابس والأقلام والأدوية واللحوم والفراش الوثير والمبيدات واللوحات وكتابة التاريخ وخفة الدم والمعادن وتسريب الأسرار والزهور والمخدرات وتزوير الوثائق والحشرات والمخطوطات والحوائط والكواكب والآثار والمتعة والمصحات والجنود (والجيوش أيضًا) والزعماء والآلات ووسائل الإخصاب والأراضي والحراس وأدوات المائدة والسباع والمناظر المبهجة والوزارات والأشعة والخطب، اجتماعية أو دينية أو سياسية. والإنسان هو مركز السوق، حتى لو كان الأمر لا يعدو تحريك سلعة هي قطعة عظم يلهو بها كلب، فسوف تجد صاحب الكلب ينتظر هذه اللحظة ليسعد، وليبدو رؤومًا بالحيوان، لأن الإنسان هو الأب الحقيقي للسوق، منذ تدحرج في العصور الغابرة وبيده ثمرة طماطم يود أن

يقايض إنسانًا آخر بثمرة جوافة، ومنذ ذهب إلى بائع العظام العريضة ليشتري عظمة فخذ فيل كي ينتقم بها من أصهاره الذين اعتدوا عليه بعظمة فخذ أسد، ومنذ وقف على رأس بئر مسلحًا بالقوس والسهام يحول بينها وبين ذوي المطمع فيها، ومنذ ظهور إشارات النار بينه وبين عملائه كي يمهدوا له سبيل الاستيلاء على شجرة برتقال في الغابة الأخرى. وهي كلها أنشطة لها أسواقها المعاصرة وبورصاتها الحديثة في بكين وباريس ولندن ونيويورك ـ وما يتفرع منها من مواقع البيع والشراء والتجريب والمساومة والإقناع والاقتناع في بلدان أخرى. وكلها العقد العصبية التي تتجمع فيها خطوط أعصاب العالم دقيقها وغليظها، وفي ثنايا حركتها تتركز كل شعيرات أنشطة العالم، وصراعاته الظاهرة والباطنة.

وأشهر الأسواق عند العرب تاريخيًّا ـ كما هو معروف ـ سوق عكاظ قديمًا، ثم سوقا بغداد ودمشق بعد انتشار الإسلام، ثم السوق السوداء التي تعني التعامل غير القانوني في مواد قانونية، ولا سيما تلك المواد التي تُعنى بتسويقها الحكومات. وأطرف الأسواق: سوق حسن فتحي، وهو المهندس المصري الشهير الذي اهتم بعمارة تقوم على خامات البيئة، وقد أقام سوقًا واسعة على أطراف واحة باريس في منطقة الوادي الجديد، ليتبادل فيها أهل واحات مصر في الصحراء الغربية عمليات البيع والشراء، مبنى واسع ضخم له مجموعة من القباب التي تحمي رواد السوق وحيواناتهم من الحرارة الشديدة. ومنذ إنشاء السوق ـ في الستينيات ـ حتى الآن لم يستعملها أحد، حيث لم تكن ثمة دراسة جدوى جادة تفسر لنا الدافع لتاجر يمتطي ظهر جمل، ويسعى مئات

الكيلومترات ليبيع أو يشتري جملًا، وفي مقدوره أن يبيعه على أطراف بلدته بسهولة. ولا تزال هذه السوق قائمة تعج بالثعابين والحشرات، ويمر عليها السائحون والمتطفلون مشدوهين، ويتيح لكل وزير ثقافة يأتي أن يزور هذه السوق ويفكر في تحويلها إلى مدينة إبداع للمثقفين، حيث تنعقد اللجان وتعلن التصريحات، ثم تظل السوق قائمة كعلامة تعجب ضخمة ترقد في واحات مصر.

كلمات لها معنى

في سرية تامة وفي هدوء مرعب: انتقل الوجه الطيب لأمي واحتل الوجه الجميل لزوجتي.

*

من باب التخفيف: يوم الامتحان يكرم المرء، تم تأجيل باقي الحكمة ليوم ظهور النتيجة.

*

شباب القلب: تعبير مهذب يخفي في طياته أكثر الحقائق سخرية.

*

الجائع لا يجيد التذوق.

*

فلذة الكبد، قرة العين، مهجة القلب: ألا توجد أعضاء أخرى في حاجة إلى التعضيد والمساندة؟

*

حتى بين الملوك: سوف تكتشف صعلوكًا.

*

في الشعر يجوز لك صرف الممنوع من الصرف، وفي الحب أيضًا لآخر مقعد في البيت.

*

يطلقون على الدنيا: «المعمورة»، ثم يواصلون تخريبها.

*

الإحساس بالجماهير لا يحتاج إلى مخالطة جموع الناس، أنثى جيدة تكفي.

السيما - بالنون أو بدونها

لم تكن أضراسي قد اكتملت حينما سمعت كلمة «سينما»، جاءت ممتدة السين إلى الميم طاردة النون خارج الكلمة: «سيما»، تسللت هامسة ناعمة مرعبة من إقليم ملوي المجاور، وعندما كانت تتلوى بين الأفواه والآذان محملة بالقبلات والمبارزة والاختلاء وراء الأشجار أسرعت القرية كلها: ناظرها وعمدتها وإمامها وآباؤها فوضعوا لفظ «السيما» في المعجم المحرَّم بجوار الخمر وبيوت الغوازي والسرقة وشيطانة الهويس والخبص، وتحت وقعها قام جار مهيب بربط ابنه الكبير في جذع نخلة وانهال عليه بالهراوة حتى أنقذه على آخر نفس ذوو القلوب الرحيمة والشجاعة. وفقد آخر ماعزًا فاتَّهم قريبًا له سمع أنه ذهب إلى السيما، وبدأت سينما «ملوي» ترسل إعلاناتها إلى حوائطنا: أفيش ضخم فيه رأس رجل يمعن في رأس امرأة بالألوان، سينما «هرموبوليس» تدعوكم لرؤية هذا الفيلم الفاتن، تلازم ذلك مع قدرتي الفائقة على فك الخط والإمعان المبتهج في سطور الجرائد، والاستمتاع بحفلات الزار

وضجيج إخراج العفاريت الساكنة أجساد الأقارب، وسرقة مياه الري ليلًا من خلف ظهر الحكومة ـ كنت مع أبي.

وتضخمت دماغي وأصابها هوس السيما، وقررت أن أشاهدها، أن أسافر إليها كي أراها بالعين المجردة.

بدأت التحضير للسفر لمسافة تصل إلى خمسة قروش في وقت كان أجر الخفير سبعة قروش يوميًّا، وخلال ذلك تم البحث عن رفيق مأمون يكون بيتهم بعيدًا عن بيوتنا (كي لا يشي بي عند أبي إن تخاصمنا)، استمر دأبي لجمع تكاليف السفر ذهابًا وإيابًا مع ثمن تذكرة الدخول، (قد يمصمص أبناء البندر أفواههم مندهشين بسبب سطوري الفقيرة المرهقة التي قد تتوقف تمامًا إن لم أستطع جمع خمسة عشر قرشا ـ مع إضافة قروش قليلة للطعام الضروري).

غير أن كل ذلك توقف، فقد اجتاحت قريتنا سيارة ذات ميكروفون تنبئ الجميع بأن الليلة سوف تشاهدون ـ يا أهل ديروط الشريف الكرام ـ السينما في السويقة، والسويقة هي سُرَّة بلدنا، ساحة واسعة تفضي إليها عدة شوارع وحارات، وتكون مركزًا لبيع نبات البرسيم والجراوة (أوراق الذرة الخضراء) عصر كل يوم، وتقام فيها مراجيح الأعياد، وقد يشغل أطرافها باعة لحم الرأس والمصارين وجزارو اللحم الوقيع، ومع عدم قدرتي على تصور شكل السينما التي ستأتي في السويقة، إلا إنني أحسست براحة قصوى، فقد كنت قد فشلت في الحصول على أي نقود أسعى بها إليها، كما أن ملوي استمرت مدينة منافسة لبلدنا لا أكن لها حبًّا.

- قبل وأثناء وبعد المغرب: اجتاحت الجماهير السويقة، كانت ثمة

سيارة نقل ذات موتور شغال قد خرجت منها أسلاك في آلة تبعث نورًا مروعًا، وهناك ـ في الطرف الآخر من السويقة شاشة ضخمة، والجماهير الغفيرة ـ العيال والرجال والنساء ـ نعم النساء أيضًا ـ الجميع جلس القرفصاء تحت أثر خيزرانة خفراء العمدة، وتمددت الأطراف ليقف على حافتها المئات المبهورون، وكان أول مشهد ـ لا أنساه ـ أن هذا النور يصبح شكلًا على الشاشة لضابط يقود سيارة جيب وبجواره واحدة تغني بصوت أخاذ، هي تقول له إنها تخاصمه، وبدلال فائق، فيرد عليها بخشونة فيها دعابة فائقة، إنه يحبها أثناء الخصام أيضًا (عرفت بعد ذلك بفترة أنها ليلى مراد وأنور وجدي في فيلم «ليلى بنت الفقراء»).

كانت المناظر تترى مدهشة تفتح العقل وتصب فيه خيالات مجنونة، إن فكرة امرأة تنزوي في أحضان رجل ـ وأمام كل الناس، وأن يتلمس بأصابعه ذقنها ليرفع وجهها إليه ـ إليه جدًّا، وهي تنحرف تحت إبطه، وتغني، راضية وغاضبة في نفس الوقت، إنما هو الجحيم، حتى لو كانت السينما بعد ذلك بنصف ساعة قامت بتشغيل مشاهد عن محاربة البلهارسيا، وكان الصوت الفج يطلب من الناس عدم نزول الترع ومجاري الأنهار، كان واضحًا أن السينما خاصة بالإرشاد الصحي، الذي يستقطب الجماهير إليه لتوعيتها، لكن المناظر دون ليلى مراد وأنور وجدي ظلت فجة غير مستساغة، وسرت في الناس رغبة في الانصراف، فجاء الخبر المهم: فيلم ثانٍ، وبعد أن أضاءوا النور وأوقفوا آلة العرض، عادت خيزرانة الخفراء تضرب الأطراف الواقفة من الجماهير، هناك فيلم ثانٍ.

كان الفيلم الثاني يحكي عن رجل يرتدي قميصًا وبنطلونًا ويحب

واحدة في الصحراء ترتدي ملابس البدو، وكان الرجل يطارد حبيبته وسط مرابط خيام القبيلة، ويمكنه أن يختار في أي لحظة أي رداء يريد، بدلة أو الملابس البدوية بما فيها العقال، وكان يجيد الضرب بالسيف، شجاعًا قويًّا فاهمًا. وعندما جذب البدوية إليه في عنف قوي على جذع شجرة أو نخلة اندفعت زغرودة قوية جادة من وسط سويقة العرض، وانطلقت بعدها ضحكات ثم زغاريد، وانتابت الناس رغبة في المهاترة، وتشاجر واحد جالس مع واحد واقف دون سبب، وصفعت بنت صغيرة امرأة وأمسكت في ملابسها بطريقة صارخة شرسة، وعاد الخفراء ينبهون القوم بمراعاة النظام، لكن الرجل الأفندي البدوي داهم رابحة مرة أخرى وحط الصمت ـ إزاء المشهد ـ على الجميع، فإذا بالشاشة البيضاء العريضة تأخذ رابحة وبدر لاما أو أخاه أو أحد أقاربه وتهتز في الريح ـ هذه الشاشة ـ ثم تسقط على التراب.

وبدأت الخيزرانات تأمر الجميع بأن ينفضوا ويعودوا إلى منازلهم.

وظللنا سنوات نحكي عما شاهدناه ليلتها، بمتعة قوية وذاكرة قوية، ونحن نخوض مياه الترع أو على الشواطئ، حتى نجحت بلدنا في إنشاء سينما قرشي لترجح كفتها إزاء ملوي.

كلمات لها معنى

كالعادة، اتفق الجميع على أنها دار الخيالة، وعند الكتابة سموها: سينما.

*

الفرق بين السينما والمسرح أن المسرح وجد له مكانًا في الوزن: مفعل، وظلت السينما تتأبى على الوزن.

*

السينما رضعت فن التمثيل من المسرح، والفيديو يرضع الكوارث من السينما.

*

لقد استطاعت السينما أن تنهى عن الجرائم بشكل فذ حتى إن عددها زاد أضعافًا في السنوات التالية.

*

السينما فن الممكن حتى ولو استحال تصوره بعد ذلك.

*

حتى في عز شيوعية الأقطار الاشتراكية: درجة موقعك في السينما تحدده إمكاناتك المادية.

الحبل

أداة وصل، وجر، وتثبيت، وعشق، وانتقام

عرفنا الحبل مبكرًا، ربما كان أول «مصنوع» بعد تشذيب الحجر، وبالتأكيد كان مفتولًا من ليف النخيل، كما هي بعض أنواعه الآن. وقد تكون عملية فتل الليف هذه أسبق مباشرة من شغف الأصابع بالعزف الموسيقي، ويميل رسامو الكاريكاتير إلى تصوير الرجل البدائي وقد سحب أنثاه من شعر رأسها، وهم لا يستطيعون مغادرة هذا التصور، لماذا؟ لأن البديل لشعر رأس المرأة في حالة هذه الطريقة في الجر ـ أن يستعمل الحبل، واستعمال الحبل حتى في الكاريكاتير ـ سيفتح الآفاق الواسعة لاستعمالاته المروعة للذكر والأنثى ـ وحتى الصبية والأطفال.

لقد كانت ألياف النباتات (وأقواها ليف النخيل) ثم الشعر الحيواني، عناصر موفقة لصنع أداة الربط هذه، وكانت أولى المهام التي استخدم الحبل فيها ـ غير سحب الأنثى ـ اصطياد الحيوانات، وتحديد مناطق النشاط الخاصة بمن امتلك حبلًا، ثم كان الحبل

إشارة لتحديد الوضع الاجتماعي، وأقصد بذلك أن زعيم القبيلة القديمة ربط الحبل بشكل أنيق حول أول سروال من أوراق التوت. وهو ما يفعله ـ بشكل أنيق أيضًا ـ بعض الضباط الآن حينما ترى حبلًا ـ بالتأكيد ليس من الليف ـ وقد التف مع نجوم الأكتاف أو حزام الوسط. وإذا كان كل أفراد القبيلة القديمة تسلحوا بأغصان الشجر الغليظة أو بالهراوات، فلا بد أن التعامل بالحبل كان يحتاج إلى دراية خاصة، انظر للأمر في هدوء وأنت ترى القبيلة كلها وقد وقفت تنتحب إزاء مشهد لواحد منهم وقد التف الحبل حول رقبته تنفيذًا لحكم يقضي بإنهاء حياته، على أن الحبل الذي بدأ أداة للجر، ووسيلة للتحكم أو القيادة، أو تنفيذ الأحكام، لم يلبث أن تطور به الأمر وأصبح حبائل. إنه الفخ التاريخي المصاحب لحركة الإنسان، سواء أكانت حبائله ناعمة دقيقة مثل ملمس الأنثى، أو كانت خشنة شرسة كملمس المعاهدات والاتفاقيات الناجمة عن حرب ضروس، التي يفرز القوي فيها الحابل من النابل، أي المكتنز حبلًا وحملًا من الضامر نبلًا وخواءً، حيث لم تستعصِ كثير من المواد على فتل الحبل، ليس من ليف النخل فقط، بل ومن شعيرات الكتان والقطن والحرير.

والمتلمس ـ بالنظر ـ الأصابع وهي تفتل الحبل، تتحرك وتتعانق وتنفرج وتتشبث، وتتلمس نسير النخل مع قليل من الماء ليشيع في المادة الرطوبة والليونة المطلوبتين، ثم تعود الأصابع فتنقبض وتجعل الأنسجة تلتف في دقة، الذي يرى هذا سوف يحس فورًا بالشد والجذب والاختناق. إن ملايين الأميال تتحرك بين هذه الأصابع

لتصبح قوى تدعيم المقاطف (المصنوعة أصلًا من خوص النخيل)، ولترتسم بين قرون البقر والجاموس، ولتشتد بين دعامتين في سيرك لتظهر مدى مرونة وسحر القافز بينهما، ولتنسج حولها مساحات من الحصير والكليم (نوع معروف من السجاد البلدي)، وليتم نشر الغسيل الزاهي على كيانها الممتد في الشرفات والسطوح، ولتتنسم الهواء في قلوع المراكب وتسهيل تحريكها، ولتمتد بالبيارق والأعلام في الساحات والميادين، ولتتألق بالشرر الكامن تزويدًا للناقلات والقطارات بالكهرباء، أو تلتف عنيفة قاسية دموية حول رقاب الضحايا، حتى الولائد يخرجون من بطون أمهاتهم وقد جذبوا معهم هذا الحبل السري الذي يُعد ـ في حد ذاته ـ معجزة إلهية بكل المعايير.

أما حبل الحياة فهو شريان الوريد الخارج من القلب إلى العنق كي يصل إلى المخ، والذي يسري عليه التنزيل العزيز: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ». أما العرب القدامى فيقولون: «حبلت فلانة فلانًا»، ويعنون: أوقعته في شباك حبها وسحرته، أما إذا قلت حبلت فلانة فقط، فالمعنى واضح ولا يحتاج إلى بطن منتفخ لتفسيره، وحبل العاتق: عصب بين العنق والمنكب (وهو الذي يتألم شديدًا حين يصاب شريان القلب بالجلطة ـ الذبحة الصدرية). وحبل الذراع: العرق الظاهر في بطن الذراع، ومنه جاء قولهم: «هو على حبل ذراعك» ـ أي إنه في دائرة تناولك وفي المستطاع، وحبل الفقار: شريان يمتد في الظهر من أوله لآخره.

والحبل ـ أخيرًا ـ أداة وصل، وعشق، وانتقام، وتحريك، وتوليد،

وسحل، وضبط، وربط، كما أنه أيضًا يتدفق شعرًا حينما تقول: حبل الوصال، وحبل الوداد، حتى لو كان من ليف النخل.

كلمات لها معنى

يمكننا تعويض البصر بالبصيرة، البصيرة لا تعويض لها.

*

أكثر الأمور إثارة للسخرية الفادحة، هذا الصمت الذي يلجمنا حينما يتحرك أنجالنا ـ ذات ليلة ـ بعيدًا عنا ليصبحوا أزواجًا.

*

العقم: مساحة متألقة من الرخام البارد.

*

اجلس هادئًا وتشبث ببندقية، صف لي عوامل الشر التي تجتاحك حينذاك.

*

نزلت القبر مع جثمان صلاح عبد الصبور، فأصبح لشعره معنى غير كل المعاني التي يدركها الآخرون.

*

الوجه المتألق بالبشر يصعب عليه أن يكون حيوانًا.

*

ودليلي على أن السماء تعشق الأدب، أنها لا تزال تحتفظ بالقمر.

*

هذه الدروس المستفادة في الجامعات من دراسة العلاقات العامة، تبيح للعالم أن ينفرد بعيدًا لينشئ العلاقات الخاصة.

*

الشرر المتطاير أصله شر كامن.

*

بعض الحكام يستجلب الرمال قبل صيد النعام، حتى تستمتع بدفن رؤوسها فيه.

الحذاء

سيرًا ورقصًا وفنًا وتسلقًا للجبال

لعل الحذاء، والذي يُرتدى في القدم، هو الجزء الوحيد من كل الملابس الإنسانية الذي خرج عن دوره الساتر ليصبح أداة اعتداء يعاقب عليها القانون، حتى ولو لم يحدث ذلك بالفعل اكتفاء بالنطق، أو اكتفاء بالإشارة التي تفسر النوايا.

والحذاء من أقدم ما استخدمه الإنسان حماية لقدمه أيام كان يتسلل فوق حشائش الغابات باحثًا عن ثمار الشجر. وقد يكون الصندل هو الحذاء البدائي المناسب أيامها، والصندل الذي يرتديه تمثال رمسيس الثاني الضخم في أبو سنبل يعطيك إحساسًا بأن تطورًا واضحًا ـ وطويل الأمد ـ قد تحقق منذ أن كان الصندل مجرد «مداس» منتزع من جلد مؤخرة الديناصور. ولا يزال لفظ المداس مستخدمًا في مواقع عربية كثيرة مصدرًا من «الدوس»، ولغة سليمة تشمل جميع أنواع الأحذية، بصفتها غطاء راقيًا للقدم، وكان يصنع منذ بكوره من الجلد، قبل أن يداهمه العصر الحديث بالمواد

البلاستيكية، واستخدم ـ مع مصر ـ في حضارة ما بين النهرين ثم في بلاد الإغريق والرومان. وجاء أيضًا إشارة للزراية والاحتقار في أغاني الرعاة القدماء الذين اجتاحوا أوروبا، وهناك أنواع من أحذية الركوب (ركابات) استخدمها الهكسوس والجرمان والوندال وأهل النوبة في التعامل الخاص مع الحصان أو الحمار. ويظهر في السينما الأمريكية اهتمام واضح بنوعية متألقة ـ وبسيطة ـ كان يرتديها أعضاء مجلس السناتو (الشيوخ) الروماني في «يوليوس قيصر»، كما أن «اليزابيث تايلور» أدت دور «كليوباترا» وفي قدميها «شبشب» خفيف ورقيق مما يصلح لإثارة الوصل والود بين العرسان المعاصرين ـ في الريف المصري بالذات، ومن قديم الزمان استخدم ذو الرقبة للسفر والصيد، كما استعمله ممثلو المسرح الإغريقي، وكان ذا نعال سميكة ليصبح معمرًا، وفي أدوار الآلهة والعواهل والعظماء كانوا يبالغون في ارتفاع رقبة الحذاء، والتي تصل إلى ما ترتديه فصائل معينة من الشرطة وعمال رفع قروانات مواد البناء (يُسمى الحذاء هنا «الكُزْلك»)، كما أن أنواعًا من الأحذية الخشبية عُرفت مبكرًا، واستخدمها الفلاحون في شرق أوروبا في القرن السادس عشر. ومع مرور الزمن تم تثبيت الصندل الخشبي في الحذاء الجلدي، ومن هنا ظهرت فكرة الأحذية ذات الكعوب، والتي فيما يُظن كانت تُرتدى لأسباب طبية حتى تحافظ على الاتزان الجسدي للبشر ذوي الخلفيات السمينة، كما أن تحويرات كثيرة واجهت الحذاء كي يصلح لاختراق المستنقعات. وصل ارتفاع بعض الأحذية مثلًا إلى الأفخاذ، ومنها أحذية مدببة من الأمام، وبعضها ذو بوز

طويل لدرجة أن مقدمها كان يربط بركبة صاحبها بسلسلة. وهناك أحذية عريضة المقدم، وأخرى ذات نعل سميك مبالغ في سمكه، كما أن الفرنسيين وفي وقت مبكر ـ قبل الثورة الفرنسية بقرنين ـ صنعوا الحذاء ذا الكعب العالي للنساء والذي يكشف عن مدى خفتهن ورقتهن. كذلك ظهرت اتجاهات تجميل الأحذية بالحلي والمعادن الثمينة، والمواد البلُّورية العاكسة للضوء، كما حليت بالأشرطة والزهور. وثمة أنواع مصنوعة أصلًا من الفراء ولم يكن يستعملها في أوروبا إلا أهل الشمال سكان مناطق الجليد، والأثرياء من اللوردات والدوقات ونساؤهم من أهل وسط وجنوب أوروبا. وفي شمال أمريكا استخدم الهنود الحمر أحذية من جلد الغزال مصنوعة من قطعة واحدة تُسمى (موكاسين). وفي المغرب ـ وكان أيضًا في مصر منذ ثلاثين عامًا ـ كانوا يستخدمون أحذية من قطعة واحدة من جلد الجمل، تعالج بالدباغة وتعيش طويلًا ولها أناقتها الخاصة، حمراء أو في لون الحناء بالمغرب، وزيتية أو ذات لون بني محروق في مصر، وتُسمى بالمركوب، وجمعها مراكيب، ومنها جاء حذاء متسلقي الجبال، والذين يحدون الجمال مسافات طويلة.

وفي منتصف القرن التاسع عشر ابتكرت آلات صناعة الأحذية التي اختصرت جهود الحذائين أو «الجزمجية» باللهجة المصرية الدارجة، كما استطاع «ليمان بلاك» الإنجليزي تطوير الآلة وجعلها تخيط نعل الحذاء ـ ذي الجلد السميك ـ مع وجهه ذي الجلد الأزرق، مما أحدث تغييرًا في صناعة الأحذية، جعل إنتاجها الوفير يتوجه إلى الفقراء الذين كانوا ـ عادة ـ لا يرتدونها، ولا سيما من كانوا من

طبقة العمال، وبمرور الوقت تطورت هذه الصناعة حتى وصلت إلى نماذج سائدة تكاد تنتج بكيفية واحدة في معظم أنحاء العالم (ستاندرد). غير أن ذلك لا يحول دون أنواع من الأحذية لها وقعها التاريخي في نفوس البشر، حذاء سندريلّا الذي انخلع من قدمها عندما أزفت الساعة التي حددتها الساحرة لانتهاء الوقت المناسب للرقص، وقيام الأمير ـ الذي هام بها حبًّا ـ للبحث عنها وفي يده فردة حذائها، كذلك مجموعة القباقيب ـ بصفتها أحذية بدائية ـ التي استعملتها جماعة «أم علي» من المماليك لقتل شجرة الدر، التي سبق لها أن قتلت زوجها الحاكم في نفس المكان (الحمام). وهناك ـ خارج التاريخ ـ وداخل مملكة النباتات تجد حذاء الست: زهرة برية من جنس الأوركيدا ذات أزهار صفر أو بيض أو وردية، وتعيش في الشمال الأمريكي. وفي المملكة الاجتماعية نجد أحذية خاصة كانت تستخدم لحلقات الزار في مصر، وفي المقابل أحذية ذات تكوين رقيق خالص تستخدمها راقصات الباليه. وظهرت أحذية أخرى للمبارزة وللسير على الشاطئ، وراقصات قاعات اللهو ولاعبات الجمباز ومتسلقات سلالم السيرك، كما أن في الشارع المصري أنواعًا من الشبشب البلاستيك المدلل بـ«زنوبة». وكان المحكوم عليهم بالإعدام ـ في القرون الماضية ـ يستخدمون نوعًا من الأحذية الواسعة حتى لا تسيل نقطة دم واحدة من الرقبة إلى الأرض، وكانوا يسمونها «الجزمة» والتي يخلو منها القاموس العربي، لكن اللفظ تسلل من غرفة الإعدام حتى أصبحت الجزمة اسمًا لجنس الأحذية، دون اهتمام بحكاية التسجيل في القواميس.

أصبحت الاستعادة مؤلمة ومستحيلة: للكتب والذكريات من الماضي، وللابتسامات في الحاضر.

❋

الأخلاق الكريمة تأخذ استمرارها من المنطقة الدافئة للمشاعر: الحب.

❋

المبالغة في الثقافة مثلها في النظافة: مرض.

❋

الضباب: غيم غرير مراهق، يحول دون الرؤية الصحيحة.

❋

الجبَّانة هي المكان الواسع الذي تدفن فيه الأجساد دون النظر إلى أنها لشجعان يخلون من الجبن.

❋

لا يزال السلام يعني عند المقهورين مجرد توقف المدافع.

❋

الصداقة كالكلاب: تتعدد أنواعها وأحجامها وتفاصيل أجسادها وتنوع عاداتها، وتتحد في لغة المخاطبة: نباح واحد غليظًا كان أو رفيعًا.

الماء

الخالد المتألق موسيقى في الغروب، والكاسح الهادر في الكوارث والقنابل الذرية

«وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ»، ويتمدد الماء في التكوين الأزلي مسطحًا، وكامنًا، بخارًا في التاريخ، والمخلوقات، والحركة، والأرض، ليصبح لعاب الكون، وطاقته، وطهارته، ودموعه المأساوية، وضبابه الغامض، وغيومه الساخرة، ودمه المنسكب عنفًا، وحبًّا، وتصارعًا، واندماجًا، حتى العقل يمكن أن يكون له ماؤه الذكي، وإلا أصبح العقل مسطحات من الجليد البارد هابط الحرارة وخالي الذكاء. وعندما تتهادى شمس الغروب مستثيرة حمرة الخجل على سطح الماء، فإنما تصنع هذا المشهد الرومانسي الذي يدفع الفؤاد كي يتخلى عن الواقع الدميم الشرس، والذي قد يقودك ـ إن أمعنت عميقًا فيه ـ إلى القفز من بين غيوم الأسئلة. أما مشهد إشراق الشمس فيعكس على السطح الغامض الممتد للماء إحساسًا دافقًا بالأمل دون تمويه، مع أن التمويه يأتي من الماء، يقولون: ماهت

البئر: ظهر ماؤها، وماهت السفينة: دخل فيها الماء. وبعد ذلك يأتي فعل التمويه الذي تقوم به أجهزة المخابرات والمباحث وأصحاب الكنوز واللصوص وتجار المخدرات حينما يصنعون مظهرًا يخفي ما يعتمل به الباطن. عليك أن تضيف ـ للتمويه ـ شرائح الممثلين والسياسيين والثعالب، والذين يخاطبون الجماهير أو يقودونهم أو يتلاعبون أمامهم بالحقائق كالحواة والمشعوذين والمذيعين، وإن كانوا ينقلون إليك أخبار السيول الجارفة.

والماء هذا الذي يبدو ـ أحيانًا ـ ساكنًا أو هادئًا أو هامسًا، هو القادر على أن يكون هادرًا يحتضن في اتساع أمواجه الكاسحة أعتى البوارج، أو أكبر البواخر، ثم ينداح رقيقًا كالنسيم، أو يندفع عابثًا من ارتفاع الشلالات ليغمر الواقع بالارتجاف، ليجعل السماء تبتسم في تخاذل وهي تقبل قوس قزح. إن الماء ـ هنا ـ قصيدة غامضة التفاعيل، أو موسيقى تصطدم برعب الإعصار في الجزء الأخير من «شهرزاد» عند «ريمسكي كورساكوف»، أو الجزء الأوسط في الحركة الثانية العاصفة عند «بيتهوفن» في سيمفونية «الباستورال» (السادسة)، أو هذه النغمات العذبة التي تفتتح بها الإذاعة البريطانية البث العربي من المياه الموسيقية لـ«هاندل»، أو نغمات العود الهائمة في بحر النيل عند عبد الوهاب في النهر الخالد، أو إيقاعات الغرام الحالم في الجندول المتماوج بالبندقية في غمار قصيدة علي محمود طه الممتزجة بأنغام عبد الوهاب أيضًا. ويصعب علينا الخروج من هذا الدفق الموسيقي دون أن نتطارح بالأشواق على حافة «بحيرة البجع» لـ«تشايكوفسكي»، تحت أجنحة الإوز الأبيض كي نستتر

بعيدًا عن عيون الإوزة الشريرة السوداء، لا سيما أننا لا نجيد التزلج أو التزحلق على الجليد تحت وقع أنواع من الموسيقى التي لم يشبعها ماء البحار والمحيطات والأنهار والسحب، فلجأت إلى المساحات الشاسعة في «الانتراكتيكا» (القطبية الجنوبية)، أو الأخرى الواقعة في القطب الشمالي، أو حتى هذه التي احتواها الماء في زمن الأساطير، أي «الأتلانتيد» أو القارة المفقودة.

والماء عالم واسع له مخلوقاته التي تسعى بين أمواجه وفي أعماقه، أسماك، وحيتان، وعرائس بحر، وشعب مرجانية، وثعابين، وتماسيح، وسلاحف، وهوام، وحشرات وأنواع من الجراد. ومن أبطال «ملفيل» (القبطان «إهاب» الأعرج المطارد للحوت «موبي ديك»)، و«هيمنجواي» (العجوز الذي تلاعب به البحر فأعطاه أكبر صيد مع ألفي فاجعة)، و«لودفيج» الذي كتب أجمل كتاب عن نهر النيل، وعبد الله الطوخي الذي بدأ حياته بعمل أدبي ـ هو «النهر» ـ دون قياس سابق. في نفس العالم المائي الذي التهم الباخرة «كوين» و«الأتلانتيد» وعشرات من ضحايا الماء بصفتها كوارث بحرية أو نهرية، حتى حين تمور عيون الأرض بمائها الفاتن، والذي نتلمسه بالأيدي والأقدام أو الأجساد، فيريق في الكيان حبورًا، ومتعة، لا يسهل الحصول عليها بطريقة أخرى، متعة لا حدود لها، تفوقها سعادة قمة جبل أرارات حينما لاحت من بعيد لأهل سفينة نوح بعد اندحار الطوفان.

والماء أنواع تتعدد، منها العذب الذي تقل نسبة الأملاح الذائبة فيه بحيث يصبح سائغًا، وإن زادت ملوحته أصبح نوعًا آخر هو ماء المحيطات والبحار وبعض البحيرات. ومنها الماء المعدني الطبيعي

الذي يخرج من جوف الأرض وبه أملاح معدنية تكسبه طعمًا خاصًا، قد تضفي عليه خواص طبية، ومنها الماء المقطر الناتج عن تكثيف البخار والذي يخلو ـ تمامًا ـ من الأملاح، ثم الماء العسر الذي لا يحدث رغوة مع الصابون والمنظفات بسبب أملاح الكالسيوم والماغنسيوم، وعندما يتخلص من هذه الأملاح يصبح ماء اليسر (بفتح الياء والسين)، ولا ننسى ماء الزهر أو ماء الورد ذا الرائحة الجميلة والطعم الخاص المستساغ في «الشربات» والعصير، ثم هناك الماء الثقيل الذي يتم إعداده بزيادة عنصر الأوكسجين فيه كي يصبح جزءًا مهمًّا في تصنيع القنابل الذرية والهيدروجينية. أما أخطر أنواع الماء قاطبة فهو ماء الوجه الذي يريق على المحيا الإنساني الرونق والألق والكرامة، ثم يكون ماء الشباب الذي يعني النضارة والنشاط، وهو الذي كان وراء هذه الأغنية التي تشدو بها الفنانة ليلى مراد على صخرة مرسى مطروح بإحساس شديد النضارة بالماء والهواء، تمهيدًا للدخول في عالم الحب الملتهب، الذي ازداد التهابًا كلما اقترب من الماء الممتد في الآفاق، وآخر النهار بالذات.

كلمات لها معنى

مصطلح أدبي يتشبث به نقادنا في الفترة الأخيرة: فضاء الجسد، تمهيدًا للدخول إلى فضاء المخ.

*

العقارب تتغذى على الخنافس، فلماذا الدهشة؟

*

حملني ابنها في سيارته كي ألتقيها، عند البيت اعتذرت له كي يسبقني، وبدأت أتلصص حول البيت كي أراها!

❊

أجمل ما تنطق به أنثى: لماذا تأخرت؟ وإن كانت هي المديرة التي تعمل تحت سطوتها.

❊

عندما تنتقل حبيبتك من حالة رد الفعل إلى الفعل، فإنما هي تقترب من دائرة الزواج.

❊

سكين في يد الجزار، تتلمسها يد الطبيب فتصبح مبضعًا.

❊

حفيدتي الوليدة لا تزال ـ وهي نائمة على ظهرها ـ ترمق مكتبتي بنظرات لا تريحني بالمرة.

❊

استرح قليلًا في مقعدك، وعليك أن تستدعي في خيالك العدد الهائل من أنواع الأصدقاء الذين مروا في حياتك، بعدها يمكن لك أن تقرأ كتاب شارلز داروين: «أصل الأنواع».

❊

حتى الجبال ستجد منها ما يحب أن يكون متحركًا.

❊

السليقة المرهفة تختنق في الأعماق.

السوق [مرة أخرى]

التي تتحكم في أسعار الغذاء والفخار والنساء والرجال والبترول والسلاح وقصائد الشعر، وأشياء عديدة أخرى

كانت أختي الكبرى ترتب أرديتها ـ الشال بالذات فوق الرأس ـ وتسحبني من يدي لأهبط بها في الطريق المؤدي إلى السوق، أظل أتصادم في سيقان وأذرع الناس المتجمعين زحامًا ونقاشًا وهمسًا ـ مع استهلاك كمية وافرة من أصوات الحلف والقسم لتأكيد الثقة. إنني الآن أجلس خارج القرية أكاد أمد يدي إلى أي أخت في العالم كي تسحبني ـ طفلًا ـ إلى بطن السوق، التي كنت أعتقد أنه لا توجد سوق سواها (على فكرة: السوق تذكر وتؤنث) غير أن الأسواق كانت خارج سوق قريتي، سوق غير معلنة (لم أقل سوقًا سرية) تقوم بتسهيل أو تنشيط التزاوج، ثم هناك السوق المقامة طوال العام لترويج المخدرات والمؤثرات في العقل والأعصاب، وسوق الخبص للمز والنميمة التي تُعنى بنشر الكراهية والشائعات وعناصر الأخلاق السيئة، والعواصم ـ

كل العواصم ـ تكون مركزًا لتسويق السيارات ونجوم التمثيل والآراء الهدَّامة والجرارات والأفكار المناوئة لأي نظام قائم والتلفزيونات واستخراج تقرير طبي يساعد على الهروب القانوني من الخدمة العسكرية. كما أن للأشياء القديمة ـ الملبوسات بالذات ـ أسواقها الخاصة، في القاهرة، مثلًا ـ سوق الكانتو في العتبة وهي التي يلجأ إليها كثير من منتجي الأفلام السينمائية للحصول على الملابس المناسبة بسعر رخيص وسوق السبتية ـ وراء بولاق ـ وتتعامل في كل شيء تقريبًا، من الملابس ومواد التجميل حتى أجزاء من السيارات والقاطرات والطيارات ومدافع الهاون.

وتكاد كل قرى مصر تنظر بعيونها يوميًّا نحو الأسواق، فقد اعتادت أن تنسق بين أيام أسواقها حتى لا يتطابق سوقان لقريتين قريبتين في يوم واحد، وهو ما يساعد ـ بالطبع ـ على ترتيب الحصول على المراد دون اضطراب، وخصوصًا أن كل سوق ـ مهما اكتملت ـ تكون قاصرة في نوع ما. فمثلًا قريتنا ـ ديروط الشريف ـ تقوم بها سوق للفخاريات، وكانت تهتم بهذه الصناعة دون باقي القرى القريبة، ولا تزال أطلال (الفواخير) قائمة قريبة من السوق حتى الآن بالرغم مما أحدثته التطورات الأخيرة من تقليص التعامل في هذا الصنف من المشغولات اليدوية المشكلة من طمي النيل بمواصفات خاصة وإضافات خاصة أيضًا. وكانت سوق الفخار تشع بالجمال الناجم عن ترتيب الوحدات المتماثلة في تشكيلات ذوقية، الأزيار الكبيرة تحوطها أزيار صغيرة، القلل الحمراء، وهي غير القلل البيضاء (القناوية) وقد برزت زخارف رقابها الممتدة إلى أعلى، أو زخارف أجسادها المتكورة إلى أسفل، رسوم بالسليقة لزهور

ورؤوس طيور، ثم المناطيل (جمع منطال): أوانٍ فخارية يستخدم بدلها الآن الأكواب، مرصوصة قريبة من الأزيار تمعن فيها وتحاول أن تقترب منها في حب أبوي أو أموي ـ أيهما أعمق وأدفأ ـ المواجير (جمع ماجور) الخاصة بالعجين، وقد احتوى الأوسع الأقل وسعًا في جوفه حتى يبدأ صف المتارد (جمع مترد ـ ماجور صغير) ومنها جاء اسم مأكول الثريد الموروث، صحاف سمك الفرن بالبرغل (نوع من الفريك المصنع من حبوب القمح)، زلعة تخزين السمن وبجوارها الزبدية التي يتوقف عملها عند التعامل بالزبد. أنواع أخرى عديدة من الأواني تساقطت أسماؤها من الذاكرة لكنها لا تزال حية: قدرة تدميس الفول أو إنضاج اللحم الجملي تلك التي كانت تدفن في تراب الفرن فور انتهاء الخبيز ولا يتم الاقتراب منها إلا بعد نصف يوم، وأجمل عدس بالبصل والزبد والثوم والفلفل تذوقناه منها، ثم صفوف من أزيار صغيرة يحفظ فيها اللبن الحامض عامًا كاملًا حتى يصبح لبنًا معتقًا هو العنصر الأساسي في صناعة الكشك، بلاليص تعتيق الجبن وحفظ اللفت والعسل الأسود، جرار نقل الماء وأباريق تبريدها وتثليجها، ثم هناك الأواني الفخارية المفلطحة التي يسهل على الجمال والأبقار والشياه والماعز والأرانب والدواجن تناول المياه منها. سوق الفخار هذه ثابتة تلحق بالسوق الأصلية، ويعاد تنظيمها كلما هل يوم السوق الأسبوعية، ويكون معظم عملائها من النساء الريفيات. كان ذلك قبل أن تنتشر وسائل النقل وتتطور وسائل تسويق البضائع، وقد اندثرت أنواع كثيرة من بضائع هذه الأسواق وظهرت بدائل بعضها في أكياس بمحلات «السوبر ماركت» أو المحلات المتخصصة في الأواني،

لا سيما أن التغييرات التي داهمت العادات كان لها تأثير كبير في ذلك. وقد كانت الأسواق جزءًا من تاريخ أي أمة ـ حتى ولو لم يتم تسجيلها في كتب التاريخ، لكن أشهرها ـ بالطبع ـ سوق عكاظ التي اشتهرت في الجاهلية، وموضعها بين نخلة والطائف وذي المجاز، وكانت تجتمع فيها القبائل عشرين يومًا من بداية هلال ذي القعدة. وسبب شهرة هذه السوق ـ كما هو معروف قيام الشعراء بإنشاد الشعر وإلقاء ما استحدثوه من التفاخر والحماسة والمجادلة. وقد تطور ذلك إلى المؤتمرات الأدبية المنتشرة في ربوع العالم العربي ـ سوق للشعر فقط دون الأشياء الأخرى، ذلك ما بدا منفصلًا عن السياسة مثل سوق ليبزج في أوروبا، وكونتيكت في أمريكا، ومونتريال في كندا، أو ما كان قائمًا على مبادئ سياسية بحتة كالسوق الأوروبية المشتركة. وأخطر الأسواق هي أسواق البترول وأنشطة البورصات العالمية، وأسواق السلاح، والسوق السوداء التي تنشأ موازية للسوق المعلنة وتقضي عليها، ثم أسواق العبيد التي اندثرت تحت سطوة استعباد اقتصادي من نوع آخر.

كلمات لها معنى

تصادم الأكتاف ليس بسبب الزحام، إنه التقاتل.

*

لماذا نشأت السلالم؟ الإجابة: للصعود إلى أعلى حتى السطح، لا أحد يذكر في إجابته الهبوط.

*

أخطر ما في المرض ليس الألم، إنما الإنصات الشديد لما يحدث.

*

كلما شاهدت قردًا يقفز فوق الأغصان، روعني ما حدث لي.

*

الطمي مغرم بالزرع، الرمل مغرم بالأجساد، ولكل مشاربه.

*

الأخبار التي تأتينا في عمق الليل، نادرًا ما تتسم باللياقة.

*

كل إناء ينضح بما فيه، فماذا بعد أن أصبحت كل الأواني معدنية؟

الساعة

من المزولة.. حتى يوم القيامة

يُروى عن جدي (الذي حانت ساعته الأخيرة قبل انتصاف القرن العشرين) أنه عثر على قطعة معدنية ذات بريق ملقاة في طريقه، فانحنى ليلتقطها مسرورًا، لكنه لم يلبث أن فوجئ بقطعة سلك دقيق تتقافز تحت بللورتها، فاضطرب الرجل اضطرابًا شديدًا، لا سيما أن السلك كان مصحوبًا بدقات غامضة ومتوالية، فألقى الرجل بالشيطان أرضًا، وأجهز عليه في شراسة بعكازته حتى توقف تنفسهما: الرجل والشيطان، فتلطخت سيرة الرجل الطيب بالطريقة التي وقع فيها «شارلمان» ملك فرنسا إزاء ساعة أهداها إليه الخليفة العربي هارون الرشيد قبل ذلك بقرون.

والساعة التي في معاصمنا الآن، أو على حوائط قاعتنا، أو المشكلة تحفة لها ذكرى في بيوتنا، أو تلك التي ينحني أمامها موظفو العالم وعماله توقيعًا في حجرها إثباتًا لوقت بداية أو نهاية أعمالهم، أو هذه التي تشكل جزءًا من بيانات السرعة والوقود على

لوحات القيادة في كل الآلات والماكينات والسيارات والطائرات والبواخر، أو تلك التي تعلو المتاحف والكنائس والميادين والمساجد، ومختلف دور العبادة. كل هذه الساعات إنما هي المرحلة الأخيرة في تطوير المزولة ثم الساعة الرملية أو المائية، أي تلك الساعات البدائية التي صاحبت حركة الإنسان في مختلف الأحقاب والأزمان الماضية، والتي أصبحت الميراث الأعظم والمؤثر لهذه التشكيلات والإشارات التي زخرفت سقف قاعة معبد دندرة ـ في قنا المصرية، والتي يقال إنها أقدم رسوم لترجمة معنى الوقت، بما فيها أبراج حركة الشمس والقمر، لقد كان هذا السقف فلكيًّا أيضًا، ومثيرًا للخيال، أكثر بمراحل من الساعة الذرية الحديثة أو تلك الإلكترونية التي تعمل داخل برامج الكمبيوتر وسفن الفضاء.

وأول تطوير ذي شأن للساعة المائية ـ بعد المزولة والساعة الرملية ثم المائية ـ كان في القرن السادس الميلادي لتصبح بداية الساعة الآلية.

وفي القرن التاسع عشر، ظهرت الساعة الكهربائية لكنها لم تنتشر إلا عام ١٩٣٠، وإن ظل استخدامها محدودًا بسبب ارتباط دوام تشغيلها باستمرار التيار الكهربي، والذي كان ينقطع فترات تؤثر بالطبع في الجدوى من الاعتماد عليها في التوقيت، وكانت فرنسا وإنجلترا هما مركزي صناعة وإنتاج الساعات في تلك الفترة، ثم دخلت المجال ألمانيا، فالولايات المتحدة، ثم سويسرا التي أصبحت في طليعة الدول التي تصنع الساعات.

وأشهر الساعات في العالم هي «بيج بن» التي تزن ما يقرب من ١٤ طنًا، وهي قائمة أعلى برج دار البرلمان في لندن، وتتابع الإذاعة البريطانية إذاعة دقاتها، ثم ساعة ستراسبورج ـ عاصمة الألزاس الفرنسية الثقافية والتجارية ومقر المجلس الأوروبي المتحد، وساعة مبنى «متروبوليتان» للتأمين على الحياة في نيويورك الأمريكية.

ويقال إن مدينة نورمبرج الألمانية هي التي صنعت ساعة اليد في وقت مبكر، هذه الساعة التي أصبحت رمزًا لهدايا النجاح، والزواج، وإثارة نشاط الإنجاز، والرغبة في التواصل الغرامي، مع أن لحظة الموت تخضع ـ أيضًا ـ للفظ الساعة، وتطلق الساعة كما هو معروف على يوم القيامة لأن له موعدًا محددًا عند رب الدنيا والآخرة، ويقال إن جاء لفظ الساعة نكرة في القرآن الكريم فالمقصود المعنى الزماني مثل: «فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ»، «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ». فإذا جاء لفظ الساعة معرفًا فإنما المقصود يوم القيامة: «حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا».

أما بين الناس فقد ارتدت الساعة أرديتها المعطرة ـ أو البائسة ـ المناسبة: «ساعة الحظ لا تعوض»، «ساعة لقلبك» ـ برنامج الإذاعة الشهير من المثل الدائر: «ساعة لقلبك وساعة لربك»، ثم «ساعة أن أراك جنبي» كصياغة فصيحة وساخرة لما يثيره محمد عبد الوهاب في أغنيته الشهيرة: «ساعة ما باشوفك جنبي»، ثم هناك ما شدت به أم كلثوم قديمًا في نغم بالغ التوسل: «ساعة رضاك»، أما «ساعة

الصفر» فهي التي بعدها مباشرة تبدأ الحركة الأولى في الحرب، أو مداهمة البنوك والمصارف، أو افتتاح المشروعات، أو الاغتيال، أو استشراف بداية أول لقاء مع المحبوب المأمول. وهي الساعة الميمونة أيضًا تقابلها ساعة النحس التي تدركنا فيها النوازل والعواصف والكوارث والأخبار السيئة، رعاك الله وحفظك منها.

كلمات لها معنى

ما طار طير وارتفع، إلا وتمنينا أن يقع.

*

والمشكلة ليست في الصبر الذي هو مفتاح الفرج، بل في حاجتنا إلى مفتاح الصبر ذاته.

*

المفاجآت التي تصيب الناس بالذهول بعض الوقت، قد تكون سببًا في الوقوع داخل البلادة طوال الوقت.

*

القدرة العلمية على التحليل ثم الاستنتاج، دمرت قدرة الإحساس الفطري على الرؤية المبكرة، والمتأخرة.

*

أسمع من أهلي ثناء عاطرًا لأني أرعى وأراعي أمي، لم يدركوا حتى الآن أن الرعاية أرخص من الإهمال، وأسهل أيضًا.

*

السقف الذي يحميك من تقلبات الجو: مسكون بالثعابين.

*

انظر إليهم: يتزاحمون على الأبواب الضيقة للشر، دون أن ينتبهوا لهذا الوسع الذي تتصف به أبواب الخير.

*

الصلاة خير من النوم، وتحتاج إلى إرادة خاصة.

التوابل

لذة الالتهام والتواصل وقطع طريق القوافل

في سنة ٤٠٨ ميلادية، اجتاح «ألارك الأول» ـ ملك القوط ـ الإمبراطورية الرومانية، وحاصر العاصمة روما، وطلب أن تكون التوابل ـ وبالذات الفلفل ـ جزءًا من الفدية حتى يفك الحصار، وقد رفض قبول بدائل من ذهب أو أسرى أو حيوانات، فلما لم تستطع روما الاستجابة لطلبه من التوابل، شدد الملك «ألارك الأول» حصاره ثم لم يلبث أن نهب عاصمة الرومان ـ وعاصمة الدنيا كلها في ذلك الوقت. وبعد ذلك بدهور قام واحد من المدرسين في المرحلة الابتدائية بتطليق ابنته من مهندس مغرم بالفلفل الأسود، كما أن جدتي وضعت الفلفل الأحمر مسحوقًا في كمية من التبن حتى تتعرف على اللص الذي يستولي على علف بهائمها، كان اللص جارها وكانت بهائمه قد انطلقت ثائرة في عصبية تداهم الحوائط والأزيار فور ذلك. وحادثة شهيرة في جنوب مصر العليا أثناء تهجير أهل النوبة عام ١٩٦٤ بسبب تصميم امرأة عجوز أن تصحب معها

لفافة ـ تحت إبطها ـ كانت سببًا في إصابة كل من كان على ظهر السفينة بالعطس بمجرد فتحها لمعرفة محتوياتها: فلفل أحمر وأسود وشيح وكمون، وقد رفضت العجوز إلقاء اللفافة في النهر، فاضطر أصحاب الأمر والنهي أن يزيدوا كثافة اللفافة حتى لا تتسلل منها الرائحة النفاذة. ولا نعرف أمة معاصرة لا تعرف التوابل، أو البهارات، أو الكاري ولا أي مجتمع يجهل شيئًا عن شؤونها ففي قبائل البوشمن الأفريقية، كان الساحر يرش مسحوق الزنجبيل والينسون ـ أو الأيسون أو القيسون ـ على جذع الشجرة المقدسة وعند اشتعال النار تداهم الرائحة جموع البوشمن الصارخين بالولاء خشية الشيطان، دموعهم تجري في غزارة، فالبهارات منتجات نباتية ذات رائحة حريفة قوية، وذكية أيضًا تستعمل الآن لإعطاء الطعام نكهة ومذاقًا، وكانت من قبل أكثر اتساعًا في استخدامها حتى في بعض المشروبات، وتشمل الفلفل (بأنواعه المتعددة) والخردل واللبان الهندي والقرنفل والقرفة وجوزة الطيب والكراوية والأيسون والزعتر والنعناع ـ وأسماء أخرى لأنواع لا نعرفها مثل المردقوش والقصعين، وبالتالي نسقطها من هذا المقال ـ حتى نرتاح وتؤخذ البهارات بمعالجة الأجزاء الأغنى نكهة في النبات: اللحاء أو الجذع أو البرعم أو الزهرة أو الثمرة أو البذرة أو الورقة وتستعمل هذه البهارات ـ في الأغلب ـ على هيئة مسحوق وبعضها في صورة خلاصات زيوتها الأساسية، وكثير منها يستعمل دون تخليص مثل رؤوس الثوم، والكراوية، والخردل. وتقضي البهارات على الملل الذي يصيب كبار القوم من الاعتياد على مأكولات معينة،

كما أن جماعات عديدة لا تذوق طعامها ـ الفقير أو الدسم ـ دون معالجته بالبهارات، ولذا فإن الظاهرة التي كانت تثير العجب عند ورودها في التاريخ صحيحة وقائمة على أسبابها الكامنة في اشتهاء الطعام: قوافل البهارات من الجمال الصابرة القوية تخترق القارات عبر الصين والهند إلى موانئ البحر المتوسط أو الخليج العربي، ووراء هذه القوافل كانت أسرار من حروب ومعاهدات واجتياح ونهب وقيام دول وانهيار أمم. لقد كان الفلفل الأحمر والزنجبيل والكمون عناصر أساسية في حضارات تهيئ المعدة الشبعانة لمتعة العقل المطمئن، وكانت كمية من البهارات تصل ـ آخر الأمر ـ إلى أسواق أوروبا تجعلها تعيد التفكير بخياشيمها المفعمة بالرائحة النفاذة ـ أو الحريفة، وعندما قطعت طرق القوافل بواسطة المغول والقوقاز والأتراك، داهمت أوروبا رغبة حادة في البحث عن طريق أكثر أمانًا للحفاظ على مطلوباتهم من التوابل الثمينة، وهو ما أدى إلى اكتشاف طرق جديدة حول أفريقيا عبر المحيطات الواسعة، وكانت الأثمان المرتفعة وما يترتب عليها من أرباح البهارات سببًا في منافسة مريرة بين الدول الأوروبية، داخل أوروبا وخارجها، وحتى بعد اكتشاف مساحات شاسعة تنتج البهارات في أفريقيا، بديلًا عن الهند، ظلت الرغبة الدولية في البهارات أعلى من أي مساحات جديدة، إنها لا تشبع، فظلت الهند ـ حتى الآن، ومعها جنوب آسيا ـ بؤرة رغبات الشعوب في التوابل. لكن المساحة الأفريقية ساعدت على انتشار التوابل، أو تعميمها، لتصبح في متناول يد كل الجماعات البشرية، حيث لا تخلو القرى ـ في مصر ـ من بائع للتوابل، دون

أن تغفل العين عن هؤلاء الغرباء الذين يخترقون الكفور والنجوع يسيرون خلف الحمير لينادوا على الشطة والفلفل ومسحوق دود البطن، ذلك أن التوتر العصبي العصري استحدث أمراضه الخاصة مستعينًا بالتوابل لتظهر قرحة المعدة على رأس القائمة ثم اتضح أن أمراضًا أخرى تعشق هذه البهارات عشقًا دمويًّا: تهيج المصران الغليظ، وارتكاريا البولينا بما فيها الحساسية الجلدية، والهرش، وانهيار المساحة الصوتية لتشابه صوت الوطواط. ومع ذلك فإن الرجال والنساء الذين يبحثون عن لحظات ساخنة يميلون إلى التشبع بمأكولات مشبعة بالتوابل، (هل لهذا السبب يخفت صوت العرسان في الصباحية) كما أن محلات الكشري والطعمية والبصارة والعدس تميل إلى إشعال النار في مأكولاتها لتجهيز «خلطة» منفصلة عن الطعام كي يتصرف فيها كل واحد بالطريقة والكمية التي يريدها، وهو ما أدى بي ذات مرة ـ بين جبال البحر الأحمر ـ أن استعذبت أكلة مكونة من السمك المهروس في الفلفل المملح، كان طعمه عذبًا ولذيذًا، (فقضيت شهرًا في المستشفى بسبب إصابتي بالحمى)، كذلك فقد نمت أسبوعين في مستشفى آخر بسبب التهامي للحوم متبلة بعدد غامض من التوابل، كانت فخذ جمل قديمة عند أهل قرية موط بالصحراء المصرية الغربية، وخلال فترة نومي مريضًا كنت أركب حصانًا وأقطع به طريق القوافل حيث وقعت أسيرًا مرات عديدة في شمال الجزيرة العربية، أو عند صحراء اليمن، أو في ميناء سواكن الأفريقي، حتى يأتي الطبيب ليوقف خيالاتي المشتعلة بحقنة تخدير جديدة.

ليس صحيحًا أنني أسعى كي أصبح رئيسًا للدولة، إنما الصحيح أن رؤساء الدول هم الذين يسعون كي يصبحوا أدباء.

❋

والأوتار أيضًا يصعب العزف عليها إن أهملت فترة طويلة.

❋

التحكم من بعد ـ أي الريموت كنترول ـ بدأ يفقد جاذبيته عند استخدامه في الآلات والأدوات والمصنوعات الحديثة، ولذا فقد أخذ يجرب فاعليته في الأخلاق.

❋

أنجبت الهندسة آخر مولود لها: الجبر، لكنه لم يلبث أن هجر حجرها، وتضخم ليصبح وصيًّا عليها ومهيمنًا على كل خيالاتها.

❋

ليس هناك أفضل من عيون جميلة، لأنثى جميلة، تترقب وصولك.

❋

الذهول حالة إنسانية أفضلها ما يصيب الحيوانات: رجاء أَلَّا تمعن فيها.

❋

أنواع عديدة من السعادة، أكثرها شيوعًا: كرة القدم.

البوُّ

هذا الشاخص لاستثارة الحنان وإدرار اللبن مع تزوير العواطف والأوضاع

لكي تنطق «البوُّ» نطقًا صحيحًا افتح الباء واقذفها دفقة صوتية حادة لتشدد الواو: «بوُّ»، وفي القاموس: البوُّ جلد ابن الناقة ـ أنثى الجمل ـ يُحشى تبنًا ويقرب من أمه لتحنو عليه معتقدة أنه ابنها الحي تمهيدًا لأن تدر اللبن. ولا يزال أثر من هذا في الريف المصري حين يواجه الفلاح أمر بقرته الوالدة حديثًا بعد التصرف في عجلها الوليد بالبيع، أو حين تواجه البقرة ذاتها موقعة الإجهاض، حيث يعد لها البوُّ المناسب، وتظل البقرة الوالدة تتشمم هذا الشاخص قريبًا منها، تتشكك فيه اقترابًا وبعدًا، ثم يرهقها عناء المشاعر فتميل إلى التصديق، عند ذلك تبدأ فتلحس هذا التكوين المقارب لتشكيل عجلها الوليد. والذين أتيحت لهم فرصة المشاهدة سيلمحون أثرًا لدموع في عيني البقرة الأم تتألق مع حركة لسانها، وسيأخذ الأمر وقتًا حتى تستجيب الأثداء: تداهم السخونة حلماتها فتتوقد منتصبة لتسحب السائل

اللبني الساحر من الشرايين المعقدة الممتدة في الضرع، وعندما تصل الاستجابة إلى ذروتها تبدأ الأنامل حركتها الشفوق الناعمة لتنظيم دفق السائل الأبيض الدافئ ـ الساحر مرة أخرى، حيث يكون البوُّ ـ في هذه اللحظات ـ قد أقصي بعيدًا.

ولعل الأبقار والجواميس والنوق (جمع ناقة) هي الأنواع الحيوانية التي مورست معها عملية الاستحلاب باستخدام البوِّ، وفي واحة موط ـ بالوادي الجديد جنوب غرب مصر ـ حاول أحدهم استدرار لبن غزالة باستخدام بوٍّ من جلد وليدها سعيًا وراء فوائد ناجمة عن مواصفات طبية شعبية (تساعد في صلابة رجولة مأمولة)، لكن الغزالة ظلت صامدة حتى انفجرت حلماتها ـ بين الأصابع المؤلمة ـ دمًا، ولعل ذلك الصد الصامد يرجع إلى حالة الأسر والحصار. حيوانات عديدة تفقد التجاوب في ظروف كهذه، ويعرف علماء الحيوان أن عددًا كبيرًا من الحيوانات لا يمارس خصوبته في الأسر والاعتقال، وتحت ضجيج المدن وفي مراكز مجالات الدوائر المغناطيسية والكهربائية، الإنسان ـ أيضًا ـ قد يحدث له ذلك.

والأجيال الحديثة لا تعرف البوَّ، مع أن عالمه واسع وغزير منذ أحقاب التاريخ، هو العقائد الأرضية التي تُحشى بقش التمييز العنصري في اللون والجنس استحلابًا لخضوع شرائح لسطوة شرائح. وأضخم أنواع البوِّ التاريخية كانت في روما القديمة حين اعتقد مجلس السوناتو الحاكم أنه الوليد المدلل للإمبراطورية الرومانية، ثم النازية الألمانية الحديثة التي أنبتتها قدرات الاستحلاب الصهيونية، وفي المقابل واجهت الصهيونية العالم الحديث بتضخم من القش الذليل لتسعى إلى

وطن اختُلق اختلاقًا، وفي أول موقعة اكتشف العالم كله أن الشاخص الأبيض في أفريقيا كان مجرد بوٍّ وقع تحت سطوة هجوم كاسح من البقرة الأفريقية الأم، وكانت الكنيسة الأوروبية في القرون الوسطى تتضخم ضاغطة في دموية على العروش والدوقيات والمقاطعات، حتى اكتشفوا أنها مجرد بوٍّ أيضًا يقوم بعملية ابتزاز، وفي العالم الثالث تستمتع كثير من الأنظمة بإعداد البوِّ الخاص بها، تمسح بيدها على رأسه في حنان دستوري مشابه للعجل الدستوري الحقيقي، في العالم المستقر، ولا تزال ـ في العالم المستقر كذلك ـ تهيمن أنواع من البوِّ الواضح: إيرلندا تحاول ـ من قرون ـ أن تثبت لبريطانيا ـ المملكة المتحدة ـ أنها لا تستجيب لأنامل الإنجليز ذات المدافع الحانية، كما أن البوَّ الماركسي لم يقاوم طويلًا فور معاملته عجلًا أصيلًا: وقع على مسطح الأرض ـ أوسع مسطح ملموس في العالم الحديث عند أول احتكاك لتغيير جلده الكالح، ولا يزال بوُّ العراق كارثة ممتدة لا يقل في نواتجه المؤثرة على الأمة العربية عن البوِّ الصهيوني.

ويمكن اختصار مواقع البوِّ في «خيال المآتة» ـ هذا الشاخص الواقف مفرود الذراعين بين الحقول ليرهب الساعين للنيل من ثمارها: اللصوص والعابرين والثعالب والذئاب والعصافير والغربان. ومن الملاحظ أن كثيرين يألفون مشهد البوِّ ـ خيال المآتة ـ حتى إنهم يغتصبون الثمر المأمول ثم يجلسون في ظلال الحارس الوهمي ليرتاحوا، تمامًا كما ترتاح كثير من الدول المغتصبة في ظلال هيئة الأمم المتحدة، والفرق بين البوِّ وخيال المآتة واضح: الأول يقوم بدور الحارس، وكلاهما يفقد أهميته فور اكتشاف دوره، مع أن

الذين حولهما يصممون دائمًا على أنهما ـ كلاهما ـ لا يزالان يؤديان دوريهما اللذين أنشئا ـ أو صنعا ـ من أجلهما، أرجو ألا تستبعد كثيرين من ذوي السلطة أو الهيمنة من هذه المسألة.

وعندما كنا صغارًا تعودت أمهاتنا ـ نحن أبناء الريف أو المناطق الشعبية في المدن ـ على تشبيه وجوهنا ـ أو تصرفاتنا ـ بالبوِّ (عامل زي البوِّ)، إعلانًا عن تشاؤمهن لارتباطنا بالخراب ـ أو الخزي ـ الذي يحيط بأهلنا، غير أن قاضي محكمة أسوان رفض هذا التبرير حينما رفعت زوجة دعوى طلاق ضد زوجها الذي دأب على إطلاق تشبيه البوِّ عليها، وقال في أسباب الرفض إن لفظ «البوِّ» صدر في وقت الغضب، ولو كان الزوج تلفظ بذلك الوصف في اتزان وهدوء وعقلانية، لأصبحت المساءلة القانونية واجبة. بعدها بأسابيع داهمت زوجها أثناء نومه، وأنهت الموضوع كله بمعرفتها، ولذا لزم علينا التوقف الآن بدعوى التقاط الأنفاس.

كلمات لها معنى

الأذكياء نادرون عند أعلى القمة، لأن أجسادهم النحيلة تتضخم بما يعوق استمرار الصعود.

*

كبار السن يبدون شجعانًا، الجبن يحتوي على الملح الممنوع طبيًّا عليهم.

*

الذهب لا يثير اللعاب، إنه اللحم.

*

نجح الجبر في إنشاء حصن لغوي قوي: الجبروت، أما الضعف والرقة والحنان والدماثة واللطف فقد فشلت في ذلك.

*

شعرت الريح بالحرج حين اقتربت من خدها، فأصبحت نسيمًا.

البحر

المثير للحلم والرؤى المتلاطمة في الجغرافيا والموسيقى والشعر والغرام

أكثر البحار اتساعًا واستعمالًا في العالم: بحر الغرام، والذي يرد كثيرًا في الأشعار والمواويل والأغاني، في بلادنا وبلاد الآخرين، وهو مجاز تعبيري يشي الإبحار في أمواجه العاطفية بالمكابدة والمعاناة، وتبدو فيه ـ هذا البحر المتلاطم ـ شجاعة المحب وبسالته، وقدرته الفائقة على الغوص في عمقه ليصل إلى الدر واللؤلؤ والمثيرات الأخرى، ويليه ـ في الأهمية: بحر الشعر العربي الذي قامت على تعدد مساحاته القصيدة العربية منذ العصر الجاهلي حتى جاءت الحداثة الأولى على يد بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وصلاح عبد الصبور محافظة عليها مع عدم الالتزام بالقافية، وبعدها أصبحت بحور الشعر العربي نهبًا لغير المتمكنين من الإبحار، فتهشمت المساحات والشواطئ وانتاب الغموض كل ما تلقي به الأمواج، غير أن البحر المتوسط، أو بحر الروم قديمًا، أو ما يتصف به من أنه البحر

الأبيض، فلعله أهم كل بحار العالم، إذ هو الوحيد الذي يتوسط ثلاث قارات ـ آسيا وأوروبا وأفريقيا، كما كان ـ ولا يزال ـ بؤرة تصادم ـ أو توافق ـ الحضارات: الفينيق والروم والفرس والعرب والعثمانيين، وحالات المد والجزر والعواصف والسكون في هذا البحر تؤثر في مزاج الدنيا كلها، ولا سيما أن الديانات السماوية أنزلت قريبًا من شواطئه، وبالتالي فإن رحلات معظم الأنبياء تتوازى مع شواطئه الشرقية والجنوبية لتكون المنبع العظيم للأخلاق ونظم الحياة الدنيا والأمل في الآخرة المريحة المأمولة.

وكل مساحة مائية تتسع أو تزحف نحو الآفاق البعيدة الغامضة هي بحر، حتى المحيطات ـ التي هي في التعريف الجغرافي أكثر اتساعًا وعمقًا من البحار ـ تشملها كلمة بحر، ومنها جاء البحر المحيط، لينفصل المحيط عن البحر في العصور الحديثة. لكن الذاكرة الإنسانية ظلت ـ ولا تزال ـ تتلاطم مع تلك الأمواج العاتية التي دمرت سفينة السندباد في قصص ألف ليلة وليلة، أو «ربنسون كروزو» عند الإنجليزي «دانيال ديفو»، أو عند الأمريكي «هرمان ملفيل» في «موبي ديك»، أو حتى البحر الذي لم يواجه فيه بطله أمواجًا عاتية عند «هيمنجواي» في «العجوز والبحر». فقد ظل هذا الأفق الممتد ـ الغامض حتى ونحن نعرف ما وراء الامتداد ـ يثير في الذهن الإحساس الضاغط بأن الأمور ـ هناك في آخر المدى ـ لا تزال تحمل علامة الاستفهام الضخمة، وهو ما عبر عنه الموسيقي الروسي «ريمسكي كورساكوف» حينما وضع موسيقى المتتالية الشهيرة ـ وبالذات في أقطارنا والتي تحمل اسم «شهرزاد»، مجموعة أفكار مستقاة من مفهومه لشهرزاد التي كانت

تنتظر الأمير، هذا الذي عاد منتصرًا، لكنها ـ الحبيبة المتوقدة صعبة المنال ـ طلبت منه أن يخترق حجب البحر (لماذا؟ لا أعرف) حيث قام الأمير باقتحام البحر بسفينته، في موسيقى ذات مذاق بالغ العذوبة ـ وبالذات لنا نحن العرب الذين قد لا نتذوق بسهولة موسيقى الغرب التي تخلو من التطريب الشرقي. ثم لا يلبث الأمير العاشق المحب، والمتهادي على صفحة ماء البحر الأنيس الأليف، أن تداهمه عاصفة، وتصوير هذه العاصفة لا يزال أقوى وأجمل ما قدمت الموسيقى، حيث ينتابنا نحن المستمعين للعاصفة، ثم الهبوب الثاني، ثم الثالث، فترات متوجسة من الصمت والسكون، بعدها تكون الواقعة الدامية التي تتحطم فيها السفينة، وتتلاطم الأمواج العاتية حول المقاومة الإنسانية للأمير، حيث تحمل الأمواج ـ التي بدأت تهدأ ـ جثمانه المناضل لتصل به ـ في جنازة وداع مؤثر ـ إلى شاطئ، لتكون النهاية هي ذات النغمات التي بدأت قوية طاغية جذابة في أول المتتالية، لتنتهي إلى نعومة بالغة الشجن في نهايتها.

وتحتل الألوان عددًا لا بأس به من البحار ابتداء من الأبيض المتوسط، ومرورًا بالأحمر الممتد بين قارتي آسيا وأفريقيا ـ وحوله كثير من أقطارنا العربية، ثم الأصفر ـ وهو ذراع للمحيط الهادي يقع بين الصين وكوريا، فالبحر الأسود في جنوب روسيا وشمال تركيا وشرق بعض أقطار أوروبا والذي يتصل بالمتوسط عن طريق البيسفور وبحر مرمرة والدردنيل. كما أن كثيرًا من الأنهار العذبة ـ وحتى الترع والجداول ـ تتنازع لقب البحر، مثل بحر الجبل ـ وهو جزء من نهر النيل بين بحيرة البرت ونهر السوباط، ثم بحر الزراف جنوب السودان،

وأيضًا ـ في ذات الجنوب السوداني ـ يكون بحر الغزال، كذلك يمكن أن نضيف ترعة بحر يوسف الشهيرة التي ـ فيما يقال ـ كانت مجرى نهر النيل الأول، أو كانت فرعًا من فروعه، ولا تزال تأخذ طريقها من مدينة ديروط ـ بلدتي الأثيرة ـ لتخترق الوادي المصري عند الحافة الغربية، لتصنع منخفض الفيوم، وتصب في بحيرة قارون.

وربما يجرفنا البحر إلى عالمه المتعدد، حتى حينما يتم تصغيره ليصبح بحيرة، وهي تلك البحيرات المنتشرة على وجه الدنيا، والتي ـ برغم تصغيرها ـ هي أكبر من كثير من البحار التي لم تتعرض لهذا التصغير: البحيرات العظمى في أفريقيا، والبحيرة المالحة ـ هذا اسمها ـ قليلة العمق في شمال أمريكا، كما أن بعض البحيرات تتسع لتصبح بحرًا ضخمًا مثل بحر قزوين، والبحر الذي يشغي بكل أنواع الصراع والقلق: البحر الميت في فلسطين.

وسيظل البحر: محيطًا كان أو ترعة أو بحيرة: جزءًا من الخيال الإنساني المؤثر في الحلم البعيد، نرتعد ـ حين يداهم رؤانا ـ ثم نستكين ونهدأ، ونستمتع بهذا المشهد الذي يفوق أي مشهد في شجنه وجماله: قرص الشمس الذي يزحف غربًا كي تضمه أمواج البحر الهادئة.

كلمات لها معنى

كل أنواع الطيور البيضاء يقلقها نعيق الغربان.

*

حنجرة أم كلثوم ذات الاتساع والعمق، لم تستطع ـ بكل قوتها ـ

أن تجد لها موقعًا في أي نوع من أنواع الشعر الحديث، السر في الشعر ذاته.

*

سيظل الثور ـ بصفته الذكر البقري ـ هو المستهدف بصفات الغباء، مع أهمية استدراجه إلى حلبات المصارعة، هل سمعت عن مصارع يداور أو يناور بقرة؟

*

يقوم العصر الحديث بتدمير أخطر ما تختص به الأنثى: الحياء.

*

إجابة عن ظاهرة سطوة الرجال بالانفراد بالقيادة في جميع أنحاء العالم، وفي مختلف الدول والقوميات والمذاهب والأديان، إن كل القوافل التي ظلت تخترق الصحراوات منذ الأزل، كان الجمل ـ الذكر ـ دائمًا في مقدمتها.

*

حتى حين توقفت أناملها عن العزف، ظلت عيوني متشبثة بالحركة التالية، دون انتباه لهذا الصمت البالغ.

*

كل الكلاب الضالة في الشوارع والدروب والطرق، لا تود لأحد أن يهديها فيسلبها لذتها الخاصة بالتسكع.

العسل

المؤثر في القوة البشرية، والمعالج لأمور الباطن والدم والانتقام

لعب العسل أخطر الأدوار في حياتي، دعك من حياة باقي البشر الآن، فعندما حملوني هزيلًا أصفر العيون إلى طبيب البندر، أشار الطبيب ـ بعد الكشف والتمحيص والتقليب وفتح الفم، وبعد أن أمرني مرارًا باستنشاق عميق للهواء ـ إلى أن يهتموا بتغذيتي، وبصفة أولية، لا بد من مراعاة تزويدي بالعسل قبل الأكل، وكان العلاج ـ كما ترون ـ ميسورًا، وهو ما ارتاحت إليه أمي، ثم هو ما أدى بي إلى التفكير في الانتحار بعد ذلك بأسبوعين، عسل قبل الأكل وبعده وخلاله، وبين الوجبات ـ إن كان ثمة انضباط وجبات عندنا، فازدادت حالتي سوءًا، وبيتنا مفعم بالعسل، في «البلاص» الراسخ دائمًا في الحقول، ثم إن العسل ـ مع اللفت، والجبن الممصوص الخالص من أي دسم عناصر أساسية في الوجبات الريفية ـ في تلك الأيام ـ وانتهى أمر هذه المرحلة بالعسل ـ أي بعد أن ساءت صحتي من جديد ـ وبعد أن أشار

المختصون في القرية أنني بالتأكيد ممسوس بشيطان - أعوذ بالله - قد يحتاج إخراجه من جسدي إلى عدة جولات دق الزار، كان جسدي قد ازداد نحولًا وهزالًا، وعيوني اتسعت في صفراوية شديدة تؤكد ذلك، مما جعل الطبيب يعود لتقليب جسمي بين يديه، ويحاور أمي، ثم يصرخ: عسل أسود؟

كل الشريحة التي ننتمي إليها في صعيد مصر لم تكن تعرف من أنواع العسل سوى الأسود، وهو المستخرج من قصب السكر، وحتى عندما طالعنا النص الكريم: «فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ»، ثم قرأنا في المدرسة أن ثمة حشرات (يطلق عليها النحل) تنتج عسلًا، لم يطرأ في بال واحد منا أن ذلك ينسحب على عسل آخر غير عسل القصب، إذ إن منطقتنا كانت تخلو من النحل والعسل وعلومه ووسائل استخدامه. أما الآن فقد استعادت قريتنا توازنها وعرفت هذا النوع من العسل الأبيض، الذي يحتفي باستعماله المرضى والراغبون في زيادة القوة البدنية، أو قوة التركيز في التفكير، أو أي قوة مأمولة أخرى. ولذا فلم أستغرب حين عرفت أن معجم السب بالألفاظ النابية قد احتوى على مصطلح جديد هو التشبيه بالشمع الأصفر، والذي يحمي العسل - عسل النحل - كما يفعل الخفراء والخدم إزاء السادة وأصحاب السطوة.

ومع طرد هيمنة العسل الأسود على عقل الشريحة التي أنتمي إليها، بدأ عسل النحل يغزو حياتنا، ولا سيما بعد أن لجأنا إلى المدن، وإلى ثقافة المدن، مع أن بلادنا - في الصعيد - مركز الحضارات القديمة، والتي عرفت عسل النحل مبكرًا (عندما

بكى الإله رع، وسقطت الدموع من عيونه على الأرض فتحولت إلى نحلة، وصنعت النحلة قرص العسل لتشغل نفسها بأزهار كل نبات، وهكذا صنع الشمع) ـ بالنص من معجم الحضارة المصرية القديمة الذي قام به عدد من علماء أوروبا، وترجمه المرحوم أمين سلامة. أما خارج هذا المعجم فإن العسل مع قطرات الليمون يساعد على الهضم ومعالجة الإمساك، ومع قليل من المستكة يطهر الجهاز الهضمي من أي اضطرابات، فإذا أضفت للعسل مسحوق الحشيش ـ بغية الوصول إلى أوج المتعة ـ فمن المحتمل أن تلقى بعد ذلك بساعات حتفك بشكل أكثر احتفالية من المتعة السابقة. فإذا كنت ذكيًّا فعليك استخدام العسل صافيًا في بواكير قطفه ـ وهو ما يعرف بأول قطفة، ويكون أكثر صفاء من القطفة الثانية التي تميل إلى الاصفرار، أي دون أن تضيف إليه أي إضافات، وعلى الريق صباحًا، حيث يقلل من الكوليسترول ويساعد على تنقية الدم، وينظم السيولة داخل جسدك، ويخفف من ضغط الدم، ويقلل من الإحساس بالإجهاد، كما أن العسل مع حبوب الحلبة سليمة أو مسحوقة ـ علاج معروف لاستكمال أو استعادة اللياقة الصحية للوالدات حديثًا. أما إذا كنت تود الانتقام من أعدائك فعليك أن تتذكر أن العسل أدى المهام القاسية في هذا الشأن ـ مع إضافة قليل من الزرنيخ، وهي مسألة معروفة جيدًا لدى النساء مهضومات الحق إزاء الرجال، وهناك احتمال أن يكون عدد من العشاق لاقى مصيرًا مروعًا فور التفكير ـ في الخيانة ـ أو التحرر منَ حالة العشق ذاتها.

أما العسل الأسود، أي عسل القصب أو البنجر، فأمره يختلف تمامًا، لقابليته السريعة في التحول إلى كحول، كما أن قدرته الغذائية ـ والعلاجية ـ تتوقف عند ارتفاع نسبة الحديد في جزيئاته، لكنه يظل بعيدًا عن مجالات التأثير الخاصة بعسل النحل، والذي أدى اختلاطهما عندي ـ في سنوات عمري المبكر ـ إلى وقوعي في المأزق الذي كاد يودي بي، والذي لا يزال يطاردني كلما رأيت حقولًا للقصب، أو رسمًا لنحلة قريبة من خلية يحميها الشمع.

كلمات لها معنى

الكف ـ بمفردها ـ لا تستطيع التصفيق، لكنها ـ بالتأكيد ـ تستطيع اللكم.

*

تزداد العيون اتساعًا عند المحبين، وعند الأعداء أيضًا.

*

الصداقة لها طعم الفواكه اللذيذة، ولذا فهي تستهلك بسرعة.

*

أي هدية نقدمها لغيرنا دون أن يسبقها نية مؤكدة ـ هي باطلة تمامًا.

*

طبق الملوخية حين يتحرك في أولى خطواته بينهما، عليهما أن يدركا أن العشق قد بدأ يتراجع بشطائره الجاهزة.

*

أمي ما زالت مصممة على أن أبي لم يعرف أحدًا سواها، مع أنه رحل منذ ستة وثلاثين عامًا، ودون أن يكون الموضوع في الكلام مطروحًا.

*

إطلاقًا، إنني لا أشعر بالحرج حين أمعن في عينيها، الحرج يبدأ فور اضطراب الرموش بعيدًا عن عينيها.

العصا

تلك التي تتلاعب في أصابع التاريخ والسحرة والسلاطين والرعاة.. والعرسان ومآرب أخرى

ظلت عصا «أبو رجل مسلوخة» مهيمنة على عقلي منذ سنوات الطفولة والصبيانية (حتى الآن)، كان هذا الرجل طويل القامة ممزق الملابس معصوب العين، ساقه اليمنى ـ أو اليسرى ـ تفح بألم الأربطة البالية، يتوكأ على نوع من العصي غير المشذبة والتي يفوق طولها قامته. كان أبو رجل مسلوخة يداهمني في الكوابيس الليلية متسللاً من حكايات أمي وجدتي (قبل أن يستولي التلفزيون على وظيفة الحكي المأثور بلا حنان أمي أو جدتي)، كما كانت عصاه قادرة على الانتشار السريع في الدروب والحقول، ومسارب الجبال، أي في أيدي المتسولين وأبطال حلقات التحطيب وكبار السن ورعاة الغنم والفتوات والمدرسين وشيوخ الكتاتيب. متعددة الأشكال ـ هذه العصي ـ حسبما يكون لصاحبها من وجاهة أو وظيفة، تكون طويلة أنيقة ذات طرف مكسو بالجلد في حالات الوجاهة والأناقة،

وتظل تقصر حتى تتخلص من أناقتها ونعومة ملمسها لكي تصلح أداة عقاب للحيوانات وصغار العمال والتلاميذ. قد تكون مصنوعة من الخشب، أو من سيقان أشجار الخيزران (الغاب الهندي) أو الجميز، أما العصي التي تصنع من جريد النخيل فتقتصر على شؤون الرعي دون الوجاهة.

وأخطر عصا تاريخية - في القصص الديني - هي عصا النبي موسى عليه السلام، والتي حلَّت له - ولقومه - مشكلة العطش: «فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ»، والثانية حينما هُزم سحرة فرعون في مباراة إثبات الذات واستعراض القدرة، فقد ألقى السحرة بعصيهم لتصبح ثعابين تسحر عيون الناس وتسترهبهم، وحين ألقى موسى بعصاه تحولت إلى حية مروعة التهمت إنجازات سحرة فرعون (وردت القصة مرات في القرآن الكريم - منها ما جاء في سورة الأعراف من الآية ١٠٥ إلى الآية ١١٧)، ثم كانت هذه العصا هي التي استخدمها في ضرب البحر فينفلق ليتيح له ولقومه الهروب من فرعون الذي يداهمهم بجيوشه.. (وقد ورد ذلك أيضًا في مواقع عديدة بالقرآن الكريم منها سورة الشعراء، الآية ٦٣).

أما أكثر العصي شهرة في الأدب الشعبي فهي التي يمتلكها جحا، ويقوم بالتلاعب بها حين يداهمه أمر الحكمة الساخرة، مثلما ورد في حكايته مع ابنه حين سار خلفه وقد أركبه الحمار مما أثار تعليقات الناس، فقام جحا بامتطاء الحمار مع ابنه مما أثار - على الحمار - شفقة الناس، حينذاك قام بالانفراد ركوبًا للحمار تاركًا ابنه يسير خلفه مما

أثار انتقادات الناس، بعد ذلك أصبح مناسبًا أن يعلق جسد الحمار في عصاه ويحمله مع ابنه لتصل الموعظة إلى منتهاها دون أن يريح الآخرين. وربما كانت هذه الحكايات هي بدايات فلسفة الوجودية التي وصلت إلى أوجها في العصر الحديث على يد الفرنسي «جان بول سارتر»، حينما جعل الآخرين طرفًا جديرًا بالانتقاد (أو الإلغاء) إذا ما كنت تبحث عن تحقيق قيام الذات دون كدر.

وقد لوحظ أن كثيرًا من علماء الدين لا يستغنون عن العصا دون أن يكونوا في حاجة كي يتوكأوا عليها، وربما كانت العصا ذات الرأس الملتوي ـ أي العكازة ـ أشهرها، هي عادة قديمة ـ أي موروثة ـ ربما ترجع إلى هدف الحماية من عوائق حرية الحركة في الدروب والطرق أيام الخوف المبكر من الكلاب، هذا إذا لم يكن القصد الأصلي هو الاستعانة بها في السير بالنسبة لمن تكون ظروفهم الشخصية غير موائمة لحرية الحركة لخلل في الأقدام أو السيقان أو العيون، مع أن كثيرين من الوجهاء ـ في العالم كله ـ كانوا ـ ولا يزالون ـ يتمتعون بامتياز استخدام العصي الصغيرة ـ أو القصيرة: الباشوات والكونتات والدوقات، وهناك عصا المارشالية الشهيرة والتي كان الرئيس أنور السادات مغرمًا بها ـ مثل عظماء قادة الجيوش، ولها رأس من ذهب مزخرف يعطيها شكلًا فاخرًا، وخاصًا. كما أن جزءًا أساسيًّا من الهيئة الملكية ـ وحتى الآن أيضًا ـ يعتمد في تشكيله الرائع على العصا الملكية، والتي يحمل رأسها ـ عادة ـ شعار الملكة، وأشهر عصا روائية كانت تلك التي يمتلكها «شرلوك هولمز» طوال فترة أدائه القصصي عند السير «أرثر كونان

دويل»، كانت قصيرة وجميلة وبها زخارف جلدية أنيقة، يعبث بها حين يجلس في غرفته محاولًا فك طلاسم الاغتيالات المتوالية ـ مع أهمية تدخين سيجارة مصرية ـ وهذه ظاهرة ولا علاقة لها بكوني كاتبًا مصريًّا ـ أما العصا الفرعونية ـ والتي نشاهد لها أشكالًا فائقة الزخرفة في الهياكل الفرعونية القديمة ـ ذات رؤوس تحمل رموز أرباب الفراعنة ـ فقد ظلت مطمعًا لأخطر تجار ومهربي الآثار، آخرها عصا توت عنخ آمون التي سرقت من فوق صدره المعروض بجناحه الخاص بالمتحف المصري.

لا أود أن أستغرق في جذب عالم فن العصا المرتبط بألعاب التحطيب والفروسية، أو تلك العصا الرفيعة الخيزرانة، والتي كانت جزءًا من تشكيل هيئة العريس القروي، حينما يخبط بها ـ مع التصفيق الضاج والصارخ ـ على الباب الذي تكون العروس خلفه مستعدة لاستقباله الاحتفالي ـ تمهيدًا لأن تنتهي مهمة العصا الاحتفالية، لتبدأ وظيفة أخرى قد تتعلق بتربية العيال أو الذود عن الحقول والحيوانات والبهائم، أو في مجال تأديب الطرف المصون، والذي أثرنا موضوع الاحتفاء بالوصول إليه ـ أو إليها ـ من سطور قليلة.

كلمات لها معنى

إننا جميعًا نتواطأ معًا، أو كل بمفرده، كي نستمتع بقتل الوقت، وإلقاء جثته على قارعة الملل.

*

وعندما رفعت كفها ـ في احتجاج غاضب ـ استطعت أن ألمح ظل عروقها المتألقة داخل لحم ذراعها الشفاف.

*

همَّت بالخروج وهي تشكرني في ابتسامة بالغة الرقة والامتنان والعذوبة لأني أنقذتها منهم، فظل الباب مستعصيًا على الفتح.

*

كثيرون يتقافزون، دون أن يكون في مجال السير ما يدعو إلى القفز.

*

ليس صحيحًا ما يشاع من أن آسيا هي أوسع ـ أو أكبر ـ القارات، يسبقها في ذلك قلب أمك، ويسبق الاثنين: قلب أمي.

*

عندما تتمرغ الرؤوس في التراب، يفقد المخ قدرته على الإدراك.

*

أجمل كلام تسمعه عن الشجاعة يأتي من الجبناء.

النجوم

من عنصر الخلاء الرومانسي ونجوم الغناء

أخطر ما فعلته المدينة الحديثة ـ ذات الأضواء الساطعة ـ أنها قطعت الطريق بيننا وبين النجوم، حيث لم يعد ممكنًا ـ خلال المأزق العاطفي المتكرر ـ أن تتوجه للنجوم ـ نجوم الليل ـ كي تبكي على حالك، وحتى القرى والنجوع والتجمعات السكانية المتفرقة وقعت في مصيدة الكهرباء بما فيها من أضواء وراديوهات وتلفزيونات ـ لا تنس سطوة الألعاب الإلكترونية والكمبيوتر ـ مع أن الآباء ـ طوال الأحقاب الممتدة ـ صادقوا النجوم واهتدوا بضوئها وتوحدت توقعاتهم ومشاعرهم في سلوانها بحثًا عن العزاء الأزلي المفعم بالشجن. وكنت ـ وبيتنا أيامها في الحقول خارج القرية ـ أتقافز بين النجوم لائذًا بالملائكة هاربًا من شياطين الأرض، وكثيرًا ما بحثت عن الجنة التي عاش فيها أهلي القدامى ـ آدم وحواء ـ في واحدة من هذه النجوم، كما أن الأمر لم يخلُ من مواقف حارة اشتعلت فيها عاطفتي المتشبثة بالبنت ـ محبوبتي ـ كي أخلو بها بعيدًا

عن «العزال» وفي منأى عن مناطق سيطرتهم في القرية. ما زلت أسعى لذلك حتى الآن دون اهتمام بكل الكتب والمطبوعات والأفلام والمعلومات التي داهمت المسافة الرومانسية الجياشة التي أهلكت فيها أكبر كمية معروفة من الأحلام الإنسانية، والتي كانت قمة هزيمتها واندحارها مشهد هذا المخلوق الذي يتحصن في ملابس ذات تكوينات غليظة (تشابه ما يرتديه غواصو أعماق البحار عادة)، حيث يهبط فوق سطح القمر ليجرح مشاعر تعودنا أن تتسامى رقيقة ودافئة، هذا المشهد يتكرر يوميًّا بشكل آلي في كل تلفزيونات العالم.

ودنيا النجوم واسعة ومتسعة ومعقدة، ليست فقط بصفتها من أوائل التكوينات الكونية التي أثارت خيالنا ورعبنا وتوجسنا وتوسلنا وأدعيتنا، بل ـ وحتى حينما أصبح الفلك علمًا يدرس في أعلى وأعمق مراتب البحث والتمحيص والتحليل والاستنتاج، لقد اتسع علم عالم النجوم ـ بشكل مذهل ـ ليجذب كل التخصصات في الطب والجيولوجيا والضوء والمغناطيسية والكهرباء ـ وكل قوانين الوجود. ومن أجل سلامتي العقلية ـ وسلامتكم ـ فإننا نتوقف ـ عادة ـ عند حدود الاطلاع المتفائل على تخمينات الحظ التي تنشرها الصحف في أبراج حركة النجوم. وقد أتاح لي ذلك أن أستأثر باثنين من هذه الأبراج: السرطان والأسد، فقد ولدتني أمي (والتي لا أعرف لها برجًا حتى الآن) آخر ساعات منتصف ليلة ٢٢ يوليو والتي يكون صباحها ٢٣ يوليو، أي في تلك اللحظات الحساسة التي يودع فيها الكون برج السرطان في احتفال مهيب استقبالًا لبرج الأسد. لكن

المأساة ـ مأساتي بالذات ـ تبدأ حين أطالع حظي في برج السرطان لأحظى بثروة مفاجئة، غير أن الأسد يدخل مدار حظي الذي ينص على الكارثة التي قد تحيق بي (أحداث مؤلمة من صديق أو حبيب أو قريب) فأضطر أن ألوذ بالحكمة التي تنقذني: كذب المنجمون ولو صدقوا، وألقي جانبًا كل ما عرفناه من هذه العلاقة الوثيقة بين الحكام والقادة ـ وبين العرَّافين والمنجمين، وفي مختلف العصور والتي كثيرًا ما وردت في الكتب التي تناولت حياتهم وحكاياتهم، إنه الخوف الإنساني الأزلي من الغد وما يكتنفه من غموض قد تبدده رؤى هؤلاء المستشارين. وما زلنا نذكر حوار «تريزباس» مع الملك «أوديب»، والذي حلل فيه العرَّاف أسباب الوباء الذي اكتسح المملكة، والمتضمن رؤية سابقة أن «أوديب» سوف يقتل أباه ويتزوج من أمه. كان نجم «أوديب» قد دخل مرحلة النحس الذي أدى به إلى ملك أعمى ـ من هول ما عرف ـ تقوده ابنته كأي ضال في هضاب الإغريق.

لكننا ـ دون أن نكون ملوكًا أو قادة ـ أنشأنا ـ حديثًا ـ معجمًا لاستخدام النجوم بعد أن ظلت تدور في أفلاك الشعر القديم والأساطير الشعبية وطقوس الزواج والإنجاب واحتمالات الانتصار. فالإنسان المعاصر ذو المشاعر الرقيقة: نجمه خفيف، أي أنه قابل أن يصبح مضطربًا إزاء أحداث لا تدعو إلى الاضطراب، والمنجوم هو الذي تصيبه الكوارث المتوالية ـ أي ذو الحظ العاثر، والنجم ـ أو النجمة ـ صفة لمن يبرز في سطوع سماء عمله: الفني فيَ معظم الأحوال: كالتمثيل والموسيقى والغناء. أي يمكنك

أن تقول إن تحية كاريوكا كانت نجمة الرقص الشرقي، وفاتن حمامة في التمثيل، وعبد الحليم حافظ في الغناء، أما أم كلثوم فقد تم تصعيدها لتصبح كوكب الغناء ـ أعلى بعدة مدارات عن كونها نجمة، لكنك لا تستطيع أن تقول عن جمال كامل إنه نجم الرسم، أو محمد حسنين هيكل: نجم التحليل الصحفي، أو يوسف إدريس: نجم القصة القصيرة، وأكثر من وردت النجوم في أغانيه الباكية كان فريد الأطرش. أما نجمة إبراهيم فهي الممثلة البارعة التي لا تُنسى، وعليك أن تتذكر دورها في فيلم صلاح أبو سيف: ريا وسكينة، والنجمة أم ذيل جرم (أي نجم) في جنوب السماء ذو ذيل طويل، رصده المصريون القدماء، وكانت النجوم ذات أثر واضح في بناء هياكلهم وأهراماتهم ومعابدهم، وتركوا لنا في قبر «سيتي الأول» خريطة فلكية، وفي معبد دندرة ـ قنا ـ دائرة فلكية انتزعها الفرنسيون من سقف المعبد ونقلوها إلى متحف اللوفر. أما نجمة بيت لحم فهي زهرة من أنواع الزنبق تقترن بالنجم الذي أشار للناس إلى مكان مولد السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وعبد الرحمن النجومي قائد سوداني في ثورة المهدي الذي حاصر الخرطوم عام ١٨٨٥، ثم اختاره المهدي على رأس حملة كبيرة لغزو مصر لكنه انهزم في معركة «توشكى» عام ١٨٨٩، ثم هناك آخر الأمر: عبد الله النجومي صديق الملك المصري السابق فاروق، وقائد سلاح الحدود، ومرافقه الدائم في رحلات الصيد في الصحراوات المصرية شرقًا وغربًا. وكان ذا علم ودراية بجميع أنواع طيور هذه الفلوات، ووضع كتابًا عنها كان يدرس في كليات

الزراعة في ذاك الوقت، وقد رحل منذ ربع قرن، حيث تحول قصره في ضاحية المطرية ـ بجانب مدينة عين شمس بالقاهرة ـ إلى معهد لعلوم الصحراء.

كلمات لها معنى

لا تزال المعضلة قائمة: منحت زوجتي نقودًا كي لا تسألني أي سؤال عند انشغالي، ومنحتها نقودًا كي تجيب على نفس السؤال بعيدًا عني.

*

البعض يعتقد أن الخطوط المستقيمة لا تتصادم، هذا لو أن كل الخطوط الأخرى مستقيمة أيضًا.

*

الجاهل: مرهق في فعل الخير، ومرعب في باقي الأحوال.

*

لو استطاعت قدراتنا أن تدرك معنى المحميات الطبيعية، لكان الإنسان أولى بها ـ في هذه الأيام بالذات.

*

مثل الجدول الدوري الذي ينظم الأوزان الذرية للعناصر: نحتاج إلى جدول دوري ينظم الأوزان الأخلاقية لحكام العالم منذ فجر التاريخ.

*

تحطمت قواعد البيوت الموروثة في الشعر والموسيقى.. والإيواء الأسري أيضًا.

*

استيلاء التلفزيون على مساحات التركيز ونشوة العقل، مدخل ضروري لإدراك اضمحلال الخصوبة.

الجبل

الواقف في صمود حول الوديان، حافلًا بالأدب والتاريخ والموسيقى، وقطاع الطرق، والباحثين عن الهدوء أو الوحدة أو الاستشفاء أو الذهب. ما تكاد عيوني تلامس ـ أو تتسلق ـ جبلًا: حتى تتراقص في أفق الخيال هالات تاريخية، ترسو فيها سفينة النبي نوح على قمة أرارات في جنوب الأناضول بعد انزياح الطوفان الذي به تمت تنقية الأرض ـ كل الأرض ـ من المفسدين، بعدها يضطجع جبل عرفات ـ غربي مكة المكرمة ـ الذي يكمل طقوس حج المسلمين وقوفًا به (بين زوال اليوم التاسع من ذي الحجة إلى فجر العاشر). ولا يلبث الجبل أن يضغط ـ بضخامته وشاهق تكويناته ـ على النص الأدبي الحديث ليتيح لفتحي غانم كتابة روايته الأثيرة التي نبهت كل ذوي الخطط في العمارة الحديثة: أن ينتبهوا إلى معنى الجبل ـ الموقع الشرس ـ داخل نفوس الذين يتنفسون ـ حياة ـ في سراديبه. ولعل ذلك وراء سطوة الجبل على الغناء الشعبي ـ في صعيد مصر ـ حينما ينشدون في شجن توديعهم للأحباء المسافرين بعيدًا «خذوني

معاكم آكل حشيش الجبال وأعيش في حماكم»، أي باللغة العربية الفصيحة: خذوني معكم كي أتغذى على كلأ الجبال مقابل أن أكون في صحبتكم ـ أو تحت سطوتكم.

ونادرًا ما يخلو وطن من جبال ـ تقلصت أو كانت بالغة الضخامة، ولا سيما أن الجبال ظلت منذ أن خلق الله الأرض مرتبطة بالصحراوات، غير أن العصر الحديث ـ والذي وصلت فيه حركة إصلاحات أو تجريف أو تحريك التربة إلى أوجها ـ أنتج جبالًا بلا صحراوات، تلك التي غزتها خضرة استحداث السهول والمنشآت والمؤسسات، وهو ما يمكن أن يكون دليلًا عليه جبل السلسلة في منطقة كوم أمبو ـ جنوب مصر ـ والذي تمقت صحراواته قرى النوبة الجديدة بعد تهجيرها من موقعها القديم خلال إنشاء السد العالي، كما أن جبل المقطم ـ الشاهق على الحافة الشرقية للعاصمة المصرية ـ اخترقته التجمعات السكانية بما تستوجب من طرق ومتنزهات وحدائق.

وتعد جبال أطلس ـ والتي تقف شرسة جنوب المغرب وشمال موريتانيا ممتدة إلى شمال الجزائر وجنوبها، وجبال شبه جزيرة سيناء والبحر الأحمر في مصر، وجبال لبنان، ثم تلك الجبال المتناثرة، وشديدة الجمال الهادئ في شمال العراق ـ منطقة الأكراد ـ ومأرب اليمنية (وطن بلقيس صاحبة الموقعة التاريخية التي أدت إلى امتثالها لسيدنا سليمان) ـ وجنوب شبه الجزيرة العربية. كل هذه الجبال هي الأشهر والأكثر بروزًا على الساحة التأثيرية في الخيال العربي، وأي مبدع: رسامًا أو أديبًا ـ شاءت له ظروفه أن يعيش فيها فترة، لأصاب الإنتاج الأدبي

والفن الحديث تغير وتبدل يتخلص بهما من تهويمات ركود خيال مدن الوديان، وهو ما جعل كثيرًا من النصوص الأدبية والموسيقية غير العربية ـ أقصد الغربية بالذات ـ أكثر اتساعًا وخيالًا وزهوًا، والذي يمكن أن تحس به في رائعة «هيمنجواي»: «وداعًا للسلاح»، حينما يتراجع جيش الحلفاء من فوق قمة جبال الألب الإيطالية، ثم في هذا التدفق الحالم الحي في موسيقى «رودريجو» الإسباني الغارق في جبال البرانس شمال إسبانيا، أو في موسيقى «جورج بيزيه» في أوبرا «كارمن» في الناحية الفرنسية من الجبال نفسها، كما أن «دورنمات» استفاد ـ في معظم مسرحياته ـ من معايشته لمنطقة الألب السويسرية الألمانية. ولعل جبال الأورال ـ شرق روسيا ـ كانت موضوعًا أثيرًا لأفلام وقصص أبرزها رواية «الحرب والسلام» لـ«تولستوي»، فإذا اتجهت شمالًا أكثر فسوف تأخذك جبال اسكندنافيا ـ السويد والنرويج والدانمرك ـ إلى العديد من رؤى جبلية عند «ستندبرج» و«إبسن»، أما «أمير الأراضي البور» لـ«ماكس فريش» ـ الألماني أو السويسري ـ فقد ظل يرنو من بعيد إلى جبال مكللة بالجليد.

ورؤانا ـ (أو ما قد أعرفه شخصيًّا) ليست قاصرة عن إدراك ما كان لجبال روكي والإنديز في الأمريكتين من سطوة على السينما الأمريكية، ولا سيما في أفلام «الكاوبوي» التي استطاعت أن تنقل تضاريس وتكوينات الغرب الأمريكي إلى المخ الشرقي بشكل لم يحدث لأي منطقة ـ ولو وطنية أو محلية ـ من قبل، في حين أن جبال الهيمالايا في شمال الهند، ومعها منطقة التبت وهضبة الحبشة، فقد ظلت معرفتنا بها في حدود الثوابت الجغرافية. وهو ما قد ينطبق

أيضًا على جبال اليابان، إذ إن الجبل ـ هناك ـ تلألأ في القليل مما شاهدناه أو قرأناه، ولا يزال الدب المختفي على قمة جبل الثلج في فيلم ياباني أشهرها، وإن كان جبل كليمنجارو لـ«هيمنجواي» في وسط أفريقيا قد وجد سبيله للظهور في نص لكاتب غير أفريقي.

الجبل ـ هذا الساحر، تعمدت ألا أطرح أخطر ما قد يعنيه للناس: في سراديبه ومغامراته، حين يكون ملاذًا ـ أو موطنًا ـ لقطاع الطرق، والخارجين على القانون، وملاذًا أيضًا للرهبان، والضالين، والمتعبدين، والباحثين عن الحقائق القديمة في رعي الغنم، والخيال، والمعادن، والحزن، ثم: الجبل هو ذاته أرقى موقع لمن يبحث عن الاستشفاء، أو الشفاء من أمراض وهموم وضجيج الوادي.

كلمات لها معنى

إنه يُقعي على ساقيه الخلفيتين، حينما تقدم له الطعام: الكلب، وحينما يكون مهمومًا: الإنسان.

*

كل الذي تقدمه الحياة المعاصرة من تسهيلات، نتجاوزه بحثًا عن متاعب وتعقيدات جيدة.

*

لم يعد سهلًا أن تتعرف على الذكور من الإناث في الجماعات الصاخبة طربًا حديثًا، ولا النثر من الشعر أيضًا.

*

لو أمعنت قليلًا في يمامة أو حمامة، لما تجرأت أن تهشها،
غيرك يذبحها.

*

كلما عابثت حفيدتي: تساقطت سنوات العمر من فوق كاهلي،
فأزداد ابتعادًا عن الكهولة.

*

لاحظت أن أبناء المدن لا ينتبهون إلى رائحة المجازر، أو
المستشفيات، حين المرور بها.

المطر

في حصار الجيوش والمشاعر ونبض حزن القصائد

تهتز الجوانح ـ لدرجة الوجيف أو الوجل المضطرب ـ حينما تنصت إلى صوت هطول الأمطار، مجرد الصوت فقط هو الذي يأتيك في حصنك: أقصد بيتك الحديث. الأمر سوف يزداد قلقًا لو أنك نزلت إلى الشارع، عليك الآن أن تخترق هضاب التاريخ لتلجأ إلى الخيمة الإنسانية المبكرة في الصحراء الممتدة الواسعة لتعرف المعنى الحقيقي للمطر، يكون سلسًا هادئًا ناعمًا يتألق نقاطًا ذات إيقاع مفعم بالشجن على خدود العاشقين، تحاصره الرياح والتماعات الأسى لينطلق وميض البرق فيقلب كل قوانين الاطمئنان المرتعبة رعدًا. علينا أن نوقف المهزلة قبل أن تداهم السيول أفواه الكهوف ومداخل السراديب القديمة، ونمعن في هذه الأحاسيس الإنسانية الحديثة والتي ما زالت تطاردنا في عمق النوم: مهما كان الفراش وثيرًا، ومهما كانت درجة الحرارة منضبطة بالكيفية التي نرتاح إليها، المطر عنصر أساسي في تكويناتنا النفسية، إنه ضد الجفاف وبشير للخير، وبوادر

ظهور الخضرة فوق الوجه الأصفر الكالح، ثم إنه ـ المطر ـ الحوار الصارخ مع الطبيعة ليحتل موقعه المتميز في الأشعار المبكرة، في حداء الإبل وفي مراثي الموتى (العديد) وفي زفاف العرائس، وفي ختان العيال، وفي الانتصار على الأعداء، وفي صياغة العالم ليصبح جميلًا ذا إيقاع ساحر، مع أهمية أن تغض البصر كي لا تداهم سيوله كل تجمعاتنا الفرحة بعد ذلك بقليل.

وكثير من مخرجي الأفلام ـ في السينما والتلفزيون ـ يلجأون للمطر كي يساعدهم في إشاعة الجو الدرامي القاسي حول البطلة الجميلة ـ والجميلة جدًّا ـ أثناء بحثها عن المأمن أو المكمن ـ أي المكان الآمن ـ الذي تبدأ فيه حياة أخرى تضع فيها وليدها بعد تسعة شهور.

وقد حاصرت الأمطار جيش «هانيبال» القرطاجي (والذي يعد من أعظم القواد في التاريخ) أثناء اختراقه جبال الألب في طريقه لمحاصرة روما المهيمنة على العالم في ذلك الوقت، ثم تابعته مرات في جبال الأبنين، حيث نجح بعد ذلك في محاصرة روما ـ ثم لم يلبث أن ظهرت خطة «فابيوس» التي تعتمد على «النهش السريع ثم الهرب» لينهزم البطل دون أن تبدو في الجو أي أمطار. وقد واجه جيش «نابليون بونابرت» ليلة ممطرة قبل موقعة إمبابة في طريقه لاجتياح القاهرة، مما أثار دهشته مع أنه قادم من بلاد المطر والجليد، كما أن المغامر الإنجليزي «لورنس» ـ صاحب أعمدة الحكمة السبعة ـ حاصرته أعمدة مفاجئة أثناء قطعه طريق السكة الحديدية بين المدينة المنورة ودمشق عام ١٩١٧، فاعتبر ذلك فألًا حسنًا تغسل به الطبيعة

الجسد: أي التطهير من الأدران. وهناك سائحة إنجليزية جاءت مصر في الأربعينيات، وأثناء اختراقها للوادي المصري، أي أعلى حافة مدينة الأقصر ذات الآثار القديمة العظيمة، هالها نوع من المطر السريع الذي رقص بسببه الناس في الشوارع ابتهاجًا، فاعتبرت السائحة هذا المطر النادر دعوة لها للإقامة في البر الغربي ليصبح لها دور بارز في رواية «الجبل» لفتحي غانم. وسوف ترى الدور الذي قام به المطر من تواطؤ في الضغوط الناجمة عن الحصار والإحساس بالانقطاع عن العالم في رواية الإيطالي «دينو بوتزاني» «صحراء التتار».

وكانت كلمة.. مطر.. مطر.. مطر.. من أوائل إشارات التبشير بالشعر الجديد عند بدر شاكر السيَّاب، وليس لهذا أي علاقة باسم صديقه الشاعر محمد عفيفي مطر، أو الشاعر ـ الذي لا أعرفه ـ أحمد مطر، وهما من أبرز المبدعين العرب الآن. أما المطر الأحمر فإنما هو نوع من الأمطار به صبغ أحمر، وأعتقد أن هذا اللون يرتبط بغبار الحديد. وعندما يهطل هذا المطر على الأرض: يصبغها بلونه، (أما اللون، فيرجع إلى احتباس حبيبات ترابية دفعتها الرياح من الصحراء إلى طبقات الجو العليا وحملتها مسافات بعيدة)، هذا ما جاء في الموسوعة العربية من تعريف بالمطر الأحمر، لكني لم أشعر بحرج حين أذكر أنه غبار الحديد. والمطران هو الرئيس الديني عند أصدقائنا النصارى، وخليل مطران شاعر القطرين الذي ولد ونشأ في لبنان وقضى معظم حياته في مصر، وقد عمل بالصحافة ثم رئيسًا للفرقة القومية ـ المسرح القومي المصري الآن. أما مطير، فهي قبيلة في شبه الجزيرة العربية، تمتد مواطنها حتى الخليج العربي وحدود

الكويت، وبوادي الباطن حتى الزلفي، ويكثر أفرادها في ضرما والعشيرة والبكرية. والمطرية ـ في مصر موقعان: ضاحية شمال القاهرة، وتقوم مع جارتها عين شمس على أنقاض أقدم عاصمة مركزية: أون ـ مدينة الشمس. أما المطرية الأخرى فهي على ضفاف بحيرة المنزلة شمال الدلتا.

وعلينا الآن أن نخرج من المطر، حتى لا أرتد صبيًّا، يخلع ملابسه ويندفع صارخًا كي يستمتع بهذا الذي يندفع من أعلى الأعلى كي يحرك الأعضاء والمشاعر، ويطارد الملل. إنني أكاد أفعل ذلك حتى الآن، دون أن يبارحني شعور بأن المطر سوف يظل جميلًا ـ ومشاغبًا ـ ومثيرًا، على ألا يصبح سيلًا.

كلمات لها معنى

الذهول لا يزال هو المحاولة الفطرية الأولى للفهم الصادر.

*

الدنيا تلف وتدور وتنظر بنصف عين إلى سقوط الجمال مهووسًا تحت مقاطع ما يبدو أنه شعر: وحديث أيضًا.

*

إذا توقفت يدك في يدها بعض الوقت، فلا تمعن كثيرًا في عينيها.

*

لم تكن الكارثة في فيل أبرهة الأشرم، كانت في جمجمته.

*

كثيرًا ما يبدأ الليل الطويل في منتصف الليلة الماضية.

❊

قالت: عليك أن تدرك أن ما حدث بيننا كان لهوًا صبيانيًّا. هي لا تعرف أن هذا ما أسعى إليه حتى الآن.

❊

حتى الليالي التي تبدأ بالغناء: كثيرًا ما تنتهي بالصداع.

❊

الفرق الحقيقي بين الإنسان والحيوان، أن النوع الأول يقضي دهرًا طويلًا من مجموع الأوقات التي يستهلكها في خلع وارتداء ملابسه.

العمود

ما بين الخيام والهياكل والأناشيد والقانون والرتب

أحسست بالوجل حينما اخترقت عالم الأعمدة الواقفة ـ متناثرة ـ أو مصفوفة بين الهياكل والمعابد والقصائد والرتب والنياشين والوظائف والصحف والطقوس والمناصب. ولعل انتظام أعمدة الأكروبول الإغريقي يفتح البصيرة نحو آفاق التعبير الديني أو المسرحي من زمن بعيد، لا يتجاوزه تأثيرًا سوى كثافة الأعمدة الضخمة للهيكلين العظيمين المصريين: الأقصر والكرنك، (لا بد من الإشارة إلى أن كليهما مستقل عن الآخر)، بعد ذلك تتداعى أعمدة تحمل السقوف ذات الاتزان ـ في سوهاج ودندرة وفيلة، أو فردية تنطلق وحيدة مثل عمود السواري في الإسكندرية أو المسلات الشامخة ـ المصرية ـ في عواصم الغرب أو بين بقايا حضارات بابل وآشور، أو في مداخل القبور الباقية من عصور تقديس الأحداث قبل ظهور الإسلام، مع أن العمود ـ في مبدأ الأمر ـ بدأ نحيفًا يحمل في عناء الخيمة المبكرة الّتي يلوذ بها آباؤنا الأوائل اتقاء الريح والمطر وعيون العابرين أو

السائحين، بعدها تسلل العمود إلى أهازيج الشكوى أو اللوعة شوقًا إلى الحبيب، أو انتحابًا باكيًا تعبيرًا عن ألم الفقد وامتثالًا لسطوة الموت، أو انشراحًا متألقًا في الحفاوة بالضيف الكريم ـ الذي يكون ذا شأن كبير بالذات، أو تنغيمًا على إيقاع الكفوف والطبول ابتهاجًا بليلة الزفاف الفخيم، بعدها استطاع العمود أن يصوغ كل أنواع أغاني السعادة القصوى استقبالًا للعائد من أداء فريضة الحج، أو نجاح العيال في المدارس، أو احتفالًا بالانتصار والكيد للأعداء، أو احتفاء بختان الذكور، أو الخروج المأمول للأعزاء من السجون (في حالات الاعتقال يقف عمود الغناء بعيدًا ينظر للأمور بجبن وارتعاد)، لاحظ أيضًا أن العمود يصاغ في عدة أوانٍ يتم تركيبها رأسيًّا لتحمل الزاد ـ سرًّا أو علنًا ـ إلى المساجين قبل أن يصبح أغنية فرحة عند الإفراج عنهم ـ وقد بدأ العمود يندثر الآن تحت سطوة أنواع من المأكولات المغلفة العصرية.

والعمود الذي يرفع فوق هامته الخيمة والبيت والمسرح والهيكل والكنيسة والمسجد، هو ذاته الذي يقيم لكل عائلة عمادها: شيخها أو رئيسها، وتتعمد الذائقة الشعبية أن تجعله عميدًا ـ من باب الابتعاد به عن صيغة العمود ـ ليكون ذا شأن في الشرطة والجيش والمعاهد والكليات، أو عمدة ليتولى شؤون القرى والتجمعات الشعبية. وهو ما أدى بالعمدة إلى أن يصبح عنوانًا ذا هيمنة في الأدب والتفكير والإبداع، مثل كتاب «عمدة السالك وعدة الناسك» لابن النقيب المصري و«عمدة البيان» للمرداسي، كما أن طه حسين حظي بلقب عميد الأدب العربي تنصيبًا له في موقع لا يتأثر بالإقالة أو الاستقالة

عندما كان عميدًا لكلية الآداب بجامعة القاهرة. غير أن أمر العمادة وصل إلى حالة خاصة جدًّا مبتعدًا عن العمود والعمدة والعميد ليصبح: العماد، وهي أعلى رتبة في جيوش الشام ـ سوريا ولبنان، والعماد لغويًّا: الأعمدة القوية التي تراها واضحة في قوله تعالى: «إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ» ـ يقال إنها باليمن بين حضرموت وصنعاء، وقد بناها شداد بن عاد، وقيل إنها اسم بلدة عاد الأولى أو هي الإسكندرية أو هي دمشق ـ وكانت دمشق من أهم مدن الآراميين، وكثيرًا ما أطلقت عليها التوراة اسم آرام.

غير أن أمر العمود يتدثر بالواقع والمجاز خارج القصيدة وخطوط الإضاءة والأغاني والبيوت والمعابد والهياكل ليقوم بدوره المتفرد حينما يتحول ـ هذا العمود القصير ـ إلى خازوق له شهرته الدموية المروعة في التاريخ. على جسر نهر درينا كان الخازوق سببًا في شهرة الروائي اليوغوسلافي ـ حينما كانت ثمة بلاد اسمها يوغوسلافيا ـ «أندريتش»، وفي مالك الممالك المملوكة في مصر سوف تجد العمود يخترق ـ من أسفل ـ أحشاء الثوار والمعارضين والذين فاتهم إرضاء السلطان (أحدهم فعل ذلك في حماته ـ أي أم زوجته). ولم تخل الاضطهادات الدينية في القرون الوسطى الأوروبية من ضحايا الخازوق الدموي في الاختلاف أو المعارضة. بعدها دخلت الصياغات المعاصرة المرنة المدركة والذكية عالم العمود الخازوق ليندس في المشانق ومواد القانون ونصوص الدساتير، ولن تنتبه إلى ذلك إلا حين تفاجأ بأن الحرية الحديثة قد استدرجتك إلى موقف تخترق فيه جسدك العصري المواد القانونية المقنعة والملساء.. أيضًا.

وبعد: فإنها المرة الأولى التي أجد فيها نفسي أكاد أتوقف كي أكتب كتابًا عمدة في فلسفة الأعمدة، يصلح للمثلثات وهندسة المباني وأعمدة السحب والعواصف والفن والسياسة وحرث الأرض وتحريك الجبال، لكنه ـ هذا العمود ـ لن يقترب أبدًا من الشعر الحديث جدًّا، الذي يستلقي على الصفحة متثائبًا بين السطور، أو ممزقًا أسفل الكلمات، دون أن يصلب حيله ويقف: أي دون أن يكون له عمود فقري يعتمد عليه كي يشمخ لأعلى. إنه ـ هذا الشعر ـ يحب الشموخ المنبسط على الأرض، وأعتقد أنه سيظل على هذه الحال فترة طويلة، حتى إنني أحس بالعمدية ـ أي القصد المسبق ـ في تعليق عدد من هؤلاء الشعراء في الأعمدة التي تراها خلال المشهد الممتد في نهاية فيلم «سبارتاكوس»، مع أني لا أستطيع أن أكتب بقلمي: أعمدة المشانق.

كلمات لها معنى

ليس من العدل أن تظل الأنثى مركزًا لحركة الكون طوال هذه الدهور، وأن يظل الذكور يقاتلون في سبيل نفي ذلك.

*

ظاهرة تعم عيون الناس في العصر الحديث: كلما ازدادت الدنيا حولهم بهاء واتساعًا، ضاقت العيون وانغلقت وبدأت تنسحب إلى غرفة ضيقة ومكتومة أيضًا.

*

ما لم يعترف به أحد أن كسوف الشمس الذي حدث أخيرًا كشف عن كسوف الفؤاد.

*

الجهد المبذول لإخفاء الحق أضخم بمراحل من الجهد الذي يتطلبه إعلان الباطل.

*

أرقام لجواز السفر وتحقيق الشخصية وبطاقة التموين وكارنيه النقابة وتاريخ الميلاد وحساب البنك وموقع البيت في الشارع والتلفون، ورخصة القيادة، وأحاول أن أتذكر ـ دون جدوى ـ مقاس حذائي.

*

الحقائق تتغير بسرعة، فلا ترتكز عليها حتى لا تقع على الأرض.

الباب

من باب الرضا.. إلى أبواب العشق الجميل

الباب الذي يأتي منه الريح: عليك أن تسكه كي تستريح، وهو المثل العامي ـ أو الشعبي ـ الذي تعرفونه جيدًا، دون أن يعمل به واحد منَّا بالدقة المطلوبة، وربما يكون هذا هو القاعدة الأساسية وراء سياسات دولية قديمة ومعاصرة ـ (أنا لا أقصد ـ كما ترى ـ ما يدور الآن بين البلاد العربية وإسرائيل)، والأصلح ـ في هذه الظروف ـ أن يكون المدخل: باب النجَّار مخلع: حيث لن نقع تحت طائلة سطوة النجار، فالأبواب عادة تكون مغلقة أو مسكوكة، إنما الذي يجب أن يكون مفتوحًا هو النوافذ إشارة إلى الحرية أي استنشاق الهواء النقي. وكنَّا في زمن التقاليد المستقرة نفخر بأن الكريم لا باب له، إشارة إلى هذا الاستقبال الدائم للضيوف أو أصحاب الحاجة، إلا إن الأمر اضطرب الآن فأصبح نفي الباب واستبعاده يعني الفوضى وعدم الانضباط ـ دخولًا وخروجًا، مع أهمية ألا أفصح أكثر من ذلك.

والعالم ـ في اللغة والتاريخ، وفي العلوم الأخرى، إضافة إلى

السلوك وأمور التربية ـ يعج بالأبواب، ولعل أرقى وأعظم الأبواب: باب الجنة الذي يحرسه رضوان، حيث الطموح المأمول في البشر بحثًا عن نهاية موفقة (بعيدًا عن زبانية دخول جهنم ـ أعوذ بالله)، إنه الإحساس النقي الغامر الطاهر الذي يعتمل في صدورنا عند وصولنا أبواب الكعبة المشرفة، ولعل ذلك كان وراء استخدام المصطلح العثماني «الباب العالي» مقرًّا للسلطان عبد الحميد الأول، أو صفة له، حيث يليه مباشرة «الصدر الأعظم» رئيس وزرائه. وأزعم بأن «الباب العالي» ـ مع ما تعني به من معاني الأبواب العليا في العقائد، جاءت أيضًا لمنافسة سطوة رمز «البابوية» في روما، والتي يمثلها ـ وفي قمتها ـ الحبر الأعظم، بابا روما بصفته الرئيس الأعلى للكنيسة الكاثوليكية، وهي ـ البابوية ـ وظيفة شرف وولاية، وهو ما لا يقر به البروتستانت والأرثوذكس، وظل مثار خلاف بينهم (المسؤولية عن هذه السطور تقع على كاهل الموسوعة التي تعرضت لذلك). المهم هنا أن الباب العالي ينتمي لغويًّا لأصل مختلف تمامًا عن أصل كلمة البابا المصاغة من الأبوة، لكن التقارب الصوتي ـ دون اللغوي ـ هو الذي يكمن وراء هذا الربط، أو التداخل المقصود.

وفي الحس الشعبي لجميع المجتمعات والجماعات البشرية سوف تجد المعنى المجازي للباب، إنه مدخل للفرج، يؤدي إليه ممر الصبر، وهو المعلن الدائم في أهازيج وأغاني الأفراح في الختان والنجاح والزواج، كما أن أبوابًا عديدة تتوالى تباعًا في نصوص العديد ـ أي نصوص النواح والبكاء وتوديع الراحلين، تطلب من الله أن يسبل الرحمة توسيعًا لأبواب المقابر والمدافن تمهيدًا للوصول إلى

باب الرضا. وثمة عدد مذهل من شعراء المديح ـ في جميع العصور ـ جلجلوا بقصائدهم على أبواب الحكام والولاة والعواهل، وكان ذلك من أسباب ثورة الشعر الجديد ـ أو المعاصر ـ رفضًا لانحناء القصيدة تحت سطوة هذه الأبواب. لكن ثورة هذا الشعر لم تستطع أن تنقذ الشعراء من الارتماء على عتبة أبواب المحبة ـ والتي وراءها تقف تلك الفاتنة المتألقة خفرًا وحياء، التجربة أثبتت أن المسألة لا تستحق كل هذه القصائد: شعرًا بليغًا أو أغنيات عامية.

وأكثر الأبواب ظهورًا في صفوف الإبداع الحديث: أبواب السجون والمعتقلات ومستعمرات النفي والحصار، وصرير هذه الأبواب بالغ الشجن والعذاب عند الإغلاق أو الفتح: يوسف إدريس وحنا مينه ونجيب محفوظ و«لوركا» الإسباني و«ألبير كامي» و«سارتر» ونجيب سرور وعبد الوهاب البياتي وناظم حكمت و«الكونت دي مونت كريستو»: أقصد «ألكسندر دوماس الأب» والطاهر وطار وفؤاد حداد وعبد الله النديم، وعدد كبير من هؤلاء الذين أحسوا بالسجون أو وقعوا في براثنها لتتحول الكوَّات ـ أي الفتحات الضيقة ـ إلى أبواب الاختناق والتوجس والأمل العظيم: خروجًا منها أو موتًا داخلها.

وتحظى البيوت بأكبر عدد من الأبواب، لا يفوقها سوى أبواب الكتب والدراسات التي استخرجت لها نظامها من فن التبويب، غير أن كثيرًا من المدن تقيم أبوابها ـ الحقيقية أو المعنوية ـ لتصبح جزءًا من خصوصيتها: أبواب طيبة السبعة، (وسوف تجدها في أسطورة أوديب الإغريقية مع أن طيبة فرعونية خالصة)، وخلف قصر عابدين في القاهرة باب باريس أو باريس (والبوابة تأنيث يتيح الإحساس

بالوسع أكثر مما يعنيه الباب في الإحساس الشعبي). ثم هناك ـ في القاهرة القديمة ـ باب زويلة وباب النصر وبوابة المتولي، وقد انسحب ذلك إلى أسماء عدد من ميادين العاصمة دون أن يكون لها أبواب حقيقية: باب الشعرية وباب اللوق وباب الخلق.

كما أن للجسد الإنساني دورته البابية التي يقوم فيها الوريد البابي بتجميع الدم من أنحاء القناة الهضمية، ليدخل الكبد فيتولى تحريكه أو إعادة تصنيعه وتصديره إلى الأجهزة العليا في القلب والرئتين. وربما من ذلك جاءت (البابية) والتي تعني ـ بعيدًا عن الدم وأمور الهضم والتغذية ـ الأعجوبة، يقال أتى فلان ببابية، وبالطبع فإن هذه المعجزة البابية لم تعد تستخدم ـ لغويًّا ـ الآن.

وبعد: فإن الفترة التي قضيتها وراء مصاريع الأبواب في الكتب والمعاجم والمعرفة الجارية، تحول بيني وبين إغلاق هذا الباب. ذلك أن كثيرًا من الأبواب لا تنفتح بسهولة لعدم دراية الكثيرين بفن الإغلاق، وهو ما ينعكس أيضًا على تلك الأبواب والتي من دوام فتحها لا تجيد إغلاقها. رجاء استبعاد التربية والفوضى ومفهوم العديدين لمعنى الديمقراطية، وفوضى التفكير أيضًا.

كلمات لها معنى

لا يزال البعض يعتقد أن الجوع ينصرف إلى البطن الخاوي، عليك أن تنصت قليلًا إلى ما يجري في فؤادك.

*

السلاحف لا تصلح لصعود السلالم، المصاعد العصرية أعادت ترتيب المسألة.

*

والدليل على أن خط الحضارة أخذ في الانحناء: أن الفخر باقتناء السيارات الفارهة بدأ يتراجع، وبدا واضحًا زهو البشر باقتناء الكلاب.

*

البلاد التي لم تضع قدميك فيها ستظل هي أجمل وأحلى البلاد.

*

كثير من الثعابين تنظر في إعجاب قبل أن تطلق أولى بخات السم.

*

التاريخ مثل كثير من الحراس والخفراء: يداهمه النعاس في الأوقات الحرجة أو الحساسة.

*

المسألة التي تفكر فيها الآن تحتاج إلى وقت آخر يمكن لك فيه أن تؤجل التفكير فيها.. في هدوء.

*

ليست الصعوبة في إصدار الحكم، الإرهاق في الحيثيات.

السموم
بين علوم الصيدلة والطب والانتقام، وفحيح الثعابين في السياسة والأدب

لا تتوجس، فلن أدس لك شيئًا حتى تنتهي ـ على الأقل ـ من قراءة هذا الموضوع، مع أن ما تعرفه أنت ـ عن السموم ـ يربو أضعافًا عما يعرفه غيرك، وعما ورد في الكتب أيضًا. إنك ـ يا صديقي ـ مجمع نموذجي يحتوي على عدد مذهل من أنواعها: في المعدة والمخ والأمعاء والكلام والنظر والشرايين والأظفار وأهداب العيون والأنفاس ومسام الجلد والابتسامة الجذابة بالغة النقاء والصفاء والروعة.

والسم هو العامل الذي يحدث بتأثيره الكيميائي أو العضوي ضررًا ـ قد يكون مميتًا ـ إذا تسلل إلى الجسم، أو دون تسلل، أي في تركيباته المعدنية مثل أحماض الأيدروكلوريك أو النيتريك أو الكبريتيك (زيت الزاج) أو الزرنيخ ومركبات الأنتيمون والرصاص والزئبق (السليماني) ـ وسلسلة عديدة أخرى نغلقها بمركب السيانيد

(أو السيانور)، والذي ترى أثره في قصص انتحار عملاء المخابرات والتجسس وكبار القادة في ظروف الانهيار النفسي الشديد بعد الهزيمة المروعة ـ الجملة الأخيرة تلتقي بما يدور في ذهنك عن نهايات أدولف هتلر أو عبد الحكيم عامر ـ وآخرين سوف يضيق بهم سرادق الاحتفاء الوقتي خلال هذه السطور.

ثم هناك السموم الأكثر انتشارًا، وهي التي تقوم بتركيبها الطبيعة، وقد يتدخل الإنسان في تهذيبها أو إعدادها بشكل إنساني لائق. إنها السموم العضوية في نبات الداتورة، وزهوره بيضاء أو أرجوانية، والسكران: شائع ومنتشر في جنوب مصر بزهوره الجميلة الصفراء، ونبات ست الحسن ذو الزهور الأرجوانية الداكنة، وكلها تحتوي على مادة الأتروبين التي تدس ـ في أغلب حالات التسمم ـ مخلوطة بالعجوة أو الحلوى أو القهوة أو الشاي الثقيل. ثم هناك سموم التبغ ـ أي النيكوتين، والتي تتسلل إلى الجسم ـ كما تعرف ـ بكل أنواع التدخين (أو بالمضغ ـ وهي عادة تكاد تندثر الآن)، حيث يقوم الجسم بحرق معظم النيكوتين الممتص ولا يبقى إلا جزء يتوزع على سوائل الجسد المختلفة، وتبدأ خطورته السُّمية عند ارتفاع نسبة التركيز في هذه السوائل بالتدخين المركز أو انخفاض قدرة أجهزة الجسد على استهلاكها أو التخلص منها. وتتصاعد قائمة السموم العضوية لتشمل الكوكايين والأفيون (والمستخرج من نبات الخشخاش ذي الشكل الجميل المتألق)، والمورفين، والحشيش (وله أشكال ومسميات عديدة تطلق على مستخرجات منه مثل البانجو).

ثم السموم التي تتسرب إلى الذوق من المشاهد العارية في الكتب

والأفلام، ونظرات العيون البريئة تمهيدًا لموقف مدهش، ومثير للحرج إذا ما كان أفراد أسرتك يشاركونك المشاهدة، ومقالات نقاد الأدب حين يفتعلون رؤى لا يتحملها النص الأدبي الهزيل، والأيدلوجيات الخاوية التي تختفي نشطة مركزة في زبان العقرب (صحتها اللغوية زباني العقرب)، والنظرة الحاقدة من حاسد إذا حسد، والتماع عيون الكلاب داخل كياننا الإنساني حين نسعى خلف أنثى، ودفقة فحيح ثعبان الحداثة الأدبية في خرائب أشعار وقصص متهالكة، وما تفرزه بكتيريا مستنقعات الوخم والكسل والتناوم تحت ظل عدم الحاجة إلى العمل، وما تنفثه ألسنة من لا علم لهم حين يجدون أنفسهم في مواقع أهل العلم، وبحيرات السم المنقوع في المجتمع الحديث طردًا للآباء من المأوى إلى بير السلم، والرذاذ المتبخر في أجواء النميمة والوشاية ضد أناس قد لا تكون لهم فرصة الدفاع عن أنفسهم، أو الاحتماء منها، وحركة النقود على مائدة الميسر ذهابًا وإيابًا ودورانًا ملتمعًا بالغ الدناءة في عيون الكاسب أو الخاسر، وتحريك الأذهان بعيدًا عن زوايا مداهمة الخطر، وجراح المحبين حينما يستعصي عليهم السلوان ـ صبرًا أو عجزًا، وبؤس امرأة تفقد الطريق إلى تراحم أبنائها، والبيانات أو التصريحات الرسمية التي تصوغ الوقائع ـ عسفًا ـ لصالحها، دون اهتمام بأن الأمة كلها تعرف الحقائق الواضحة، وتفسير حوادث التاريخ لحساب أفراد أو أنظمة تهيمن على كتب التاريخ، وأعشاب النفاق الخضراء الجميلة التي لا تلبث أن تنمو أشجارًا يزحف على أغصانها دود كلاب السنط، وزَعيق حناجر المغنين ـ والمغنيات ـ يتراقصون في التواء حول جثمان

الفضيلة المخدرة على المسارح المتلألئة، وحصار المقاعد المذهبة ذات الهياكل براقة الطلاء لتحول بين الجسد ومتعة الاسترخاء الفطري المفتقد، وإهمال مصححي صفحات الجرائد والمجلات للعناوين الغليظة ـ وقد وقع الفاعل في حفرة النصب، والمفعول به في سماء الرفع والحال في ضائقة الضم.

فإذا أضفنا إلى ذلك هذا الوجه المبتسم الجميل، الذي يبدي إعجابه بك في حرج ودلال، ليهمس: يا سمْ، فإن السم هناك يخرج عن دائرة ما نسعى إليه، ويصبح للمعنى أمر آخر يتسامى بنا إلى دوائر من التعبير المجازي الذي يشع سعادة بعيدًا عن علوم السموم والطب الشرعي والسياسي.. والأخلاقي أيضًا.

كلمات لها معنى

نعم: الجمال يشع من داخل النفس،
لكنه كثيرًا ما يحتاج إلى مثير خارجي.

*

لا تقف كثيرًا أمام اللوحة الفنية، لا تمعن طويلًا، حتى لا تتشابك عيونك مع أثر النسيج دون الألوان.

*

أي كلب يمكنه أن يوقظ مدينة في ساعة واحدة، المصلح يحتاج إلى ثلاثين عامًا.

*

هذه الحكمة الرائعة التي يدير بها القادة السياسيون أمورنا، دعك الآن من المقارنة بأمورهم الخاصة.

*

أجمل ما في الأحياء أنهم أتاحوا للأموات موقعًا للاختلاء الهادئ بعيدًا عنهم.

*

فعلًا: الضفادع لا تستطيع صعود الجبال، وكأن الجِمال يمكنها السير في المستنقعات.

*

صمم المولدون أن يسحبونا من بطون أمهاتنا من رؤوسنا، وما زلنا نحتج خبطًا بالأقدام الحرة على الأرض.

الصندوق

من ليلة الفرح.. إلى دنيا الكنوز والقلوب

في ذاك الزمن المبكر: كانت تجهيزات العروس من أثاث ـ ورياش ـ تحملها الجِمال الهادئة الوديعة إيذانًا باقتراب ليلة الفرح غدًا أو بعد غد، إلا إن ما يشير إلى أن الفرح سيكون الليلة بالتأكيد كان الجمل الوديع الهادئ الذي يسير الهوينى وعلى ظهره الصندوق البديع المزخرف بألوان تتعامد وتتقابل محاصرة أنواعًا متعددة من نقوش الزهور، ويظل تقافزنا الطفولي منضبطًا مع وقع أقدام الجمل من بيت أهل العروس إلى أن تنطلق زغاريد استقبال الصندوق على الباب المأمول. كنا نعرف أن الفاصل بين رحلة الأثاث ورحلة الصندوق يخضع لعوامل التركيب والتجهيز التي تحتاج إلى وقت لترتيبها وتنسيقها في أحلى صورة للأثاث دون المساس بذلك الصندوق الذي يحوي الأشياء الخاصة بالعروس (ولا يصح أن يقترب منها أحد). وكان هذا الصندوق الساحر وراء اللذة الطافحة التي تمور في عقولنا تحت سطوة التصور لما يحويه، وكأن الأمر

كله ـ مع تعدد تكراره ـ يمهد لأن نكتشف أن أثاث فرح أمهاتنا قد تحطم وتبدل وتغير عدا الصندوق القابع ـ دائمًا ـ في ركن غرفة الأمومة تحت لقب «السحارة»، مع أن وظيفته الأولى قد تعدلت بعد أن أصبح سحارة، حيث ـ مع الأشياء الخاصة بأمهاتنا ـ أضيفت النقود المصرورة وأوراق ملكيات الأرض والبقر والنخل والجلباب الأسود ـ والثمين ـ الذي تستعمله الأمهات رداء وقورًا ومعبرًا في أي مناسبات: فرحًا أو حزنًا. وكنت أتصور ـ خلال انجذابنا الصبياني لمعلم الإنشاء والتعبير في المدرسة ـ أن «سويداء القلب» تعني هذا الصندوق بالتحديد.

غير أن صندوقًا آخر داهم قريتنا مرة أو مرتين فأشعل نور سويداء القلب، إنه ذلك الصندوق الذي نمعن في فتحاته تحت ظلال ستارة غليظة لنشهد الزناتي خليفة وقد وقف متحديًا أبو زيد الهلالي الشجاع الذي نرهبه جميعًا، وتتوالى مشاهد انتصار البطل على الأعداء والمناوئين مع أهمية إضافة بعض المشاهد التي تشعل الرغبات الكامنة في دنيانا. إنه صندوق الدنيا الذي وقع ـ بعد ذلك ـ صريع الصندوق الأعظم: أي السينما، ليتضح لنا من الأمور ما لا يمكن لصندوق الدنيا أن يتحمله أو يستطيع أن يقدمه حتى لو كان في صندوق العروسة أو سحارة الأمهات، متجاوزًا تلك الصناديق الأسطورية التي ظل علي بابا ـ في ألف ليلة وليلة ـ يهتف خارج باب مغارته: افتح يا سمسم. إن منظر حبات اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والماس والمرجان وهي تتألق بإشعاع خاطف ثاقب يَخترق الجمجمة سوف يظل الأمل الدفين للرغبة العارمة في امتلاك

الكنوز، دون مقاومة ذات تأثير ضد ثقافة المدينة، تلك التي فوجئت ـ فور نزولي للعاصمة لأول مرة ـ أن شارعًا معقدًا أو ملتويًا في حي الغورية يحمل اسم الصنادقية، ويلتف معه شارع الخيامية ـ أي مركز صناعة وإعداد الخيام. كان شارع الصنادقية مزدحمًا بأنواع من الصناديق متعددة الأحجام: بعضها صغير لا يصلح إلا لمشغولات ذهبية (تثير السخرية مقارنة بصناديق مغارة علي بابا)، ثم تبدأ أحجام أخرى بأشكال وزخارف لا أعرف فيما تستخدم حتى اليوم، وقد ظل عقلي ـ الريفي أو القروي ـ يترجم أنواع الصناديق إلى طقوس يحمل بعضها موتى الأقباط وقد ارتسم الصليب على جدرانها، وبعضها ينكشف تحت وقع حفر سراديب البحث عن آثار الأقدمين، حيث ينجلي الظلام على التابوت ـ ذاك الصندوق الصخري ـ الذي ترقد فيه المومياء الموغلة في التاريخ لتحدثنا عن فرعونها الخاص بها. إن لفظ التابوت يسري على كل المعنى التاريخي للصندوق حتى حين حُمل سيدنا موسى عليه السلام طفلًا ـ ليطفو فوق وجه اليم (اللغة المناسبة للبحر) ـ هروبًا من حصار جنود فرعون وهامان، كما أن بعض أنواع هذه الصناديق يرتدي أشكال صناديق البريد ـ سواء في العمارات والبنايات أو في مكاتب مصلحة البريد ذاتها، حينئذ تعود سحارة كنوز الأجداد للطفو فوق تيارات عقلي تحت سطوة المثل الشعبي الساخر بعالم الأذكياء: «سرقوا الصندوق يا حبيبي لكن مفتاحه معايا» (أي معي)، وقد سمعته في النوبة القديمة ـ جنوب أسوان ـ في أغنية هازجة وهازلة: «سرقوا الصندوق يا عبيط لكن مفتاحه معايا». والعبيط في اللهجة الدارجة هو الأبله، وربما

كانت القدرات التعبيرية الشعبية وراء صياغة هذه المقولة: «كسروا حُق المرحوم لكن صندوقه سليم»، والحُق ـ بضم الحاء ـ هو العلبة الصغيرة وتطلق على المنطقة الوسطى من البدن، في حين يعني الصندوق الإنساني حيث يكمن الفؤاد.

لكن كل الصناديق لم تستطع ـ في ذلك العصر ـ أن تفتح الباب على هذا الصندوق الأسود الذي تحمله الطائرات في منطقة حصينة من تكوينات جسدها حاويًا كل التسجيلات التي تفسر الظروف التي قد تنتابها فتدمرها. وقد ظل صندوق الطائرة المصرية يعابث أعصابنا لتهتز كلما جاءتنا منه إشارات الارتباك أو الاضطراب خلال الصناديق السحرية العصرية المسماة بالتلفزيون. إنها الصناديق العصرية التي تلعب بالأحاسيس حتى لو تقلصت داخل صندوق الطرد الذي يتحكم في مشاعرنا خلال استرخائنا بين أمواج حمامات أماكن إقامتنا، حيث يحلو لنا ـ إن استطعنا أن نفكر ـ استعذاب مشهد صندوق الدين: دوليًّا كان أو مصرفيًّا، أو جيبًا خاصًّا.

وبينما أحاول التخلص من كل صناديق الكنوز والمومياوات والطفو فوق سطح البحر والبريد وأسرار سقوط الطائرات، فوجئت بتيار الكهرباء ينقطع، ويعم أوراقي الظلام، لأخرج من حجرتي لأجد ابنتي تبحث عن صندوق الشموع التي نركنها جانبًا دون اهتمام، ونظل نبحث عنها. فما كادت ابنتي ـ بعد وقت مرهق ـ تجد الصندوق حتى صدمت لكونه فارغًا، من باب الحرص لا بد أن يظل في الصندوق بعض الشموع، ولو كان صندوق الفؤاد ـ دعك من صندوق العقل، أي الجمجمة ـ في هذه المسألة.

حتى خلايا جسدك التي تهلك في سبيلها عمرك كله، من الممكن أن تعمل ـ سرًّا أو علنًا ـ لحساب غيرك، انظر إلى خلايا مخك أو.. قلبك.

*

الاتجاه يسارًا ينادي به المكافحون حتى يصبحوا من أهل اليسار، ثم يتوقفون.

*

الإنسان: هو الحيوان الوحيد ذو الوجوه المتعددة.

*

التاريخ يتجول كثيرًا بين شواهد المقابر.

*

الذين يحبون الموسيقى: يحبون فقط.

*

كلما تضخم القرط في أذني الأنثى، يصبح صعبًا أن تمعن في عينيها.

*

النقود تنظم ضربات القلب وتعيد صياغة ابتسام الشفتين.

*

لكي يزداد أصدقاؤك إعجابًا بكتبك أو لوحاتك: اترك باب المطبخ مفتوحًا.

الخيط

من نسج العنكبوت إلى حياكة المؤامرات

اقطع خيطه، وكان فعل الأمر واضحًا، يكاد يكون جزءًا من معنى القدرة الحاسمة في الانتقام الريفي خلال فترة حياتي الأولى، مع أن الأمر قد لا يزيد عن انفعالات مبكرة في عالم الحقول والبراري لا يقصد به ما جاء في المعجم: خيط الرقبة يعني نخاعها. لكن ارتباط الخيط بالقتل لم يلبث أن تهاوى تاركًا المجال لذلك الخيط الأبيض الذي يمكن أن نتبينه تفريقًا بينه وبين الخيط الأسود استقبالًا لنور الأمل في الصباح الجديد، مع أنه ـ عادة ما يكون خيطًا رفيعًا بالغ الدقة والشاعرية يربطنا بعناصر الكون: نحس به أكثر مما نتبينه، ويفصل ـ أو يربط ـ بين الرؤى والأحلام والواقع، مع غض النظر عما جاء في رواية خضعت لهذا العنوان لإحسان عبد القدوس، لكنه ـ هذا الخيط الرفيع ـ هو السحر الغامض الذي تتلمسه حواسنا: بالرؤية والسماع في فنون الباليه والتحطيب والرقص الشعبي (حتى لو كان شديد الضجيج)، وفي الرؤية ـ مع الموسيقى اللونية في لوحات الرسم

المتألقة، وفي السماع ـ مع قليل أو كثير من الخيال ـ في الموسيقى الراقية، ثم في هذه الخيوط النورانية في الترتيل الديني الخاشع لآيات القرآن الكريم، حيث يسبح الوجدان في التيارات الناعمة التي تحملنا إلى الآفاق العليا. وهو ما يمكن أن نجد أثرًا منه في ذاك الخيط الدقيق الذي يسري بنا في الأعمال الأدبية أو المسرحية المبدعة، والذي يمكن لك أن تحس بسحره وتستمتع بزهوره أو كمونه إذا ما كانت ذائقتك لا تزال تحتفظ بالإدراك الفطري التلقائي بعيدًا عن حصار التدقيق القسري في مثل هذه النصوص تحت سطوة نظريات النقد الحديث التي كثيرًا ما تضطرب خيوطها وتتركنا بلا فهم بها على الإطلاق.

ومن الخيط يأتي الخائط والخياط أصحاب مهنة الخياطة، فإذا ظل الخيط في حدود ما نفهمه من مجريات صناعة الملابس والأزياء، فإن الأمور سوف تظل أقوى من خيوط العنكبوت. لكنك إذا تذكرت المقابل اللغوي للخياطة: الحياكة، ويصبح اسم الفاعل: الحائك، فإنما الأمر سوف يتسع ليدخل في عالم حياكة المؤامرات والخدع وما إلى ذلك من نسج الدسائس والوشايات والنمائم، مع أن الحية ـ أنثى الثعبان ـ إذا ما خاطت خيطًا فذلك يعني أنها انسابت على الأرض بسرعة، وخاط فلان أي: مضى سريعًا، أو واصل السير السريع، دون أن يلوي على شيء، إنها معانٍ وأساليب لم نعد نستعملها، إذ يصعب على روائي معاصر أن يملك الدقة في التعبير حتى لا نقع في معنى آخر قد يكون نقيضًا لما أوردناه، حين يقول إن بطله أخيط، أو بطلته خيطاء، ويقصد بذلك اختلاط الأبيض بالأسود ـ إنه إشارة للمشيب.

إلا أن العسس ورجال البحث عما يعتقدون أنه ضالتهم الكبرى، يمسكون بأول الخيط الذي يقودهم ـ بعد عناء وتمحيص وتدقيق ـ إلى الهدف، ولأن الرحلة مرهقة فإنهم نادرًا ما يتوقفون وإن اتضح لهم أن ما وصلوا إليه ليس الهدف المأمول. وفي البحث العلمي أو التحليل الاجتماعي كثيرًا ما يكون ذلك مفيدًا، غير أن الكارثة الكبرى في الموضوعات الجنائية التي يرفض أصحاب البحث فيها الاعتراف بأن الخيط الذي تشبثوا به أودى بهم ـ أو بغيرهم من الضحايا ـ إلى ما يثير الأسى، أو السخرية، أو إلى أخطر ما صنع من الخيوط في تاريخ الحياة: كفن الموتى.

والخيط ـ بدءًا من كونه نسيج قطن أو تيل أو صوف حتى أصبح من مواد صناعية (لا تتحملها بعض الأجساد ولا تطيق التلامس معها إن لم تصبح رداء المثوى الأخير) ظل يطوق أعناق الجميلات بالعقود ذات الخرز المتراقص قريبًا من الصدر الدافئ، لكنه ـ أي خيط ـ يبدو بالغ المكر والخداع حينما يحمل السنارة أو الشص أو يصبح التشكيل المتداخل في شباك صيد السمك واليمام والسمان. الغربان والصقور تعرف ذلك وتنأى بنفسها بعيدًا عن هذه المآزق. والأرقى ـ والأنقى ـ هذه الخيوط الدقيقة التي تفرزها دودة القز في بطء رقيق نادرًا ما نحس به أو نشاهده، إننا نفقد القدرة على التعبير إزاء تكوين الشرنقة التي تتداخل وتتوازى شعيراتها بالغة الرهافة والجمال، دون اهتمام بما ينتهي إليه أمرها، وعلى أي أجساد سيكون نسيجها. وهو أمر مختلف تمامًا عن خيوط ـ ليست من القز في معظم الأحوال ـ تقيم عالمًا

من أغطية الرأس ـ الطواقي ـ والستائر وبيارق الهتاف ورايات الترحيب والمبايعة.. والاحتجاج أحيانًا، دون الاقتراب من ذلك العالم الرحيب المتماوج ألوانًا في السجاجيد والأبسطة وقصائد الغزل وأساليب التعبير الإنشائي وطلبات التراحم والإحساس الدافق بالحب والحياة، والذي كادت الخيوط الصناعية تفقده حرارته ورقته: فراشًا على الأرض أو قصيدة تبدو منمقة في عالم ما بعد الحداثة الذي لا يمكنك الاستمتاع بخيوطه دون أن يضطرب أمرك فتبدو فاهمًا.. كما يحدث لي ـ في لحظات الصدق النادرة، والتي أتمنى فيها أن أقطع خيط صاحبها.

كلمات لها معنى

عندما يصيب الركود البحيرات الواسعة، تتحول إلى برك ومستنقعات.

*

ظلت تعابث السيجارة وهي تتكلم في أسى عنه، وما كادت تتسلل في الكلام عني وعن صفاتي النادرة حتى هالني ما تتمتع به هذه الأنثى من جمال وصدق.

*

كل القوانين والدساتير والقواعد واللوائح التي أشارك في صياغتها تحاصرني فور انتقالي إلى منصب أعلى.

*

أي ذكاء في العالم يحتاج إلى وسادة من البلاهة يضع رأسه عليها آخر الأمر.

❋

يتخصص الأطباء في القلب والصدر والعيون والمخ، دون السيقان والأذرع.

❋

حتى البيوت التي تزهو باستشرافها شواطئ البحر تشكو من ضجيج الأمواج.

❋

أخطر ما يمكن أن تواجهه في حياتك أن يلازمك الإحساس بغباء الذين يتحكمون في شؤونك، دعك من التفسير السياسي الآن.

البئر

عين الماء والأمل في الصحراء

ورد لفظ البئر مرة واحدة في القرآن الكريم: «فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ»، والبئر المعطلة رمز قوي للخراب والعقم وبؤس الحياة. وفي واحة كركر - غرب أسوان في الجنوب المصري - بئر معطلة لها عمق مظلم أصابني بالدوار، وتشير بقايا لافتة باللغة الإنجليزية - على حافة هذه البئر - بعدم استعمال مائها مما يعني أنها خضعت - ذات عصر - لنوع من السموم كانت القوات البريطانية المحتلة تلقي بها في آبار يحتمل أن تصبح تحت يد الأعداء - الألمان أيامها، ومن الغريب أن النباتات والأشجار القريبة من هذه البئر كانت تعاني من جفاف شديد لم يلحق بغيرها من تلك النامية بعيدًا. وأي بئر - في الصحراء بالذات - تثير في النفس الإحساس العميق بالأمل، غير أن أمورًا أخرى لا يسهل إخفاؤها، بالنسبة لي، فقد ظلت البئر سردابًا غويطًا يحمل في جوفه واقعة الانتقام فتكًا بصبي - في قريتنا - حينما كنا

نتلمس الطريق إلى المدرسة في المرحلة المبكرة، ولا تزال هذه البئر داخل أعصابي تتسرب بين صحراء وأخرى في قصصي وكتاباتي وحكاياتي. وقد حاولت أن أتصور أن هذه البئر ـ من باب الأمل ـ هي الجب التي رأى إخوة النبي يوسف أن يلقوا به فيها ـ بديلًا لقتله لتنقذه الرفقة السائرة ـ أي السيارة لتبدأ سيرة النبي يوسف في التصاعد، بئر مرحلتي الصبيانية لم يحدث فيها ما يشير إلى هذا الأمل.

وأزعم أن أحدًا لم ينجُ من السقوط في بئره الخاصة التي أعطاها عالما النفس: «فرويد» و«أدلر» اهتمامًا كشف ما في الإنسان من أغوار، أو هكذا ـ بعد إذابة همزة الياء لتمتد في لهجة الحكايات صانعة امتدادها المذهل. نعرفها جيدًا في قصص «ألف ليلة وليلة» و«مرتفعات وذرنج» («إميلي برونتي») والتي يتعدد مستوى عمقها في «الإخوة كرامازوف» لـ«ديستويفسكي» وتجد لها أثرًا في ثلاثية نجيب محفوظ. مع أن عوامل أخرى قامت بالتخفيف من كل هذه المعاني القاسية حينما استطاعت الجعة ـ هذا المشروب خفيف الكحوليات ـ أن تعابث البئر مستعيرة منها لفظ «بيرة»، مع أن بيرة جاك مدينة على الضفة اليسرى على نهر الفرات كانت حصنًا عربيًّا إبان غزو المغول للشام في القرن ١٣، أما مدينة بيرا في موزمبيق ـ جنوب شرق أفريقيا فهي على المحيط الهندي أخذت نفس اللفظ دون اهتمام بما يجول في خاطرنا عن البئر أو البيرة. وهذا لا دخل له بما حاق باسم «بيراندللو» ـ الشاعر والروائي والمؤلف المسرحي الإيطالي (جائزة نوبل ١٩٣٤) والذي حاز شهرته الكبرى بسبب ما أحدثه من كسر للإيهام المسرحي في «ست شخصيات تبحث عن

مؤلف»، وقد يؤدي بنا ذلك إلى ما نتصوره واقعًا تحت سطوة البئر لنتوه بين الصحاري، مع أن البئر المعاصرة قامت على فتحات آبار البترول التي أحدثت في النظام العالمي تأثيرات أعادت صياغة العديد من نظريات الاقتصاد والسياسة، وما نتج عنها من حروب أيضًا.

وثمة رواية تحمل ـ في الأدب العربي ـ عنوانًا مباشرًا من أشهر أعمال إحسان عبد القدوس: «بئر الحرمان»، وأخرى لفيصل الحوراني: «بير الشوم»، أما سلك البيرة فهو نوع من الحبال المعدنية المرنة التي تستخدم في توثيق حمولات المقطورات والشاحنات. ولا تزال بيرو دولة لها وضعها المتميز غربي أمريكا الجنوبية، كما أن «شارل بيرو» شاعر فرنسي كتب مجموعة قصص شهيرة في الأدب الغربي تحمل صياغة جديدة وجميلة عن قصص «الجمال الناعس» و«سندريلَّا» و«ذو اللحية الزرقاء» تحت عنوان: «قصص وخرافات من الأزمنة القديمة»، وهي ذات القصص التي تسللت من التدوين إلى الصياغة الموسيقية في الأوبرا والباليه.

إنني أحاول أن أبدو مثقفًا كي أبتعد بكم عن بير السلم في البيوت والعمارات وما حدث فيه من كوارث صغيرة بالغة الوخز، أو السخرية، مع أن بير السلم قد يكون أهون مما جرى في بير العبد ـ في شبه جزيرة سيناء ـ أثناء الاحتلال الإسرائيلي. أما الهدوء النفسي ـ وما نبحث عنه من سلوان ـ فإنه يتسلل إلينا من بئر زمزم بالمسجد الحرام قريبة من الكعبة المشرفة ـ حيث يقع بينهما مقام النبي إبراهيم عليه السلام، وماء زمزم نتهادى به نحن المسلمون. وقد تم تحليل هذه المياه في العصر الحديث فظهر أنها تتميز بفوائد وتأثيرات صحية تفوق المياه

المعدنية الشهيرة في وسط أوروبا ـ على وجه الخصوص، وهذا ما يجعلنا نتشمم الطريق الوردي بعيدًا عما حاق بنا من آبار أخرى.

كلمات لها معنى

ألم تلاحظ أن أشجار التوت التي كانت تحفل بأوراق تعني الخشية والحرج والحياء، بدأت تندثر في السنوات الأخيرة.

*

قيمة الظلام الكبرى أنه يجعلك في حالة ترقب وتحفز انتظارًا للنور.

*

كل العلوم والقواعد الهندسية يتسلح بها خبراء المباني دون أن تساعدهم على التقاط قوالب الطوب فوق الحوائط بالطريقة التي يمارسها البنَّاء الذي قد لا يجيد كتابة اسمه.

*

أول ما يفسد الذاكرة: أن تحتل الديون مساحة كبرى منها.

*

قد يمتد ليل شتائنا ـ الممل المثير للسأم ـ إلى أربع عشرة ساعة، ماذا لو كنت في بلاد الإسكيمو؟

*

لا تفتح الباب بسرعة، فالذي تنتظره لا يقوم بهذا النوع من الدق أو الخبط، وكثيرًا ما يكون الجرس ـ في هذه الظروف ـ تالفًا.

الحاسوب.. والمؤامرة

ما كان لي أن أقترب من هذه المنطقة المرعبة لولا بعض الوساوس التي ينسجها الأصدقاء ضدي، بداية الأمر: أشار أحدهم أن أستعين بالكمبيوتر أو الحاسب الآلي أو الحاسوب للحصول على أي معلومات أحتاج إليها، وهي مسألة تضعني في موقع عصري يناسب تطلعاتي التي أخفي معظمها عن كل الأصدقاء. بعدها ـ ولأسباب لا أميل إلى الإفصاح عنها (تتعلق بقدراتي المادية أو اللغوية أو النفسية) ـ ابتسم أحدهم وهو يغمرني بمشاعره الفياضة ليفاجئني بأنه سوف يقدم لي جهاز كمبيوتر على أحدث طراز: هدية متواضعة تعبر عما يكنه لي من تلك المشاعر المشار إليها، وخلال انغماسي في الإحساس الجارف بالامتنان، قادني إلى الركن الذي يقبع فيه هذا الكائن العصري الهادئ المستكين، وفور أن رفع عنه الغطاء، وسحب مقعده، وبدأت أصابعه تعابث أزرار قواعده، سألني مبتسمًا: ماذا تريد؟ اضطربت قليلًا وحاولت تجميع أشلاء أي سؤال، كنت بالغ السعادة حينما نجحت في صياغة السؤال المأمول: ما أكبر

عاصمة في العالم؟ فإذ بالحروف تتسابق إلى شاشة الجهاز يرافقها سهم صغير يتقافز بين تلال مربعات المعلومات: لندن ثم طوكيو، موسكو، فالقاهرة، أحسست بالفخر العارم حيث سبقت عاصمتي الغالية باريس وبكين وروما، وأين واشنطن عاصمة الإمبراطورية الأمريكية المهيمنة على العالم المعاصر؟ إنها في ذيل القوائم. سألت صديقي وأستاذي: إذن لماذا يقولون إن نيويورك هي أكبر مدن العالم؟ ضحك ونظر في وجهي وقال: أنت سألت عن العواصم فقط. بدأت حينئذ أنتبه إلى اعتقاد راسخ في مخي يجعل العواصم دائمًا هي أكبر المدن، ونيويورك ليست عاصمة بالمفهوم الرسمي والإداري، فبدأت أجمع المتناثر من إدراكي وألوذ إلى ركن بعيد. كان صديقي وأستاذي أيضًا ـ لا يزال يبتسم.

لكني ـ وكالعادة ـ استعدت لياقتي الذهنية بعد احتفالية نقل الحاسوب إلى بيتي، ما أريده من معلومات ـ مهما كانت ـ ينهمر على ساحة المخ. عناصر تكوين الكون وحركة الأفلاك وتواريخ ميلاد عظماء الموسيقى والرياضة والفلسفة والاكتشافات العلمية والكشوفات الأرضية (أقصد الجغرافية في وسط أفريقيا وجنوبها وقارات أستراليا والأمريكتين) ورواد فنون المسرح والسينما واغتيالات الزعماء والانقلابات وأشهر حدائق الحيوان، وتكوينات المخ أو الحنجرة أو المعدة أو الأقدام أو العيون أو القلوب، وأخطر الجواسيس وأعظم نوادي القمار والمراهنات والوصول إلى المتعة القصوى. ظللت أفرش مساحة عقلي لاستقبال هذه المعلومات الهادرة لا أملك سوى الانبهار الصامت إزاءها.

بعدها بأيام ـ لم يكن سهلًا أن أصحب صديقي الكمبيوتر معي ـ سافرت كي أشارك في مجاملة زواج الابن الثالث لأحد أقاربي. كنت من قبل أسرع إلى هذه المواقع خارج العاصمة الكبرى: القاهرة، فأقع بين أحضان الأفراح والأشواق واستعادة الذكريات مع أهمية الخراف المشوية ومداعبات الغوازي ورقصات التحطيب والانفعال الجارف بالأصوات ذات الشجن البري وهي تتسلل مع حسن العاشق كي يلتقي المعشوقة الفاتنة نعيمة. وتأتي دقات الطبول وقد حملت في إيقاعها فتنة أنغام الربابة كي نحتضن العريس ذا الكفوف المصبوغة بالحناء إشارة إلى عصر جديد ـ ومتألق. وكانت «النقطة» ذات الأوراق النقدية المرفوعة في الهواء تعلن القيمة الكبرى لصاحبها ذي الشأن الواضح، وبينما يداهمنا الانشراح خلال هذه المنافسات المثيرة للمشاركة: تنطلق العيارات النارية لتنهمر في شرارتها الزغاريد، فلا يلبث معظمنا ـ مهما حاولنا التظاهر بالرصانة والثبات ـ أن يخترق الجموع ليرقص بالعصا، وينقط بالنقود، ويرفع من صوت الحماس الفوار داعيًا للعروسين بأجمل وأسعد حياة.

لكني ـ هذه المرة ـ عانيت كثيرًا، فقد ظلت أزرار الحاسوب تتلمس أصابعي وتحول بينها وبين متعة التصفيق أو إعلان الإعجاب والمتعة، كما أن السهم الصغير الذي يتقافز بين المعلومات على الشاشة الصغيرة اخترق السماوات وكمم إطلاق الرصاص، وخنق الزغاريد وأحال إغراءات بطون وعيون الراقصات إلى خربشة فوق حوائط الجمجمة. كان الفرح تعيسًا والرحلة جافة، والإحساس بالقلق يغلق نوافذ سيارة العودة، فسقط حسن دون أن يصل إلى

نعيمة، وظل أبو زيد الهلالي جالسًا أمام التلفزيون رافضًا أن يكمل رحلته إلى دياب بن غانم، ثم لم يلبث بطلنا الهمام أن بدأ يشكو من آلام المفاصل، لقد توقف الهلالي عن السير والركوب.

وفور أن عدت إلى بيتي، فتح لي الحاسوب ذراعيه ليحتضنني، وجلست بجواره دون أن تمتد أصابعي لأزراره، أحسست برغبة حارقة أن أكتب عن الحناء. وكادت أصابعي تمتد إلى الكمبيوتر لكنها تجمدت، وقفت إلى المكتبة، بدأت أصابع عقلي تتحرك، يدي تمتد إلى الكتب، وعقلي يقلب في أركان عالمي الخاص الذي لا تحتويه الكتب: الحناء شجرة معمرة متساقطة الأوراق اسمها العلمي.. كانت الحناء قد هربت من الاسم العلمي وتحولت إلى دقات طبول بين كفوف العرسان ـ الذكور والإناث، كما أن زوجة خالي ظلت شغوفة بتضميخ معصم يدها اليمنى وبطن كفها اليسرى بالحناء ـ لماذا؟ ـ لا أعرف، ولا تزال الحناء عنصرًا أساسيًّا في تطهير أو تنظيف ثنايا أجساد الراحلين. وعندما تتراقص الأنثى ـ حافية ـ يظل الخلخال اللامع يشي بفتنتها الفائقة، كما أن تجار الحناء ـ في الريف المصري ـ يظلون يتجولون أغرابًا من الغجر بين البيوت ليقدموا مع الحناء المشورة الواجبة في التزيين والتجميل والعلاج ـ والنصائح التي تثير الاستحياء والنظرات العاتبة.

بعدها أصبح مناسبًا أن أسارع ـ شاكرًا ـ بإعادة الحاسوب أو الكمبيوتر إلى صديقي وأستاذي، كي أستعيد نفسي متلمسًا المتعة في جولات بين الكتب وسنوات العمر وعبث الأمنيات وطقوس الأحباب، واتساع البراري وحركة المخ المتقافز بين

عناصر الدنيا دون نظام معروف، لأكشف عن تلك المؤامرة التي دبرها لي أصدقائي.

كلمات لها معنى

من باب التفاؤل سيظل صوت الحقيقة هو الأعلى، لكنه ـ مع الأسف ـ ليس الأجمل دائمًا.

*

البيوت أسرار، جملة يعشق ترديدها الناس دون أن ينتبهوا للنظرة الساخرة التي يرمقهم القمر بها.

*

لا أحد يمكنه التسلل إلى جحور الأفاعي سوى النمل.

*

الصباح يزداد بهاء كلما ابتعدت عن الفراش.

*

الحزن يصل إلى عمق معناه إذا كان في عيني أنثى.

*

انتظر قليلًا.. فإن ما مضى ليس هو الموضوع الأخطر.

العُش والعشّة

المأوى الجميل للعقارب والعصافير واللصوص

العش: وكر الطيور والعناكب، فإذا أصابته تاء التأنيث ليكون «عشَّة» أصبح وكرًا لنا نحن البشر. وهي التكوينات المبكرة للمرحلة التي تطورت إلى الكوخ ثم البيت الذي لم يلبث أن أصبح قصرًا فخيمًا أو شقة في عمارة، وبينما كنا نكافح نحن أبناء العشش أو الديار البدائية الأولى لنصل إلى عنان القصور أو الشقق: فوجئنا بأصحاب تلك المساكن الفاخرة يعيدون ترتيبات حياتهم كي يعودوا إلى هذه العشة البسيطة الخالية من كل التعقيدات الحديثة. وتكون العشة أكثر تحقيقًا للعيش المأمول لو كانت تطل على تلك الآفاق الممتدة رقيقة بالغة الرومانسية استقبالًا للشروق المبكر للشمس، ووداعًا لآخر أضواء نهار تغرب هزيلة مطمئنة لبواكير غسق الليل. ويكون المشهد بالغ الجمال إذا ما كان لموسيقى مسطحات المياه الموغلة في الأفق دورها الممتع، ودون أن تعشش في مخك ـ يا صديقي ـ تلك المسائل التي أفسدت المدن.

وتكاد العشة ترتبط بالريف والوديان والسهول مقابل الخيمة في الصحاري والجبال. لكن المنتجعات الحديثة قامت بتطويع العشش ـ دون الخيام ـ في هذه الأماكن الصحراوية والجبلية، وأشهرها منتجعات ومصحات أوروبا في جبال الألب، البريطانية والسويسرية، وفي جبال البرانس بين إسبانيا وفرنسا، حيث استفادت تشكيلات العشش من تجارب الأوروبيين بالتفاعل مع الأكواخ القبلية في أفريقيا الوسطى ـ حول منابع أنهار النيل والنيجر وزامبيزي، وفي أمريكا الوسطى والجنوبية إزاء مساكن أهل البلاد الأصليين، ولا سيما حول نهر الأمازون. إنها ذكرى الاستعمار المبكر تبسيطًا للحياة الأوروبية المعقدة، دون الإخلال بحق الأكواخ الصينية والهندية في التأثير.

وأخطر ما في العشة قدرتها الفائقة على إذكاء الإحساس الإنساني بالحياة والتواصل والهدوء والارتباط بالوجود، ربما تكون الغرف المتداخلة والحجرات متعددة الأبواب، وضغوط السقوف، وعدم الخلاص من وقع خطوات الآخرين ـ مهما كان الآخرون أهلًا وأحبابًا ـ في الطوابق العليا، وراء الرجوع إلى عالم العشش التي لا تصنع الحصار الذي يقذف بالروح إلى نوع من التوتر، وهو ما جعل المدن ـ كل المدن ـ غولًا حضاريًّا شرسًا لا يمكن الانصياع لقوانينه وتكويناته دائمًا. إن لجوء الباحثين عن الصفاء الروحي من كهان مختلف الأديان إلى الصحراوات أو قمم الجبال، لم يكن سببه ـ دائمًا ـ الهرب من الاضطهاد أو الاختفاء بعيدًا عن عيون المتربصين، حتى لو كانت المصحات ومستشفيات البراري قد استفادت من أسباب

انقطاع الأديرة والمعابد هناك في عشش متناثرة في الهواء الطلق مع تغيير لفظ العشش إلى شاليهات.

ولأسباب تتعلق بثقافتي القروية المبكرة: ظلت العشة مكمن الإيحاءات الفقيرة العاجزة عن امتلاك مسكن، يحتلها أصحاب الأنشطة الذين نترفع أن يكونوا من أهلنا: باعة السمك المملح من السردين الصغير ـ أو الذين يجهزون الشاي والجوزة لعمال المواسم الزراعية، تلك العشش التي يمكن الجلاء عنها من موقع لآخر تحت تأثير انتقال مواقع النشاط ذاته أو خضوعًا لحركة مياه فيضان النهر وجداوله، ثم لم ألبث أن اندهشت لورود لفظ «العشة» في كتابات الصحفي الشهير محمد التابعي، ثم عرفت أن أم كلثوم ـ ذات السطوة المتألقة على الوجدان ـ تلوذ بالعشة الصيفية في رأس البر على ساحل البحر ـ هناك في الشمال الذي يعبق بالنسيم، وتوالى أصحاب العشش ليعبثوا في مفهومي الراسخ عن هذا المأوى الفقير: أبناء أمين: علي ومصطفى وفارس الصحراء والقصور أحمد باشا حسنين المشرف على تربية الملك فاروق الأول ـ ملك مصر والسودان. وعليك أن تفتح باب الجمجمة الريفية لترى مدى ما حاق بنا حينما اتضح أن عددًا آخر من نجوم المسرح والسينما وأصحاب العز والجاه والشهرة والسطوة على أغلفة المجلات الملونة يقيمون في تلك العشش البسيطة: أبسط بمراحل من كوخنا الريفي في براري قريتنا: أحمد سالم وعزيزة أمير وسراج منير ومحمد كريم وبابا شارو وعثمان محرم وأحمد رامي وكاميليا وحسن الإمام ومحمد حسن الشجاعي. وسوف أشير ـ من باب التعريف السريع إلى أن عثمان محرم كان

وزيرًا لامعًا للأشغال في عصور ما قبل ثورة عبد الناصر، أي أنه كان المسؤول عن مشروعات الري والصرف والقناطر والمدن، أما باقي أصحاب العشش فسوف تقوم ذاكرتك بإفراز المادة القديمة من بين خلايا أعشاشها لتثير رائحة التعريف بهم.

أما مذكر العشة الإنسانية: العُش، وأقوى الأعشاش ما كان للطيور الجارحة من نسور وصقور وبوم وغربان وعسكر ومتمردين وقطاع طرق ونحل وزنابير وعقارب وخلايا شيوعية أو تجسس أو أمراض سرطانية. ولا تلبث الرومانسية أن تتضوع في رقة حول أعشاش العصافير والفراشات والوجدان والقصائد وانفعالات الألوان لتصنع الحلم واللوحات وأنغام موسيقى الوجود، لتنبسط الحياة كلها في شفتي الطفولة الساعية نحو ثدي الأم تلتمس دفء الإشباع العظيم، ثم لا يلبث أن يتبدد هذا الدفء خلال الحركة الدائبة سعيًا للخروج من العش لتصل إلى كل تعقيدات سعادة جهنم العصر الحديث. لا تحزن ـ يا صديقي ـ فسوف تعود إلى الوكر النهائي الصامت الذي لا نحب أن نصفه بالعش، مع قراءة الفاتحة توسلًا للرحمة من الله الرحيم.

كلمات لها معنى

ليس كل ما يعرف يقال، بل هناك ما يجب ألَّا يعرف أصلًا.

*

لا أعرف لماذا يظل الحزن: مذكرًا، فإذا تم تأنيثه أصبح حسرة.

*

أول مظاهر التعقيدات ذات الكرمشة المتغضنة تظهر على الجبين، وخلفه مباشرة يكمن المخ.

*

الاستيقاظ المبكر نعمة كبرى، دعك من جحيم النوم المبكر يا صديقي.

*

يتمتع الإنسان بالحواس الخمس، الخطر أن تداهمك حاسة سادسة.

*

إذا تلمست أصابعك أوراقًا نقدية، فنادرًا ما تجد السرعة المناسبة للإمساك بالقلم أو العزف على الأوتار.

الرّمل
وعالمه المتسع في الصحراوات والغيبيات
والعشق القديم

ظل عنترة بن شداد يواجه المصاعب بين صليل السيوف وصهيل الجياد ليثير في الوجدان سحب الرمل الجياش بالعاطفة، وكانت عبلة بنت عمه مالك تذوب ـ على اتساع رمل الفروسية ـ انتظارًا للانتصار والتحرر. واستمرت شاشة سينما بلدتنا تتسع ليصبح للصحراء المعنى الواسع للغرام، وهذا ما لا تدركه حوائط قريتنا تحت ظلال الشجر وعلى ضفاف الجداول والمستنقعات. اضطررنا ـ نحن العشاق المبكرين ـ أن نخترق الحقول غربًا بحثًا عن الصحراء، هذه الساحة المتسعة التي لا يمكن لعبلة أن تعيش بعيدًا عنها. ومع تعاقب العصور ظهر امرؤ القيس ـ خارج أفلام السينما ـ وقد استبد به الشجن مخترقًا الآكام والتلال وكثبان الرمل يلتمس معونة القبائل في الثأر لأبيه، ثم شاءت الظروف أن أتخلى عن عنترة وامرئ القيس وعمرو بن كلثوم لأقع تحت سطوة بدر لاما وكوكا ومحمد الكحلاوي

ما داموا يؤدون المهام العاطفية فوق ساحات الرمل. وربما كان ذلك وراء هذا المصير المفاجئ الذي أودى بي لأعمل في مشروع السد العالي، وبالذات في منطقة داخل عمق الصحراء الغربية حيث قامت الكراكات والبلدوزرات ـ تلك الآلات ذات الضجيج ـ بترويع كل أبطالي (من عنترة إلى رابحة) لتستخرج من تحت طبقات الرمل نوعًا من الطفلة أو الكاولينا أو الطفلة الطينية المكمورة لتصبح نواة للسد العالي، وهناك أحسست بهذه الآفاق الممتدة حتى تلامس الغيوم الرملية غربًا، أو المنحدرة شرقًا كي تشرق خضرة الوادي فوق التيار المتلألئ لمياه النهر.

والرَّمل ـ مع تسكين الميم ـ هو فتات أو تراب الصخر، وهذا المعنى القاموسي يجعل الصخر أساسًا للرمل، مع أن مشهد الرمال في الصحراء يجعلك تعتقد أنها ـ تحت ظروف قاسية ـ قد تصخرت. والفعل «رَمَل» ـ مفتوح الميم يعني هرول، ورمل النسيج: رققه، ولا يزال أهل العرائس يرملون الأسرَّة (جمع سرير): أي يزينونها بما يضفي البهجة على العروسين، ولا يكاد الفعل الثلاثي «رمل» يصبح رباعيًّا «أرمل» حتى يدخل المعنى في كارثة الاحتياج أو الافتقار أو نضوب الزاد ثم فقدان القرين ـ أي الزوج أو الزوجة، وعند تشديد الميم «رمَّل» يدخل الفعل على الطبيخ فيفسده، وعلى الثوب فيلطخه بالدم، وعلى الكلام فيزيفه. ومع ذلك فإن هذا الترمل أو الارتمال إذا دخل على خط الكاتب فيصبح القصد رش الرمل على كتابته ليشرب فضلة الحبر، ذلك أيام التدوين والتسجيل بالحبر الزفر الذي لم تشهده الأجيال الجديدة في الأحقاب الأخيرة. لكن الرملة

سوف تظل تلك المدينة العربية (شرقي القدس) التي عاشت تاريخًا مريرًا طوال حياتها.

لكن الرمل ـ في اتساعه المذهل خلال هذه الآفاق الصحراوية في العالم كله (دون التدقيق في صحراء الإسكيمو المتجمدة شمالًا) لا يلبث أن يتسلل إلى بحور الشعر ليكون بحر الرمل أسهلها وأكثرها شيوعًا في العصر الحديث الذي لا يمعن كثيرًا في الدقة الفنية الموروثة، أو البعد المقصود ـ أو التلقائي ـ عن بحور أخرى ليس فيها قياس الرمل (فاعلاتن ـ فاعلاتن ـ فاعلن) ببساطته الواضحة. وهي البساطة ذاتها التي تمارس بها الرمالة (أو الرمال) الإمعان في رقعة الرمل لتبحث لك عما يخفيه الغيب لك، وهو نوع من الغيبيات التي لازمتنا دهورًا. وفي مقابلها يكون ضرب الودع ـ (مع وشوشة الذكر، أي أكبر الودعات التي سوف تودعها سؤالك وحيرتك)، وهي أنشطة لها وقعها في القلوب ـ والعقول ـ برع فيها دون شريك قبائل الرحَّل في كل الصحراوات (والغجر على وجه الخصوص).

التقيت ذات مرة ومعي صديق ـ عمل فترة عميدًا لإحدى كليات الهندسة ـ غجرية تضرب الرمل في أشهر حدائق القاهرة بضاحية حلوان (الحديقة اليابانية) والتي تبتعد أكثر من ثلاثمائة كيلومتر عن قريتنا، وهالنا أنها ظلت تمعن في رقعة الرمل ثم أصابها اضطراب أحال ملامح وجهها ـ وبخاصة عيناها ـ إلى تكوين مرعب لا نراه إلا في الأفلام السينمائية، ثم لم تلبث أن أعلنت اسم أمي وأسماء أخواتي البنات الخمس (لم تكن أسماؤهن معتادة ومألوفة) مما زاد من اضطراب منطقة العلم في عقولنا.

إلا أن الرمل يرق ويتلمس العذوبة حينما يصبح صفة لشقائق البطيخ الناضج (البطيخة المرمِّلة)، وألاعيب الأصدقاء حينما تسوخ أقدامنا في حيلهم الرملية الخالية من الشر. فإن خرجت الحيل عن الرمل أصبحت مكائد ومؤامرات يميل إليها السياسيون والموظفون وذوو الضمائر الشريرة، الذين لا يميل الرمل أن يفتح الآفاق الممتدة أمام بصيرتهم، فلا يستمتعون بالجهود التي بذلها عنترة بن شداد كي يتحرر من سطوة الرِّق.

كلمات لها معنى

عليك أن تنظر في وجوه السياسيين وهم يخطبون كي نراعي أن نكون أسرة واحدة، دون تحديد: الأسرة التي نرتعب من التلميح إليها الآن؟

❋

يحكم العالم المعاصر: القنابل والصواريخ والأسهم والسندات.

❋

بعد أن تفشى تحطم الأسنان لم نعد نستمتع بالصبر على الأمور بالعض على الناجذ، أطقم الأسنان لا تصلح لذلك.

❋

المأمور: اسم مفعول، لكنه اسم الفاعل الذي يأمر فيطيعه الجميع، إنها مؤامرة لغوية.

❋

الجوع ضد القراءة، والكتابة، والأخلاق.

*

أخطر ما يواجهني: قلق الانتظار، حزن الشتاء، عصفورة تحط على النافذة ثم لا تلبث أن تطير.

الخل

وفاء.. وحزن تاريخي

تذرعت بالخلال الحميدة خلال محاولتي اختراق أحراش التفكير في «الخل» متفاديًا كل أنواع الاضطراب أو الاختلال. وذات مرة زرت أختي - في قريتي - كي أشاركها فرحتها الغامرة لبنائها منزلًا جديدًا يماثل القلاع الشامخة، وقد وصلت سعادتنا إلى ذروتها خلال تحلقنا حول طبلية ترزح تحت ثقل الجدي المشوي. ومن دون أن أقصد - أي مع حُسن النوايا - طلبت قليلًا من الخل ليريق طعمه - ورائحته أيضًا - على شرائح الخيار والبصل والطماطم: من باب فتح الشهية، إلا إن أختي - رعاها الله - أمعنت في وجهي. كان واضحًا أنها لا تميل إلى استخدام عناصر معينة تذكرها بعصور الجفاف - أو الكفاف - القديم، فاضطررت - حينذاك - إلى إلقاء كلمة مؤداها أن الخل هو الخل الوفي الدائم على كل أنواع الموائد والطبالي (جمع طبلية) في مختلف الأمم والعهود والقوميات والشرائح الاجتماعية. وحول جبل الدرهيب - في الجنوب الشرقي للصحراء المصرية قريبًا

من شواطئ البحر الأحمر المتعرجة ـ لاحظت أن أفرادًا عديدين من قبائل العبابدة والبشارية يحتفظون بزجاجات صغيرة مملوءة بالخل المركز، كما أن الذين يختلون بأنفسهم ـ في وحدة العبادة الصامتة التي يميل إليها العديد من الصوفيين في أعالي الجبال، أو كهان الأديرة المنقطعة بين الآفاق الرملية الممتدة: لا يخلو زادهم البسيط من قوارير الخل. وعندما أصيبت ساق بطل رواية «هيمنجواي» ـ «ثلوج كليمنجارو» ـ بالغرغرينا ليصبح معزولًا عاجزًا في خيمته: كانت رفيقته الجميلة تحاول إثارة اشتهائه للحياة بقطرات من النبيذ والخل، وكلاهما ـ النبيذ والخل ـ من مصدر واحد.

وكل بيوت العالم لا تخلو من الخل حتى هؤلاء الذين يذكرهم ظهوره بين المأكولات ـ الحديثة ـ بما لا يحبون أن يتذكروا من ماضيهم، أو حاضرهم.

فإذا ما ابتعدنا عن حامض الخل فسوف يكون مريحًا ـ أو مؤلمًا ـ أن نتذكر الخِل الوفي ـ بعد كسر الخاء ـ بصفته الصديق الأمين النقي، والنادر أيضًا، والذي أصبح ثالث المستحيلات الشهيرة بعد الغول والعنقاء. وهو ما أنتج إحساسًا دقيقًا ـ وساخنًا ـ بالمعنى الراقي عندما يكون الفؤاد موقعًا للخليل الإنساني، والذي كثيرًا ما يتسلل ـ هذا الخليل الإنساني ـ إلى أنواع الحيوانات التي ترقى الرفقة معها حتى نجد أنفسنا مضطرين إلى المقارنة الآسفة بينها وبين صحبة البشر.

إلا إن مدينة الخليل ـ (أثناء محاولتي البائسة ـ أن نلتقط أنفاس الراحة بعيدًا عن آلام الأخبار الوافدة من فلسطين الآن) ـ تحوم في جمجمة العالم لتذكرنا بأنها حملت اسمها التاريخي من احتوائها

على قبور سيدنا إبراهيم الخليل ـ أبي الأنبياء ـ وزوجته سارة وبعض أبنائه، وكان اسمها القديم «حبرون» وتقع جنوب بيت المقدس. فهل يمكن لنا أن نهرب بعيدًا حتى أدعوكم ـ من باب السلوان ـ إلى مائدة أم الخلول: هذا الحيوان البحري ذي الصدفة الذي يملح ويؤكل، لتنطلق الأقاويل عن قدرته الفائقة في إثارة كوامن النفس، وإن كانت ـ هذه القدرة ـ أقل بعض الشيء من الاستاكوزا. ونحن أبناء الريف نضطرب إزاء الجندوفلي والجمبري وأم الخلول، ونادرًا ما ننجح في استطعامها، حيث لا تجد لها في نفوسنا الموقع المناسب خلال موروثاتنا الزراعية والصحراوية والنهرية التي تتوقف عند مخللات البصل والجزر والأسماك الصغيرة. لاحظ أن الخلال هنا تختلف عن الخلال التي تعني الرُّطب ـ أي البلح الناضج لدرجة الليونة المعروفة لنا جميعًا، كما أن الخلال تعني بقية الطعام بين الأسنان، وبالتالي فإن هذا الموضوع سوف يعود للاختلال كما يختل العصير فيصبح خلًّا، أو الاختلال الذي يجعلنا نهتز فنفقد التوازن، أقصد الاختلال الشخصي دون التاريخي يا خليلي.

كلمات لها معنى

لعل ما يثير السخرية أن تحتل القناعة ـ التي هي الاكتفاء بالقليل بصفتها كنزًا لا يفنى ـ موضع القناعة بمعنى الاقتناع بما يحدث وما يقال.

*

الجبر يبدأ بالتعويض وينتهي بالقسر الإجباري.

*

المخ يصنع المؤامرة ويترك القلب ينزف دمه ليواجه نتائجها.

*

قلت لها إنني أستظل برموش عيونك، فنبهتني أن القاموس يخلو من الرموش، واللغة الصحيحة: الأهداب، إنني أستظل بأهداب عيونك، ولم نلتقِ بعد ذلك.

*

النهار والليل لفظان مذكران، لكن الليل ـ وفي هدوء ـ يترك النهار وحيدًا ـ عندما يصبح ليلة بالغة الحنان والدفء.. والأنوثة.

البيت [مرة أخرى]

وطنًا ـ يكون ـ وفؤادًا ومهدًا طفوليًا عذبًا.. ومعذبًا

حتى الآن، وقد تجاوز عمري الألف عام ـ رعاك الله ـ لا زلت أسأل نفسي: لماذا تفعل ذلك؟ ومثال لهذا الذي أفعله وأسائل نفسي عنه أنني ـ وبعد عناء ـ وجدت عملًا في أسوان (مشروع السد العالي). وأخطر ما وفره لي هذا العمل لم يكن ـ فقط ـ الأجر أو المأكل، بل كان هذا المهد الذي تحقق لي النوم عليه في حجرة مستقلة، أعرف أن المهد هو فراش أو سرير الأطفال. ومن قال لك إنني لم أكن طفلًا قد تجاوز ـ حينذاك ـ ربع القرن الأول من حياته؟ ومع ذلك ـ أي بعد تحقيق هذا الحلم: ظللت أرنو إلى قريتي البعيدة في بداية شمال الصعيد وبينها وبين أسوان ما يقرب من سبعمائة كيلومتر. كانت ديروط الشريف مهدي وبيتي وملاذي ومأواي، وهي لغة شاعرية عاطفية بالغة الحنو عن بيت خارج القرية لا أثر لسرير في أثاثه (إنه أثاث مجازي وليس حقيقيًّا)، وجدران البيت تتساند لتصنع نوعًا من الرغبة العارمة في أن تتهالك متساقطة فوقي. كنت أنام على حصير وأتغطى بمفرش حتى إنني ـ إن

أردت بعض الترف والراحة القصوى، كنت أنام على حافة البركة ذات الماء الساكن ـ لم أقل الماء الآسن ـ الممزوج بالنقيق الجميل المقلق لضفادع قارة أفريقيا. وحتى عصر قريب ظلت هذه الأمنية حلمي الأكبر أينما كنت وعلى أي فراش وثير أنام، وداخل أي منزل ضخم أو متسع أعيش، وعندما قام صهري ـ خلال حركة الانفتاح التي اجتاحت المجتمع كله أخيرًا ـ بتسوية البيت في البركة مع إزالة كل أنواع النخيل وأشجار السنط ليصبح شارعًا يحمل اسمي (رجاء الانتباه) تقوم عليه المنازل التي تبدو حديثة، لم أستطع أن أتشمم الهواء هناك مرة أخرى، فلم تعد البيوت بيوتًا: بل منازل. البيت هو الوطن السرمدي الدائم، أما المنزل فالإحساس بأنه مؤقت يصلح للنزول فقط يظل ضاغطًا، ولو لم تغادر المنزل أبدًا.

ولذا سما وشمخ إلى أعلى معنى البيت متجاوزًا الإحساس بالسكن والوطن إلى العنصر الإيماني ليكون بيت الله هو المسجد، ثم عندما يرد مجردًا (البيت) فإنه يصبح علمًا على الكعبة المشرفة. وبعد ذلك تتوالى قدرات لفظ البيت منتشرة في رحاب الحياة لتكون المرأة بيت الرجل، وعياله أيضًا، ثم استولى القبر ـ رعاك الله ـ على معنى آخر للبيت. ولم يلبث الشعر أن قام بتنظيم النثر وإقامة علاقات ذات وزن لغوي ليصبح له بيته الخاص، لكنك حين تجمع بيت الشعر فسيكون أبياتًا تاركًا البيوت للحياة، وتتسلل الرغبات الإنسانية (لم أقل الحيوانية) ليصبح لها بيتها المستور (بيوت الليل)، أما نحن فلنا بيوت النهار بصفتنا نبدو أطهارًا ذوي نوايا حسنة. من خيرة البيوتات في المنطقة كلها، البيوتات جمع الخلاصة يبدو فيها

التدليل والرفعة، تمامًا كما يقفز جمع الرجل فوق الرجال ليصبح ـ إن سمحت له ظروف اللغة ـ رجالات، إنها خلاصة الفخر الأعظم سوف تجدها مبثوثة في علوم التاريخ الإنساني بين أنواع من الأمم، ربما لم تحظَ بأي نوع من الرجالات ذات عصر، وهي صيغة أنثوية نقوم نحن السادة الذكور بإعلانها على هذا القياس ـ النادر ـ كي نحول دون صعود حريم البيت إلى ما قد يزلزل سطوتنا.

وفي لغات عدة ـ بما فيها من حضارات ـ سوف نجد أن مقطع «بيتنا» اللغوي يعني الفطرة أو البدائية النقية أو المدخل الأساسي، في المجتمع والأشعة والأدوية، ومع جهلي المطبق بهذه الشؤون، فلا يزال هذا الاستنتاج ناجمًا عن وجود «بيتنا» شائعة على الأفلام وآلات التسجيل والتصوير ومصطلحات حديثة في علوم النفس والكيمياء والطبيعة، إلا إن بيت القصيد ـ أي ذلك البيت الذي يفترض أنه يتضمن خلاصة القصيدة أو الهدف النهائي من المشروعات والمؤامرات والقوانين والعقوبات ودروس المدارس ـ سوف يظل عربيًّا خالصًا، حتى ولو شمل العالم كله في رواية الشاعر الهندي طاغور «البيت والعالم»، والتي يرجع بعضنا قيام رواية «ميرامار» لنجيب محفوظ تأثرًا بها، دون أن نتخلى عن مصطلحاتنا الخاصة حول «بيت العز» الذي نطلقه على بيوت بدأنا فيها حياتنا ـ مع غض البصر عن لفظ العز، لأنها الوطن، والإحساس، ومأوى المبيت ليلًا، احتماء من الأعاصير والمداهمات والقلق والخوف والتوجس، حتى لو كان هذا البيت العظيم الأثير الكامن في شغاف الروح هو ذاته مصدرًا لكل ما يرهقنا ويقلقنا، ويجعلنا نمعن في الوجود، إنها متعة لا حدود لها.

العداوة لا تزال مستعرة بين الشعر العربي الكلاسيكي، والشعر الحديث ثم الحداثي، مع أن النخيل لم يغضب حين ضمته مع النجيل قائمة النباتات.

*

إياك أن تمد يدك مصافحًا يد أنثى دون الإمعان السريع في عينيها، وماذا عن النظارات؟

*

قول الحق ولو على نفسك، بصوت عالٍ مسموع وليس بينك وبين نفسك، شجاعة أخرى.

*

لماذا لم تذهب للإدلاء بصوتك في الانتخابات؟ ولماذا أذهب؟ سؤال عربي خالص.

*

أجمل ما في الجهل أن يقيك الوقوع في الاطلاع على الدستور.

*

كثيرًا ما نضيق بالغيوم دون أن ندرك أنها تحمينا من صهد الشمس.

الحجر

في القلب.. والعين.. والحضارات

تصورت أنني أستطيع الدخول إلى عالم الحجر عن طريق تسلق الجدران، لكني فوجئت بأن الحجر يبدأ صفة للقلب، وأن من قلبه حجر يعني خلوه تمامًا من الرحمة والعطف. إنه البليد الجامد الذي ترمش عيونه مرة أو مرتين خلال الحرائق والصراخ وانهمار الحزن في الجوانح، والذي قلبه حجر يختلف ـ بالطبع ـ عن ذاك الذي يوصف بأن قلبه حديد لشجاعته وجرأته وقدرته الفائقة على مواجهة الرعب ـ دون انتفاء عنصر الإشفاق والتعاطف من وجدانه. وقد يرجع ذلك الاندماج بين القلب البليد والحجر إلى تلك العصور المبكرة التي هيمن فيها الحجر سطوة عليها: الرسامون ومبدعو التشخيص السينمائي لا يزالون يعبرون عن إنسان العصر الحجري بذلك الشخص كث الملامح والشعر، العاري، والذي يسحب جسد أنثى بالغة الفتنة من شعرها، لتنسحل فوق ظهرها على امتداد البسيطة الحجرية (أرجو أنك ما زلت تتذكر لفظ البسيطة بما يعنيه من الحياة في الدنيا المبكرة ـ وليست القائمة

الآن)، وكنت قد أيقنت ـ من نصائح أمي وإرشاداتها التي دامت أقل من مليون عام بسنوات معدودة ـ أن إراحة رأس الميت في منامه الأخير داخل مقبرته يجب أن يكون على الرمل الحنون. وقد رأيت وشاركت في «ترييح» عدد يفوق التصور الأدبي من رؤوس الزملاء والمعارف أثناء العمل في مشروع السد العالي بأسوان: كومة الرمل الحنون تصبح وسادة لراحة الرؤوس المرهقة ـ دون الحجر الصلب الجاف الذي يخلو من التعاطف. غير أن أمي سحبت تعليماتها الريفية خلال السنوات المرهقة التالية، فقد فوجئت بجثمان الشاعر العظيم صلاح عبد الصبور يدخل خطأ إلى مقبرته بقدميه مما جعلني أتدخل وبسرعة ليصبح طقس الولوج الجثماني ـ أو الجسماني ـ للراحة الأخيرة سليمًا، بعدها هالني أن أرض المقبرة نظيفة، خالية تمامًا من الرمل أو التراب أو أي عنصر حنون آخر، وظلت بضعة أحجار من الأركان ترمقني ـ وترمق تعليمات أمي ـ بنوع من السخرية. وفي حال اندفاع أحمق بالغ الحكمة حطمت بعض البارز من الجدران الهشة التي كانت قد أعدت سريعًا، ارتاح فارس الشعر الحديث مستلقيًا برأسه على كومة حزن ترابي عطوف، والأحجار المتناثرة تكاد تتحول إلى عملاء للمباحث يرصدون سلوكي. غير أن أمر قسوة القلب ينزاح للخلف ليترك للعين ارتباطًا شريرًا بالحجر، والذي عينه تفلق الحجر اعتقاد شائع بين الجماعات البشرية في كل القارات: من جليد الإسكيمو شمالًا مرورًا بأنواع الأجناس الآرية والسكسونية والحامية والسامية والبوشمن والهنود الحمر حتى الجماعات المتعلقة في دوائر نهايات أستراليا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية. إنه هذا الفرد ـ ذكرًا أو أنثى ـ الذي يدخل مكانًا ليرمق

في حسد المصابيح المتلألئة ـ كمثال ـ فتنفجر جميعها ـ واحدًا واحدًا ـ في انزعاج سطوة تلك العين التي تفلق الحجر، ويذهب ضحيتها ـ في حوادث فردية لا تُنسى ـ أبقار وغزلان وعرائس ليلة الزفاف، مع عدد لا يستهان به من العيال الناجحين في المدارس. لكن ذلك لم يطف في بال «شمبليون» ـ ذلك الفرنسي القادم من جرنوبل إلى بلادنا، فتى عالمًا ذا عيون ثاقبة ليفك طلاسم اللغة الهيروغليفية عن طريق اختراق نقوش حجر رشيد خلال عامي ٢٨ و١٨٢٩، لتنزاح بعد ذلك أسرار أحجار الهياكل القديمة وتفيض بأسرار حضارات مصر وبابل والفينيق والرومان والإغريق والفرس. لكن هذا العالم الفرنسي ذا الذكاء المتوقد لم ينتبه إلى حجر الزاوية في مجازات لغاتنا الفصحى والعامية، والذي يقصد به «مربط الفرس» أو النقطة الأساسية في منطق الأمور، والذي يأخذ تشكيله البدائي ـ والفطري ـ في ذلك الحجر الذي تعودنا أن يضعه أهلنا على رؤوس المساحات لقياس نصيب كل فرد عند الميراث أو البيع أو التصالح، وربما كان حجر الزاوية قادمًا من أثر الحجر الأسود الشهير الذي وضعه النبي إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام في الركن الشرقي من الكعبة عندما رفعا قواعدها. وقد أعاد النبي العظيم محمد صلى الله عليه وسلم وضعه حين أعادت قريش بناء الكعبة، والذي يرمز لحكمة الرسول الكريم في فض الخلاف وإشاعة السلام بين قبائلها التي كانت تتسابق على شرف وضعه، والذي ـ هذا الحجر ـ تبدأ من عنده مناسك الحج بالطواف حول الكعبة المشرفة.

بعد ذلك، يصبح المرور على الأحجار الأخرى مجرد خطوات تؤدي إلى حجر الأنابيب الذي يستعمله الهنود الحمر في صنع غليون

التدخين، والأحجار الجيرية والرملية والنارية (الجرانيت والبازلت). ثم هناك أنواع من الحجر السماقي ـ أي الإمبراطوري ـ والديوريت، وأنا مثلك الآن ـ تمامًا ـ لا أعرف الفرق بين كل تلك الأحجار. أليس من اللائق الآن أن نتوقف عن تحريك الأحجار خشية ظهور العقارب، فنعود إلى فكرة تسلق الحوائط؟

كلمات لها معنى

أجمل ما في النوافذ ـ حين تنفتح ـ أنها تكاد تشبه ابتسامة الشفتين.

*

كنت أحدثها عن مشاكلي مع زوجتي الرابعة، وعندها همست لي أنها متأكدة أنني لم أتزوج سوى واحدة: بدأت عيناها تفسحان مساحة للزوجة الخامسة.

*

الصبر: سلوان النهار وعجز الليل.

*

واحد من الزملاء كتب عني ليرصد كمية الدم التي تتدفق في قصصي، مع أني لم أعبر بعد عما يدور في جمجمتي.

*

معلومات نراها ونغض البصر حرجًا: في جدول الفلزات ستجد الذهب بجوار الزنك والخارصين والألمونيوم، لا أقصد ـ بالطبع ـ جدول اتحاد الكتاب.

الجيب

بين قيس وليلى وجيب الزاوية وسقوط الإمبراطورية الرومانية

الرجل لا يعيبه سوى جيبه، وهو مثل شعبي عربي وإن بدا مصريًّا، حيث تجد صياغة له في الشام والمغرب والخليج العربي والسودان: خاضعة لنفس المعنى الذي وضع القدرة الاقتصادية في الموقع المؤثر الأول والأخير. وهي مبالغة ـ كما تعودنا في الأمثال الشعبية ـ تقع في موقع التناقض مع عناصر عديدة أخرى ـ أخلاقية وبدنية وعقلية ـ تجعل الجيب يتراجع عن قوته وتأثيره: مع أننا كثيرًا ما نؤيد الجيب من واقع التجارب التي نقوم بها نحن والآخرون، ومأساة قيس بن ذريح الذي عشق لبنى بنت الحباب، وتزوجها ـ رغم ندرة الذين يتزوجون من حبيباتهم في كل العصور، إلا إن والديه ظلا يضغطان عليه حتى طلقها دون أن يكون لجيب قيس دخل في ذلك، وقد سبقتها كارثة قيس بن الملوح: مجنون ليلى بنت المهدي حبيبته التي اخترقت روحه لتنصهر شعرًا وشوقًا وشجنًا وحكايات وروايات وأفلام سينما ثم

تلفزيون مع عدد من النصوص المسرحية عبر الزمان الغابر والحديث، إلا إن قيس صمم أن يظل عاشقًا ينسل إلى بيت حبيبته دون اهتمام جاد بتزوجها مما جعل حكايتهما تتحرك فوق كل الألسنة عبر الصحراوات حتى ذهب عقله وهام على وجهه إلى أن مات. هل قام الجيب ـ أي القوة الاقتصادية ـ بتعويق قيس كي يكون له أسرة؟ لاحظ أني متأكد أنك لو حللت لقيس ـ هذا ـ كل المتشابكات، وأزلت له كل العوائق: لما استطعت أن تنقذه من جيب الجُب العاطفي الذي سقط فيه، والجب هو البئر ولا دخل له بالجيب إلا في الصدى الصوتي. أما ما ورد في الأثر عن شق الجيوب حزنًا وانفعالًا فإن المقصود بهذه الجيوب: الفتحات التي ندخل فيها رؤوسنا ورقابنا كي نرتدي القمصان والجلاليب. ومن المؤكد أن الجيب ـ الذي نقصده ـ دون إدخال الرؤوس والرقاب: يتنوع ويختلف من ملبس لآخر، ومن دولة لأخرى، وبين القوميات المتعددة في الوطن الواحد، إذ لا يزال ـ مثلًا ـ الجيب السفلي الطويل في الجانب الأيمن من الجلباب ـ دون الجانب الأيسر، وفي أعلى يمين الصدر سوف تجد جيبًا صغيرًا طوليًا يصعب اختراقه إلا بأصابع صاحبه: جيب الساعة، ومع الساعة الدائرية المصنوعة ـ كما هو معروف ـ كي تنزلق في هذا الجيب العلوي: يمكن أن تضع بعض النقود. ومن الغريب أن الجيب السفلي كان يُسمى «السيالة»، وقد حاولت العثور على هذه السيالة في المعاجم دون جدوى، غير أني لم ألبث أن وجدت كوبري ـ أو قنطرة ـ السيالة التي تربط مدينة القاهرة بحي الروضة والمنيل غربًا، والسيالة هنا تعني الانسياب في الحركة والتعامل، لذا فقد أصبح الجيب السفلي في الجلباب العربي: سيالة.

وبالطبع: لن تستدرجنا علوم الهندسة لنثبت لكم أننا نعرف الكثير عن جيب الزاوية، لأن الأخطر من ذلك هو الجيوب الأنفية (أنفاق الأنف) التي تلتهب احمرارًا بتأثير أمراض البرد والأنفلونزا، كما أنها ـ هذه الجيوب الأنفية: أكثر الأعضاء الحية حتى لو لم تكن عضوًا كاملًا تصادمًا مع الزوجة والجيران وضباط الشرطة واللصوص والمدرسين والملاكمين ـ دون استبعاد ما يحدث بين الحين والآخر لجيوب أنوف المجالس النيابية: آخرها كان في تركيا فيما أعتقد، ثم أنوف الخراف (الكباش أفضل)، ثم الجيوب الأنفية لقردة الجيبون: أصغر القردة العليا الشبيهة بالإنسان، ذات جسم رشيق وذراعين طويلتين تمتدان ـ بمجرد التصارع ـ إلى جيوب الأنف. وما كدنا نقع ـ ونحن نسير على حافة الجيوب ـ على الجيبون حتى ظهر لنا «إدوارد جيبون» المؤرخ الإنجليزي ذو الطفولة السقيمة، لم يدرس دراسة منظمة لكنه كان شديد النهم في القراءة، وقد قام بكتابة مجلدات أخطر ما ظهر في القرن الثامن عشر «قيام الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» في ستة مجلدات، وحظي بالمجد دون اهتمام بشكل «جيبون» غير الوسيم والمثير للسخرية.

وقد وقع الجيب في إشكالية عصرية حينما ظل هو الموروث منذ عصور ما قبل التاريخ، في جميع أنواع تشكيلات الملابس: حتى الآن، إلا إن السيارة الجيب اقتحمت الجيوب العصرية لتستولي على اهتمام معروف، مع أن إطلاق الجيب عليها يرجع إلى مصممها الذي اهتم بنوع من السيارات القادر على اجتياب الصحاري، والمناطق الممتدة خارج الكثافة السكانية. لكننا استبعدنا «جيب» المصمم،

أو «جيب» النموذج، لتصبح السيارة ـ لسهولتها ـ خفيفة كأننا سوف نضعها في جيبنا، إن هذا مريح لنا على أي حال، لكنه قد يؤدي بنا إلى التعرض لكلمة «جب» وهي الاسم المقدس للأرض عند قدماء المصريين ـ وجب مصوغ داخل اللفظ اللاتيني الحديث «ايجبت»، وقد تخيلوها ـ هذه الأرض ـ في هيئة رجل مستلق في غير استواء، لاحظ أن ثمة تمثالًا يخضع لهذه الصفات في أوروبا يطلقون عليه «النيل». أما «هاملتون جيب» فهو مستشرق إنجليزي وكان أستاذًا للغة العربية بجامعة أكسفورد البريطانية، كما أنه كان عضوًا بمجمع اللغة العربية، وعلينا الآن أن نغلق الجيوب التي قد تنفتح ـ دون أن ندري ـ ويسيل منها ما عرفناه عنها.

كلمات لها معنى

في القرون الأخيرة بدأت الأرانب تتفاخر بآذانها الطويلة، وهي ترمق الخيول في تكبر.

*

البلاد المرسومة في كتب المدارس مثل الجهاز الهضمي الموجود في ذات الكتب: باردة لا روح فيها.

*

عدد كبير من أهلنا يموتون في الصباح، إننا نتستر على موتهم ليلًا كي نمنحهم إشراقًا أخيرًا.

*

جراب الحاوي يحوي عددًا من أدوات الحيل والألاعيب التي تكاد ـ كلها ـ تتجه نحو السياسيين.

*

لماذا كانت جدران البيوت في القرى تصلح للاستناد عليها للراحة دون حوائط المدن: مع أنها الأقوى والأنظف.

*

لفظ واحد مؤكد يجمع بين التباحث (أي المباحثات) والمساومات، إنه الحزن العميق.

الصحن

ظلت الإنذارات التربوية التي كانت أمي توجهها لي كي أصبح صبيًّا مهذبًا تحمل الإيعاز لأبي حتى يصحنني، أي يطحنني طحنًا، ومن كثرة هذا الإنذارات غير المؤثرة تحول استخدامها للصحن بما لا يتجاوز شكل صحن الطبيخ. فلم نكن نستخدم لصحن المأكولات لفظ الطبق الذي اشتهرت به المدن، إنما كان الطبق - في معجم القرى - يعني هذا التكوين الواسع المصنوع من خوص النخيل ويحمل في ساحته الخبز (البتاو والرغفان أي الأرغفة) في معظم الأحوال.

ومع أن الصحن يحتل موقعًا جيدًا في صحن القاموس العربي، فإن النص الأدبي الخاص بنا لم يتحمل - ولم يتضمن - صحنًا واحدًا حتى الآن، ربما لأننا نشم في مكوناته رائحة العوز الشعبي المبكر. وقد طردته البيوت خلال تقلصها إلى شقق محدودة التكوين، كما أن القصور (والفيلات والشاليهات أيضًا) لم يعد بها صحن البيت: هذه الساحة المركزية التي تطل عليها جميع مكونات الدار ولا يعيش

فيها أو يرتادها سوى الأهل والأقارب، ويؤمها المصلون إن كانت في المسجد أي صحن المسجد.

وبين صحن الدار وصحن الطبيخ وقف القدح الكبير شامخًا على بوابة أشهر القصائد العربية القديمة ليعلن عمرو بن كلثوم التغلبي موقفه الأثير:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمـور الأندرينـا

وذلك عندما أراد عمرو بن هند ملك الحيرة أن يجعل أم شاعرنا تخدم أمه، فأنف الشاعر وفتك بالملك وهرب، ويقال إنه وصل في عمره إلى مائة وخمسين عامًا، وكانت قصيدته هذه تشع بالكبرياء والمفاخرة التي ظلت ترددها تغلب لتصبح ملحمتها الخاصة حتى استقرت ـ خلال كل القرون ـ في صحن دماغنا منذ دخولنا للمدارس المبكرة حتى الآن، إلا إن الأمور شابها ـ في الدماغ الثقافي العربي المعاصر ـ اضطراب وقلق: بعد أن تحول صحن الدماغ إلى مطحن تنهرس فيه أجزاء ودقائق من الثقافات الوافدة إلى ساحة العقل من أوروبا وأمريكا ـ أمريكا الجنوبية، وأصبحت المراجع الغالبة ـ في الإبداع ـ شديدة الانصياع إلى تأسيسها وتجذيرها تحت سطوة الغرب. إنها تجاوزت دوائر المعرفة الراقية إلى الامتثال والمثول للوجبات السريعة التي لا تحتاج إلى صحن ـ أو طبق ـ في أغلب الأحوال.

وفي مناطق من وادي دجلة والفرات ـ بين العراق وسوريا في الأغلب يصنعون «الصحناة» المعدة من السمك الصغير (أو الكبير بعد تقطيعه أجزاء صغيرة) لتغمر بالماء والملح أيامًا حتى تتهرأ،

بعدها تصفى وترفع ليتم حفظها في الصفائح أو البلاليص (جمع بلاص) لتصبح الصحناة بعد ذلك طعامًا له مذاقه الخاص. ويقول داود الأنطاكي في «تذكرته» الشهيرة إن الصحناة هي «الملوحة» المصرية، وأكلها «يجفف الرطوبات ويذهب البخر ونتن الإبط» وهي الأمراض المنتشرة الآن في شكل «الأوديما» والمسائل الأخرى التي نتهامس بها عن الآخرين ـ والأخريات أي الإناث بالذات، الزنجبيل يساعد الصحناة في أداء مهمتها بطريقة أسهل وأسرع، دون اهتمام بورودها في المعجم اللغوي صحناء وليست صحناة.

إلا إن أمر الصحن يتجاوز ساحات الديار وصحناة السمك وقدح عمرو بن كلثوم ليصبح الصحن هو الأرض الواسعة المنبسطة لا شجر فيها، ثم لا يلبث أن يتقلص ليصبح الصحن خاصًّا بالأذن ـ أي المنطقة التالية لفتحة الأذن وجمعها هنا: أصحان. أما الصحنان فهما الطاستان الصغيرتان اللتان تضرب إحداهما على الأخرى في أصابع الراقصات أو ضابطي إيقاع الموسيقى، ثم لا يلبث المشاكس الرفاس من الخيول أن يجتاز على لفظ الصَّحون ـ بفتح الصاد، فإن أردت أن تعود إلى المائدة ـ أو الطبلية ـ القديمة ذات المأكولات التي هجرناها فسوف تجد أن المصحنة هي القصعة، أي الإناء الواسع الذي يحمل العصيدة والفتة، حاول أن تستفيد من ذكريات الأواني التي حاصرتك أيام صبيانيتك أو أي مرحلة صبيانية مر بها أهلك.

وقد ورد في أخبار المواقع المهلكة ـ مثل مذبحة المماليك ـ أنها

كانت مصحنة، أي أنها هرست عظام المماليك في شراسة دموية لتنسحق في إناء التاريخ.

وهي خاتمة غير مريحة كنا نتمنى أن نستعيد فيها بعض أبيات عمرو بن كلثوم ليظل صحن الموضوع يتألق بتكوينات غذائية ـ أو عقلية ـ تستبعد مثل هذه المصاحن من ساحة الفؤاد.

كلمات لها معنى

أخيرًا أفصحت عن أجمل ما أتمنى: موزة من لحم الضأن وسلاطة خضراء وبيضاء، ثم هواء طلق على حافة النهر مع حبيبتي، لكنها اعترضت في مرارة على حافة النهر والهواء الطلق.

*

الفخ: أن يصمم صديقك الذي تعاطف معك على ألا يسمح لك بالخروج من حفرة هذا التعاطف.

*

الرغبة في السفر والترحال ليست امتيازًا لنا نحن البشر، ولا للحيوانات والنباتات، تلال الرمال ترتحل أيضًا.

*

الحب الجميل يفقد ذكاءه إذا ما اتسع أكثر مما يجب.

*

مرة أخرى: نقطة القوة فينا تصبح، وبسهولة مرعبة، نقطة ضعفنا.

*

نامت السيارات في الشوارع، وظللنا نحن وراء الجدران، ولذا فنادرًا ما تصاب السيارات بالأمراض النفسية.

الخُبز.. إلى الأبد

ظللت أمعن في كفوف أمي وهي تحرك أصابعها ـ في انقباض وانفتاح ـ بين تكوينات العجين لتصل بالكتلة إلى مرونتها المناسبة تمهيدًا لتدخل إلى الحركة التالية على المطرحة أمام فوهة الفرن. وعندما يتشابك أوار النار مع الدخان معلنًا قبول الفرن لتشكيل الخبز ـ مع هدوء اللهب ـ تكون المطرحة ـ هل تذكرها؟ إنها الأداة التي تتراقص فوق ساحتها قطعة العجين ـ قد أخذت دوراتها المرنة المتوالية، تلك التي استغرقت من عمر الإنسان ملايين الأعوام: حينما بدأت أصابع الإنسان تعرف وسائل جمع سنابل القمح والشعير والشوفان، وقناديل الأذرة والبطاطا كي تتحرك بها مخترقة عصورًا حجرية ـ قديمة وحديثة ـ وبرونزية أو نحاسية، ثم عصور الحديد والكلام والموسيقى، حتى تطل بها على الأفران الذرية ذات المجالات الإلكترونية ذات الأثر الواسع، والرهيب أيضًا، دون أن يمنح علماء تاريخ الإنسان عصرًا يمكن أن يطلق عليه «عصر الَخبيز» مع أنه توازى مع كل العصور.

ومن الغريب أن الخبز ـ مهما اختلفت وسائل إعداده ـ يظل عاملًا مشتركًا مهما تباعدت الجماعات البشرية في المكان أو الزمان أو كليهما: عند المصريين أو الفرس أو الفينيقيين أو البوشمن (جنوب أفريقيا) أو القبائل الاسترالية والهنود الهنود أو الهنود الحمر، أو بواكير العرب في الصحراوات أو التجمعات المتحركة التي أصبحت قرى ومدنًا ثابتة لها تأثيرها المعروف في الحضارة الإنسانية، وهو ما اختصرته مواصفات العروس (العروسة أفضل) حينما كان الاختيار يقع عليها لأنها تجيد الخبيز ـ دون التفريط في مواصفات الترشيح لتكون زوجة ذات أصل وأخلاق وأرض وعقار أو متاع لتصل إلى أهمية عنصر الجمال الأنثوي آخر الأمر ـ يمكن إضافة التعليم الآن.

والخبز، في حالته اللدنة الجميلة كان ـ فيما أزعم دون اهتمام بكتب المؤرخين ـ هو «البتاو» الريفي المصري والخبزة الصغيرة المستديرة عند البدو، وهذه الخبزة هي التي تقدمها طقوس المسيحيين متسمة بصفة الرحمة في بعض أعيادهم، كما أن الخبزة ـ أيضًا ـ لا تزال هي الهبة الممنوحة للجوعى العابرين على الأديرة في الصحراوات. لكن الأمر يتحرك بالبتاو والخبزة إلى تكوينات تخترق العصور لتصبح أرغفة شمسية ـ أي تلك التي تترك لضوء الشمس فترة على المقارص (أي القواعد الخاصة بها) حتى تصل ـ بنوع من التخمر إلى قوام يساعد في اكتسابها لذة لم يعد العصر النووي القائم يأبه بها، أو في أنواع من الكعك البدائي الدائري الذي ظل أحقابًا هو القربان الأساسي في طقوس

زيارة المقابر والمقامات وبيوت الأقارب، أو العطف ـ في الصباح المبكر ـ على الفقراء. وهذا الكعك ظل العملة المصرية الريفية ـ بمختلف أحجامه ـ أيام المواسم والأعياد التي نحصل بموجبها على السماح لنا بامتطاء الخيول الخشبية والمراجيح، أو المشاركة في متعة الفرجة على الغوازي الفاتنات المتراقصات على أنغام الطبول والربابة والأرغول والمزامير الشجية ذات الشجن الهادئ ـ بين رقصة وأخرى.

ولم يكن مدهشًا ـ ولا مطروحًا للمناقشة ـ أن تجد أمامك دعوى طلاق لأن الزوجة ـ أو العروسة في أغلب الحالات ـ لا تجيد الخبيز، وكأن القضاة الذين ينتمون إلى المدن دون القرى ـ يحتاجون إلى الوقت يتهامسون فيه كي يقتنعوا بأن ذلك يصلح سببًا لمثل هذه الكارثة، حتى إن إمبراطورة فرنسا ـ زوجة «لويس السادس عشر» ـ قد أطلقت تعليقها شديد الجدية على الجماهير الفرنسية الثائرة جوعًا بسبب عدم توافر الخبز، حينما قالت: ولماذا الخبز؟ فليأكلوا البسكويت. دون أن تدري أن البسكويت ـ في تلك العصور المطلة على العصر الحديث ـ كان أرقى تكوين للخبز وصل إليه البشر في العالم كله. وفي بلادنا العربية كانت رائحة البسكويت التي تخترق الخياشيم في عذوبة مثيرة لحواس الشم ـ هي المفتتح الحقيقي لصباحية الزفاف السعيد، والإيذان للأقارب والأصدقاء كي يضعوا النقوط المناسب (أي الهدية المالية الجميلة) بين تلال البسكويت ـ الرمز الحقيقي لقدرات العروسة وعائلتها وأصولها وصحة اختيارها، وهو ما لم تقع فيه

«ماري انطوانيت» ـ المشار إليها ـ لعدم مرورها في مراحل الخبيز الأخرى السابقة على البسكويت، والتي أدت بها إلى المقصلة الفرنسية ـ أعوذ بالله ـ والتي يظل شاهدها المؤلم يحول بينك وبين متعة الركون إلى دفء فرن شتوي قد أدى مهمته في تقديم الخبز الساخن لك وللعيال الذين يتقافزون حولك ـ أقصد حول الخبز ولو لم يكن كعكًا أو بسكويتًا، أو انتهى أمرك ـ شخصيًّا أو عائليًّا ـ إلى تلك الوجبات العصرية ـ والسريعة ـ التي لم تستطع أن تتخلى عن الخبز.. حتى الآن، وللأبد!

كلمات لها معنى

الفرق بيني وبينك أنني لا أزال أستقبل الصباح، فانخفضت في جوانحي عوامل المكر والدهاء.. والتآمر.

*

السلطات الحاكمة ـ في كل أنحاء العالم ـ لم تصل إلى ما هي عليه عبثًا، دعك الآن من قصائد الشعر التي تراقصت حول أقدامها.

*

يا ليل الصب متى غده، البعض فهم الصب على أساس أنه صراف المرتبات.

*

لا تزال الابتسامة أهم وسائل تمهيد ورصف الطرق.

*

كل هذا التجديد والتطوير في مختلف أنحاء الحياة، ثم تنزعج لأن العصر الحديث تلازمه جرائم وفواجع لم تكن معروفة من قبل.

*

توقف الكلاب عن النباح عندما تنحني.. لتأكل.

الجَمْر

ظلت الجمرة المتقدة ـ والتي كان فرن الخبيز الريفي مغرمًا بالمحافظة عليها في أحشائه تحمل الإنذار الدائم لي بالنهاية المؤكدة خلال الشرور الصبيانية في القرون الأولى من عمري. وكانت أصابع أمي شديدة المرونة حينما تزيح هذا الجمر تمهيدًا لخروج الإناء الفخاري (البرام) المفعم بالعدس الملتهب كي نبدأ صباح الشتاء القارس، وبين جمر الفرن وجمار النخيل استمرت عصافير البطن ـ أي الجوع، وعصافير السماء ـ أي الخيال: تصنع عالمًا متداخلًا في كل أنسجتي بين المدرسة والبحث عن عمل والسفر والكمون والإشراق والشجن والرؤى وانسياب الموسيقى والقلق والصمت والهياج الأحمق. وجمَّار النَّخلة هو قلبها وموضع الطلع وبوادر خروج الجريد والسباطات من المكمن، تكوين أبيض غض له حلاوة خفيفة، سهل القضم علاجًا لأوجاع الصدر والسعال. وفي كتب الطب القديم أن جمَّار النخيل يدفع ضرر الأنبذة (الجمع المخفف للخمور) وهزال الكلى، ثم إن هذا الجمَّار يولد الرياح في البطن

فلا يساعد على الهضم، ويؤدي ـ آخر الأمر ـ إلى نوع من الوسن أو التكاسل أو استمرار التثاؤب وفقدان النشاط، الجملة الأخيرة من عندي، ربما يكون وراءها ما كان يصدر من إرشادات ذوي الخبرة للعرسان الجدد ألا يقربوا ـ ليلة الفرح الميمون ـ السمسم والباذنجان المخلل والغضب ـ أي الانفعال الشديد ـ والجميز وجمَّار النخيل والديون ونعيب الغربان.

لكن الجمر يعود فيثير الالتهاب المتوقد في «القمين»، والقمين ـ كما أنك تعرف بالطبع ـ وكما جاء في المعجم: الموضع الذي يرص فيه الطوب النيئ ـ أي اللَّبِن ـ ويحرق ليصير آجرًا، والآجر هو الطوب الأحمر، وما كان للقمين أن يرد هنا ونحن مشغولون بالجمر، لولا أن الناس في قريتنا يطلقون على هذا القمين: القمير، ولما كانت القاف والجيم لهما اشتباك معروف في اللهجات العربية، فقد اعتقدت أن المقصود القمير: الجمير، أي الملتهب بالجمر الكثيف، والذي يشاهد هذا التكوين الجمري الضخم، والذي يفح بحرارة تنذرك برائحة جهنم، سوف يستبعد ـ بالإحساس على الأقل ـ أي اسم سوى القمير أو الجمير دون القمين. مع أن ذلك لم يرد في أي كتاب لغوي ـ معجمًا كان أو بحثًا ـ على الإطلاق، فهل يمكن أن يؤدي بنا ذلك إلى اعتبار أن العيش المقمر الريفي الشهير جاء من الجمر أيضًا؟

وعندما يتفتت الجمر ليصبح جمرات فسوف يكون غير مريح أن نتذكر تلك الجمرة ذات الالتهاب الحاد والتي تصيب الأنسجة التي تحت الجلد ـ ثم تظهر في الجلد ذاته مسببة ألمًا لا يطاق، ويكثر

حدوثها في الظهر وخلف الرقبة والأفخاذ. وعند ظهورها يجب أن يُعطى علاجها اهتمامًا مكثفًا بسبب خطورتها المعروفة بأنواعها الثلاثة: الخبيثة (وتحدث عادة ـ كما ورد في الموسوعة العربية بين الجزارين ـ أي القصابين ـ والفلاحين والبيطريين والدباغين ـ أي العاملين في مجال دباغة الجلود ـ وقد تنتج هذه الجمرة الخبيثة من استعمال فرش الحلاقة المصنوعة من شعر الحيوانات الملوثة بالجراثيم)، ثم الجمرة الرئوية والتي تنتج الإصابة بها من السبب السالف بالإضافة إلى استعمال الجلة الشهيرة في الريف المصنوعة من إفرازات البهائم. والجمرة الثالثة هي تلك التي يلتهب بها دماغ بعض الموهوبين في الأدب والفن: سعيًا للشهرة والذيوع بأي وسيلة، ويمكن التماس ظواهرها في اقتحام مجالات إبداع لا يجيدونها، والتصميم على نقل مقعد من الخلف كي يجلسوا ـ عنوة وقسرًا ـ في الصفوف الأولى للمؤتمرات واللقاءات والحوارات، والمجاملات المادية الفاضحة لمن يرون فيهم فرصة أن يشيروا إليهم في الصحف والمجلات والأحاديث المذاعة. ومن شدة التهاب هذه الجمرة في جماجمهم يطالبونك ـ علنًا ـ بأن تذكرهم في مقالاتك ولو من مدخل انتقادهم والهجوم عليهم.

إلا أن الجمر يسبقه الحمر ـ بالحاء ـ في تكويناتنا اللغوية الشعبية: حمري جمري في صيغة الأمر بالإنجاز السريع، أي بالعجل، وبسرعة ـ تتجاوز الدقة الواجبة ـ أو دون مراعاتها. كما أن الزواج المتعجل الذي يداهمه الفشل السريع يوصف عادة: زواج حمري جمري، وكأن الزواج المتأني ـ فيما يزعم الحكماء الذين يبدون

ذوي تجارب ـ يؤدي إلى الفردوس الرومانسي المأمول، مع أن العروس ـ فور أي نوع من الزواج المتمهل أو الحمري جمري ـ لا تلبث أن تجمر شعرها، أي تجمع شعر رأسها الذي كان ـ قبل هذا الأمر المشار إليه ـ منسابًا هفهافًا، حيث تعقده في قفاها ولا ترسله، دون مبالاة بأن الإنسان ـ أو الحيوان ـ حين يجمر فإنه يسرع سيرًا، لكن الليلة إذا أجمرت فإنها تتلألأ عندما تطول فيها مدة ظهور قمرها، وأخطر ما يمكن أن يواجهك ـ في ليلة جمراء قمراء ـ أن تقضيها وحدك.

والجِمار ـ بكسر الجيم ـ موضع رمي الجمرات الثلاث بمنى كما هو معروف في مناسك الحج، أما الجمر البركاني فهو المقذوفات البركانية الملتهبة ذات الأحجام الصغيرة جدًّا، فإن تضخمت وتداخلت في درجات السيولة أو الانصهار فإنها تصبح الحمم، غير أن أمورًا غامضة حدثت فأحالت للجمرة معنى الظلمة الشديدة، وما بين الالتهاب والظلمة أصابني اضطراب حين اتضح لي ـ في المعجم الكبير ـ أن جمرات العرب ثلاث: بنو الحارث بن كعب، وبنو نمير بن عامر، وبنو عبس (أهل عنترة الشهير)، وزاد عليها بعض مؤرخي القبائل جمرتين، ولو كنت منهم لأضفت قرنًا من الجمرات في العصور الحديثة حيث أصبحت قبائل ومناطق وأقاليم في عدد واسع من بلادنا العربية مجامر ملتهبة بالقلق، مما يدفعنا للهروب إلى الجمارك بصفتها ترفع لواء الضغوط المعاصرة في الموانئ، والتي تعج بجمرات التهاب العصر: أي الممنوع والمصادر من بضائع نعرفها ولا نميل إلى توضيحها. وإن كانت جمرات الأفران ـ أو

حتى البراكين ـ تثير الخيال الممتع بها لتحمل ـ في الأفق ـ إشارات الرغبة العارمة للرجوع إلى برام العدس المجمور في الفرن القديم، الذي لا يزال يفح بحمم ـ أو جمرات الذكريات.

كلمات لها معنى

المجال المغناطيسي يصبح قوي الجذب حين تسبح في مجال
أصوات الأوراق المالية.

❋

أي إصابة بالمخ تعوق كل الجسد، لكن ما يعوق المخ مباشرة:
الجوع أو الحقد.

❋

كانت أمي تمعن بعيونها في صفوف الكتب، ثم تحركها في بطء
نحوي مع إغلاقها تمامًا حين تواجهني.

❋

المعضلة الكبرى أن أبناء المدن لم يشهدوا طائرًا ـ عصفورًا كان أو يمامة ـ عندما يظل طوال النهار يسعى ويطير ويحوم ليعود بعود من القش لينشئ في دقة معجزة هذا العش فائق التنظيم.

اللحم

لا يوجد في أنحاء أقطارنا رمز للكرم والجود يعلو على اللحوم ـ مختلفة الإعداد والتجهيز والتحمير والشيِّ والسلق، مع قليل من الابتسامات الهادئة، والتي يمكن أن يضاف إليها نوع من الحفاوة الدافئة لو تم هذا الكرم تحت عناية أنثى. وما زلت أتساءل ـ دون أي جواب ـ لماذا تحتل اللحوم هذا الموقع المتميز فوق المائدة الإنسانية (الشرقية بما فيها العربية بالذات)، مع كل الهجوم الضاري على ما تسببه اللحوم من أضرار في الجسد الحي. ومع كل محاولات أجهزة الإعلام والتدريس والإرشاد في رفع شأن الأسماك والنباتات لتحتل الموقع المؤثر في الجهاز الهضمي البشري، إلا إن أطباق اللحوم لا تسمح لكل هذه المحاولات ـ أو المؤامرات ـ بأن تزيحها من ساحة المائدة أو الطبلية أو حتى الشطائر (الساندويتشات) السريعة المعاصرة. ولعله من المناسب أن نشير هنا إلى أن كثيرًا من مجتمعاتنا لا تزال غير قادرة على تقديم الأسماك ـ دون لحوم الحيوان أو الطير ـ للضيوف، وليس صعبًا أن تفاجأ بتقييم أو تثمين

وضعك الاجتماعي للقادمين، يبغون مصاهرتك من تضاريس اللحوم المقدمة على ساحة كرمك، الحيوانية أولًا ثم لحوم الطير. أما السمك فسوف يدمر نتائج المباحثات تدميرًا لا علاج له، مهما حاولت أن تبدو مثقفًا مراعيًا القواعد الصحية التي يجب أن يلتزم بها عتاة وجبابرة المتباحثين.

والحيوان النباتي ـ الذي لا يستسيغ ولا يقبل أن يأكل اللحوم، ولا حتى الأسماك ـ أكثر وعيًا وامتدادًا في الحياة من غيره: الأفيال والبقر والحمير والخيول والغزلان والأرانب والجمال والأغنام والماعز والمتخصصون في الدراسات الغذائية وكبار قادة الأمم الناهضة: غاندي لم يذق اللحوم أبدًا، وهناك من يرى في القادة المتهورين الحمقى الذين يقومون بأفعال مدمرة لأممهم ـ والأمم المجاورة لهم ـ أنهم نموذج لمدمني أكل اللحوم. وقد لاحظ أحمد حسنين ـ الرحالة المصري الذي اخترق الصحراء الغربية واكتشف بعض الواحات غرب مصر وجنوب ليبيا ـ أن الحيوانات آكلة اللحوم، مثل الضباع والثعالب والذئاب، تعيش طويلًا حتى تصاب بوهن وضعف الشيخوخة، إذا ما ظلت في الصحراء المجدبة القاحلة التي تعاني فيها ـ هذه الحيوانات اللحومية ـ من ندرة اللحوم، وأن أمثالها من النوع نفسه حينما تقترب من الوديان ليتيسر لها الحصول على لحوم الدواجن والضفادع وطيور المزارع والحقول لا تعيش طويلًا. ولذا فمن الملاحظ ـ بالنسبة لنا نحن محدودي التجربة ـ أننا كثيرًا ما نجد الحيوانات المفترسة المشار إليها، وقد نفقت وأصابها الموت الفجائي أو البطيء، خلف أسوار

المذابح والسلخانات حينما كانت تقام خارج التجمعات السكانية، حيث كانت بقايا الذبح والسلخ غذاء وفيرًا يقصر أعمار المستفيدين منه: الإنس والحيوانات.

غير أن اللحم ظل مخترقًا كل الأزمنة بما فيها من نصائح وتعليمات ليحتل الموقع الغذائي المؤثر الأبدي الخالد، حتى إن الالتحام تولدت منه عوامل الالتئام، واللاحم الأعظم في الذهب والفضة هو الصائغ، والحكيم يلحم الأمر: يحكمه ويصلحه، ولحم بالمكان: أي أقام فيه طويلًا، فإن التحم الأمر بين شخصين فإنه يعني الاتحاد المعنوي أو الجسدي (وما في ذهنك حول هذا الالتحام صحيح وإن كان محرجًا) أو يعني هذا الالتحام: الوصول بالصراع إلى تصادم دموي، رعاك الله دون الوقوع في هذا الالتحام. فإن اتصف الجرح بالالتحام فإن ذلك يعني - مباشرة - الوصول إلى طريق البُرْء والشفاء، وقد نجح اللحم ليكون المعنى الأعظم للوشاية والنميمة وإيقاع الأذى بالآخرين اغتيابًا: «أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ»، وفي كثير من معتقدات الناس - حتى الذين لم يصدر في دينهم نص واضح بالتحريم - أن لحم الخنزير أو الحلوف يحمل أنواعًا من الخلايا والتكوينات المؤثرة في النفس الإنسانية: ربما المقصود بذلك الأعصاب والمخ. ومع ذلك فإن ظاهرة انتشار هذه اللحوم مجففة ومتبلة ومصنعة بشكل يمنحها قدرة على المقاومة لتظل قابلة للالتهام، تثير الكثير من الاندهاش، حتى إنها - لحوم الخنزير - تسللت إلى مجتمعات يقف فيها النص الديني ضدها وقوفًا حازمًا، الدين الإسلامي بالذات، وهذه اللحوم

لا تجد لها موقعًا في القرى والمناطق البدوية، بعض المدن تغض البصر عن ذلك دون حرج.

أما بيت لحم فهي بلدة فلسطينية يقال إنها مسقط رأس النبي عيسى ابن مريم، ويطلق عليها أحيانًا: بيت الخبز، أو بيت داود، ويعتمد سكانها على زائريها في موارد رزقهم. وقد استفاد يوسف إدريس من هذا الاسم ليطلقه على إحدى قصصه ـ ليعلو المجموعة القصصية ـ «بيت من لحم»، لكن الأمر لم يزد عن الاستفادة بالاسم دون أي إيحاء بمعنى آخر.

وأفضل اللحوم لذَّة في التناول: الضأن، ثم صغار البقر والجاموس، ثم الماعز، ثم الديوك الرومية، ثم البط والإوز، ثم الإبل الصغيرة، ثم الدواجن، ثم اليمام، والحمام. وفي بعض الأقطار ـ مثل فرنسا ـ يميلون إلى لحوم الضفادع، دعك من ذلك الآن، ومن المؤسف أنني ـ وبناء على نصيحة أو أوامر الأطباء ـ يجب ألا أتناول اللحوم بالمرة، ولذا، فقد توقف التهامي لها عند حدود أقل من عشرة أنواع، دون مساس بحقي في نهش لحم الأعداء بين كل وجبة وأخرى.. حتى أصنع ملحمتي التي أشدو خلالها بوقائع تمزق العروق التي تحمل كل قصائد الملاحم.

كلمات لها معنى

كل هذه الأفلام والروايات والأغاني والأحاديث والحكايات والقصائد التي تتناول الحب، تؤكد أنها تتعرض لموضوع نادر.

*

سيدي رجاء الانتباه أن عروق الذهب لا يمكن إدراكها وفي ذهنك عروق الخشب أو عروق الدم، أو أي أمور عريقة أخرى.

*

حطت يمامة على نافذتي وظلت تمعن في وجهي باستغراب واضح، مما أفسد على مخي التركيز في إلحاق الضرر بأحد الأصدقاء الخونة، أحسست برغبة عارمة في النوم.

*

إياك أن تنهر كلبًا لتوقفه عن النباح المزعج، دعه لشأنه وتحمل قليلًا، لن يستمر نابحًا إلا إذا نهرته.

السَّراب والسرداب والسربال

بيتنا ـ الذي كان خارج القرية على شواطئ البرك والمستنقعات ظل يبتسم في رومانسية فقيرة ممعنًا في الهواء الطلق، ليتيح لي فرصة امتزاج الخيال الصبياني بما أحصل عليه من مناظر الحب والغرام المشتعلة على شاشة سينما المدينة القريبة. وتتوالى السحب حاوية في تكوينات الغروب الملون السراب المأمول دون أن أفطن إلى أن السراب يتوالد في آفاق الرمال الممتدة في الصحاري دون أحراش شجر الجميز والسنط والنخيل ومزارع القصب والأذرة، وبالتالي فقد تضاءل سراب الأمنيات إلى سرابة الماء السلس المتسرب في قنوات الحقول، تلك التي تظل الضفادع والسحالي تتقافز على حافتها في سرور لا أثر للخيال السينمائي في تكويناته.

ولقد ظللت أتساءل ـ بما أمتلك من عبقرية قديمة ـ إن كانت سرابة الماء هي التي وراء لفظ «السراب» عندما تتمكن من اختراق الأرض؟ ثم لم تلبث الأسئلة أن توالت خلال سنوات عمري المتوالية عن العلاقة بين سراديب الذهب والألماس وأعناق النساء،

وما السبب وراء الرعب الكامن في السرداب المظلم الذي يفح بالترقب والهمس والتآمر؟ ولماذا ـ إذن ـ نطلق على كل الحيوانات والطيور الجميلة المسالمة لفظ سرب فنقول: سرب الحمام، سرب العصافير، سرب اليمام، سرب الغزلان ـ دون أن تحظى السباع والنمور والصقور والغربان والحدآن بأي سرب؟ ثم لماذا تقوم ثقافة العصر الحديث بتطويع لفظ السرب للطائرات المقاتلة؟ ثم سرب النقاد ـ أقصد نقاد الفن والأدب ـ وأسراب الصواريخ؟ أم أن البحث عن إجابة يصبح تسريبًا سواء بالمعنى الذي يؤدي إلى التوصيل المتسلل السري كما هو قائم في تسريب أسئلة الامتحانات، أو حيثيات الأحكام، أو نوايا ذوي السلطة إلى من يهمهم أن يعرفوا بهذه الأمور قبل وقوعهم فيها؟

إلا إن كل هذه المواد المتسربة أو السرابية أو الساربة تأخذ مجرى آخر حينما نعرف أن المعجم العربي يجعل السُّربة هي الشعر المستدق ـ أي الناعم القصير جدًّا ـ الذي يأخذ مساحة منطقة من الصدر إلى السُّرة، والسُّربة أيضًا: الطريق، وقريب السُّربة: قريب المذهب أو المشاعر أو اتفاق الحاجة، أما المسرب ـ وجمعها مسارب ـ فهي قنوات انسياب المياه، وهي معروفة لنا في قريتنا وتطلق على الجداول الصغيرة والترع التي لا عمق لها وتحف بها نباتات بوص الغاب وذيل القط والنجائل غير المشذبة، وتأخذ الحيات والثعابين مساربها لمواضع آثارها تنساب إليها سعيًا على بطونها، ولا أعرف إن كان للعقارب مسارب لكني أزعم ـ في ثقة ـ أن اللصوص يميلون إلى ذلك.

وقد هالني أن النساء حصلن على حقهن في السرب: سرب من النساء على التشبيه بسرب الظباء، إلا إن النحل ـ بعد النساء مباشرة ـ يصبح له سربه بل إن السرب تعني: النفس والقلب والصدر أيضًا، يقال هو آمن السرب أو آمن في سربه: أي أنه آمن النفس والقلب والصدر أو آمن على ماله من أهل وممتلكات وأموال، ويقال هو واسع السرب: وتعني واسع الصدر فقط، كما أن السرب هو الطريق والوجهة والنهج. فإذا انفتحت السين وتم تأنيث اللفظ ليصبح «سَرْبة» فإنها تعني الرحيل القريب، أقصد السفر القريب حتى لا يختلط بالرحيل معنى آخر لا يصح الاقتراب منه الآن، جعل الله سربك آمنًا.. ومريحًا حتى تصل إلى مسربتك الخاصة: أي المرعى الواسع ـ أو المزرعة الرحبة، حتى تتسربل بك الأمور الجميلة، أي ترتديها أو تتناسق نفسيًّا معها كما هو مقصود بالسربال أي الارتداء أو اللباس، كما أن القميص سربال أيضًا، والدرع سربال بدأ يندثر بعد أن ظل أحقابًا سربال الوقاية في القتال القديم، حتى لو كان السربال يطلق على كل ما يرتدى من أنواع الملابس والعناصر الواقية. وفي التنزيل العزيز: «وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ» صدق الله العظيم.

أما السارب فهو الذي يسرب سروبًا يخرج في الأرض ذاهبًا على وجهه فيها، وربما يكون مريحًا لي شخصيًّا أن السارب من يهيم في الأرض دون هدف سوى متعة التجول، غير أن العين ـ إذا ما دمعت ـ فإنها تقع تحت هذا السرب أو السروب، كما أن قربة الماء أو اللبن لا تلبث إن اخترقها ثقب دقيق ـ دون تمزق ـ أن

تأخذ حقها في السروب، فإن أردت أن نتوقف عن كل هذا التسريب المتسلل فعليك ـ يا صديقي ـ أن تنصت لقليل من الموسيقى الهادئة حتى تتسرب إلى وجدانك الذي يسعى إلى نوع من السكون الذي لا ضجيج ولا قلق فيه، حتى تتسرب ـ آخر الأمر ـ إلى عالم آخر لا يقل جمالًا عن السراب الذي نسعى كي نستمتع برؤيته ـ ولو لمرة واحدة.

كلمات لها معنى

عندما تسألك أنثى سؤالًا، لا تسرع في الإجابة حتى تتيح لها فرصة أن تظل ممعنة في وجهك، أقصد: أن تظل ممعنًا في وجهها.

*

العصر الحديث مثل مترو الأنفاق يمنحك السرعة دون متعة مشاهدة توالي وتتابع المناظر الجميلة.

*

لأنها أكثر تأثيرًا ستظل الشمس مؤنثة، أما القمر فيظل مذكرًا يهيم في القصائد والأحلام دون أي فعل مؤثر في النمو أو القوة.. أو الموت.

*

الشراسة الجارحة من ثلاثة حروف فقط: أسد ونمر وضبع وذئب، فإذا اختلطت الشراسة بالمكر والخديعة تبدأ الحروف في الازدياد: ثعلب وثعبان ولبؤة، دعك من السياسي الآن.

الجُب

نحن ـ أبناء الريف ـ يستدرجنا لفظ «الجب» إلى أعماق الرعب، فإن كانت هذه البئر العميقة تمثل الأمل للعطشان في الصحاري، فإنها في مناطق الأنهار ترتبط بصنوف من الانتقام تؤدي إلى ما حدث لي شخصيًّا حينما أخرجوا جسد ابن البطران ـ الصبي ـ من عمق البئر، فظل كامنًا في جوانحي وفي تصوراتي وفي قصصي. وسوف تلاحظ أن الجب طغى على تأنيث البئر وجعلني أسقط في قاع الاضطراب اللغوي. وما زلت أرتاح للموروث عن النبي يوسف عليه السلام الذي قال قائل من إخوته: «لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ»، حتى جاءت سيارة ـ أي مجموعة من السائرين المسافرين ـ لتنقذه، وتتحرك بعدها حكايته من الجب لتصل إلى ذروتها الممتعة مع زليخة ثم أغوار السجن ثم النجاة مرة أخرى. وليس من السهل أن يحدث ذلك لكل من يقع في الجب الريفي لعدم اللجوء إلى هذا النوع من الأعماق لاستحضار ماء يفيض في الجداول والترع والجوابي، والجوابي ـ هنا ـ جمع قسري للجابية التي تكون البحيرة الصغيرة أو

البركة التي ينهل منها الشادوف المياه في إيقاع موسيقي يثير الشجن والرغبة في الشدو والغناء أكثر من السواقي والمحاريث، ومع ذلك فإن الشادوف سيظل رهين المعاجم حيث نطلق عليه ـ وربما لهذا السبب ـ لفظ العود، وبرغم رغبتي العارمة أن أستظل بالعود الذي على الجابية ـ دون العودة للجب ـ فإن الضمير اللغوي (المستتر أو المعلن) يجعلني أشير إلى أن الجابية تتوافق صوتيًّا ومعنويًّا مع الجب إلا أنها تختلف في المصدر اللغوي (جاب وجب) وهذا شائع في حالات عديدة أخشى أن يبتلعني عمقها دون أن تتاح لي فرصة إنقاذي من بعض السيارة الذين لا ينتبهون لمثل هذا السلوك الراقي في عصرنا الراهن، حيث لا فرق بين الجب والجابية والجبانة. وكما تعلم ـ أطال الله عمرك ـ فإن الجبانة هي المدافن ـ التي تؤوي أجسادنا بعد أن يحل الأجل، وللجبانة اسم آخر أقرب إلى الأجساد هي الأجداث.

إلا إن الجب ليس مجرد بئر، ففور أن تفتح الجيم بدلًا من ضمها لتصبح «الجب» تواجه القطع، ومنه جاء الحديث الشريف «إن الإسلام يجب ما قبله»، أي يقطع ويمحو ما كان قبله من الكفر والذنوب، والجب أيضًا: الاستئصال، في الأعضاء على وجه الخصوص كالأذرع والسيقان. ولا أعتقد أن هذا الجب يصلح للرقبة ـ أي العنق ـ والمخ ـ أي العقل، لكن النباتات ـ النخيل بالذات ـ ترتاح لاستخدام الجب في التلقيح دون القطع والبتر، مع أن اللبن حين يجب ـ أي يصيبه الجُباب (رجاء ضم الجيم) يعني أنه أصبح أكثر دسامة بهذه الطبقة الناعمة المعروفة التي تعلوه، وربما

تكون هذه الدسامة وراء الجبة: هذا الثوب السابغ: أي الفاخر واسع الكمين المفتوح أو المشقوق من الأمام (عذرًا: ما كان لي أن أشرح لكم الجُبة). وهناك جبة أخرى من نوع مختلف تفصل بين حبوب العدس البني الغامق لدرجة السواد والعدس الأصفر، والعدس بجبة له لذة لا مثيل لها في المأكولات مع أهمية محتوياته ذات الطاقة الكامنة التي تفح بالدفء ـ والحرارة ـ في عز الشتاء، ونحن في مصر لا نأكله في الصيف أبدًا، وكثير من المشاكل أو التصادم العائلي يكون وراءه الاغتذاء المبكر صباحًا بالعدس ذي الجبة، إنه استنتاج شخصي من واقع شخصي. عليك ألا تجوب هذه المنطقة الآن، حتى لا أضطر إلى الزج بك إلى الجيب: سواء كان جيب الزاوية في علوم الرياضة، أو جيبك الخاص في مجالات الصرف والإنفاق ـ أي النفقة ـ والإغداق أيضًا، اعرف ـ مرة أخرى ـ أن العلاقة بين جيبك والجب صوتية فقط. وهذا خير من اصطحابك إلى عالم الجباية القديم (وزارة المالية بما فيها من مكوس وضرائب الآن)، أو سيارة المغامرات الصحراوية من طراز «جِب»، أو جب الباحث اللغوي الاسكتلندي السير «هاملتون ألكسندر روسكن جب» الذي ولد في الإسكندرية بمصر إلا أنه تعلم في إدنبرة، حيث أصبح ـ بعد رحلة مثابرة علمية ـ رئيسًا لقسم الدراسات العربية في جامعة أكسفورد، ووضع كتبًا عدة في هذا المجال، مثل: مقدمة في الأدب العربي، ومختارات من رحلة ابن بطوطة، والاتجاهات الإسلامية الحديثة، والمحمدية، حضارة الإسلام، وقد رحل عن عالمنا عام ١٩٧١ بعد أن أصبح عضوًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة،

وأعتقد أن السير «هاملتون جب» يصلح نهاية مريحة للخروج من أي جب آخر.

كلمات لها معنى

إنه مرض نفسي يخصني: لا أحب أن أنظر في وجوه السياسيين أثناء إلقاء خطبهم، لكن الاضطراب الناجم عن لغة الخطابة يعيدني فورًا إلى وجوههم، اللجوء إلى الفراش أو الشارع أفضل.

*

الدنيا على كف عفريت، هناك كف أخرى لا تزال شاغرة.

*

التاريخ يحب الجغرافيا، إنها العلاقة الزوجية الأبدية، دعك من الحضارات والمدن المندثرة، عليك أن تستريح ـ كما هو حادث الآن ـ تحت ظلال الأطلال.

*

حول جلستي على النجيل ـ أقصد البساط الأخضر ـ ظلت حفيداتي الصغيرات يتقافزن سعيدات، وما كاد عمهن ـ الذي هو ابني النشيط ـ يظهر في الأفق حتى هجرنني لأجلس وحيدًا.

*

ستظل العسعسة صفة لليل فقط، أما النهار فلا حواس له.

السهم

برغم أن معظمنا ـ أو جميعنا ـ لم يشهد سهمًا على المستوى الواقعي، إلا إن السهم اخترق الحكايات والأساطير والأشعار وشاشة السينما والتلفزيون، متجهًا بسرعة فائقة إلى عدو أو خصم أو قلب عاشق أو ظبي أو غزال. ثم لم يلبث العصر الحديث أن أخلى أهداف السهم في الغابات والصحاري والأصقاع، ليعيد توجيهه قاسمًا مشتركًا للمساهمة في المشروعات والشركات ذات الأجواء الضاغطة الخانقة لبورصة النشاط الاقتصادي، ليصنع ثراء مضطربًا أو خسارة مذبذبة لا يستطيع الشعر وأنواع المها ـ أي الغزلان ـ الارتياح إليها، حتى لو كان السهم العصري استطاع أن ينطلق من العيون المتألقة ـ أو الرانية المستكينة ـ لأنثى لا تود التعبير عما يجيش في فؤادها باللسان، إلا إن أنثى ما قبل العصر الحديث ظلت تجيد ـ إجادة فائقة بعيدة عن وسائل الإدهاش الجمالي المصنوع ـ تسديد سهامها في الآفاق الممتدة التي تتجاوز مترًا كاملًا لتشع بالشجن الصامت والنشوة، لقد أتلف العصر القائم

أرقى سهام الفطرة الحية فينا، والتي ظلت في جعبة كيوبيد إيذانًا بالغرام المأمول.

وبعيدًا عن لغة العزاء الناجم من لوي الأعناق إلى الخلف بحثًا عن علاج حالة السهوم التي عبثت في المشاعر ليتغير لونها بعد أن أصاب سليقتنا الهم والغم والتوتر وإشعاعات الكهرباء وقلاع حوائط الأسمنت والضجيج والتصريحات والذكاء السياسي المفتعل والهزال العاطفي، مع إضافة أنواع أخرى من أسباب السهوم كالملابس الصناعية وأصناف عديدة ووفيرة من الشعر المستحدث والقصة التي تجاوزت الحداثة، وشطائر مأكولات الأركان وراء الحوائط. فإننا بعد كل ذلك أو أي من ذلك ـ لا نجيد اختراق ما نحن فيه من تقدم كي نصل الأمنيات الرومانسية الغالية والبسيطة، والتي تسهم في استثارة الوجدان الكسول كي ينجو من وهج العصر ـ أقصد الصيف ـ وحر السموم، وإمعاننا ـ بين وقت وآخر ـ في عيون زوجاتنا: رعاك الله وأنقذك من عذاب السهام الصدئة، مع أهمية الابتسام الأبوي الحنون.

وحتى لا أقع معك في تساهم، نتقارع في ساحته كي يغلب أحدنا الآخر، فإن اللجوء للتساهم الذي يعتمد على ذلك القدح الذي يقارع به من باب التسلية أفضل مرارًا من وقوعنا في صراع الأسهم: دموية بالغة القسوة، أو هادئة في يسر لتصبح ميسرًا ـ إنه الاسم المهذب للقمار، مع أن السهم في واحد من معانيه أو مدلولاته يعني الحظ والنصيب، لكنك لا تستطيع أن تخرج بهذا اللفظ من المعجم لتصوغ المصطلح الشعبي الصبور (كل واحد وحظه) ليصبح (كل واحد

وسهمه) فقد يعني ذلك إنذارًا ـ بشكل ما ـ للسامع أن موقعة استخدام السهام الحادة: قادمة.

وقد اضطر السهم أن يعمل بشكل لا يزال حيًّا ومؤثرًا في قياس المساحات وتحديد النصيب فيها ـ بعد أن فقد كثيرًا من أدواره في العيون والغزلان كما تعرض للاهتزازات الجسيمة في البورصة المالية، واستبعد تمامًا من الميسر والقمار، ليصبح القيراط أربعة وعشرين سهمًا، ثم يعلو الفدان جاذبًا أربعة وعشرين قيراطًا ليكتمل الدور. وقد أحسست بمغزى قيمة السهم حينما رحل أبي تاركًا مساحة واسعة من الأرض الزراعية تصل إلى فدان أو أقل قليلًا، وهو أمر له معناه المؤثر عندما تكون من عائلة أو أسرة «مستجاب» الذين يميلون إلى إبراز مظاهر من يمتلك مثل هذا الفدان مائة مرة: في الكلام والمبارزة والتشاحن والمصاهرة واكتشاف عيوب الآخرين الذين تقل ملكيتهم عن ذلك. وكدت إزاء هذه الملكية الشاسعة ذات الفدان الذي يحوي عددًا طيبًا من القراريط ـ والتي بدورها تحوي عددًا مذهلًا من الأسهم ـ أن أطبع بطاقة خاصة بي تنزعني من سلك الموظفين إلى مجال المزارعين ـ أي أصحاب الملكيات الواسعة ولا يعملون فلاحين، إلا إن البطاقة لم تتح لها الأقدار فرصة الظهور بسبب إسهام إخوتي في إفساد متعتي: خمس أخوات بنات وذكر، بالإضافة إلى شخصي المهيمن على كل هذه الأسهم، وأمي التي تحظى بالرعاية الخاصة دون أن يضيع حقها في الميراث الخاص. حينئذ أصابتني دهشة روائية حينما عرفت زوجتي ـ كانت أيامها خطيبتي ـ

أن ما أشدو به من فخر لا يتجاوز أربعة أسهم، إنها مساحة يمكن قياسها بالشبر، هل تذكرون الشبر؟! إن ذلك يساعدني على إغلاق موضوع السهم والأسهم والمساهمة ـ حتى لو كانت تبرعًا للفقراء واليتامى، دون أن أبرز قدراتي الفائقة حينما ـ في حالات الصفاء الناجمة عن استقرار أو ارتفاع أسهم البورصة ـ لاحظت أن كل ما ورد من معلومات تاريخية عن مختلف صنوف الشعوب في العالم، ابتداء من العرب والقوقاز والفينيقيين والإغريق والرومان ـ حتى الباقي من قبائل الزولو والبوشمن وسكان أستراليا والهند والتبت والهنود الحمر: يستخدمون السهام نفسها في الجعبة ذاتها بطريقة التصويب نفسها، أو التسديد إلى أنواع متعددة من الغزاة أو المستعمرين أو الأرانب أو الذئاب أو السباع أو الغزلان أو النساء، أو حتى إلى أهلي ـ أقصد إخوتي ـ الذين استخدموا حقهم في محاصرة أسهمي التي أجهل كيف أطلقها.

كلمات لها معنى

الحرارة مؤنثة، والبرودة مؤنثة، أما الرجولة فلا تزال تبحث عن صفة لها لا تنتهي بتاء التأنيث المربوطة.

*

العقل مثل أي كائن حي: يحتاج إلى بعض الراحة دون استعمال، البعض يتركه في تلك الراحة فلا يستيقظ أبدًا.

*

كل الأنهار تصب في البحر، والبحر ليس بملآن، دون الانتباه إلى كل السحب التي تحمل سيول الأنهار في جوفها، تمتلئ بها من البحر.

*

الجيوب الأنفية مصطلح علمي لوصف ما يصيب الأنوف الحديثة، لقد توقفت حاسة الشم.

*

في السفر سبع فوائد، أخطرها الثامنة: يستحسن ألا تعود مرة أخرى.

لائحة اللوح واللوحة

كلما لاح لي أن أقترب من عالم الألواح أو اللوحات لوحت أمور عديدة بسيفها حتى أبتعد، وبثوبها كي أخترق هذا المجال الواسع الممتع، مع مراعاة لوائح الأخلاق والتقاليد حتى لا يستمر التلويح في وجهي بالقلم أو الثوب أو العصا أو السوط. ولعل أقدم لوح عرفته كان ذلك المصنوع من الصفيح نحمله ونحن صبيان إلى كتاب سيدنا الشيخ محمد عثمان تدوينًا لآيات القرآن الكريم لنحفظها ثم نرتلها في خشوع صباح اليوم التالي. وهو ما أدى بعقلي الصبياني المبكر ـ والذي لا يزال مهيمنًا على جمجمتي حتى الآن ـ أن يتصور اللوح المحفوظ في الآية الكريمة: «بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ»، يتمدد في الكون الشاسع بهذا الشكل الذي كنت أحمله تحت إبطي، إنه الإحساس النقي الجميل بالوجود الذي ترسخه في الجهاز العصبي الإنساني كل الإنجازات العلمية الحديثة في المجالات كافة، والذي انفصل تمامًا عما قد يعنيه اللوح في الحياة السفلى ـ أقصد الأرضية، إن مشهد اللوحة العليا لتآلف الشمس ـ

في مرح ـ مع قليل من السحاب، أو تسلل القمر المفعم بالشجن المضيء بين النجوم الأليفة، يمنحنا العزاء حين يخترق اللوحة ـ مع البرق والرعد ـ أنواع من الصواريخ الشريرة، حيث نعود إلى سلوانا الإنساني الخاص، والذي يتيح لنا فرصة النوم الهادئ ـ إن استطعنا. وستظل ابتسامة الجيوكاندا في لوحة دافنشي ساحرة بكل الرقة التي نسعى إليها، مع أن لوحات عديدة حملت ابتسامات رقيقة متعددة ـ وأكثر تعبيرًا منها، لكنها لم تستطع أن تحتل موقع شفتي الجيوكاندا في فؤادنا، حتى لو كانت ـ هذه الابتسامات ـ قد حملت من المعاني والإيحاءات ما لم يطرأ في بالنا إزاء لوحة دافنشي، التي لم ترتكز صاحبتها على وسائد أريكة أو ركن من الفراش أو مائدة تفح باللذة، والتي تتفاعل فاكهتها ـ التفاح بالذات ـ مع الجمال الأخاذ لابتسامة الأنثى.

غير أننا ـ نحن وغيرنا ـ لا نلبث أن ندخل اللوح ـ دون اللوحة ـ إلى معجم التوصيف الهازئ هجومًا على الآخرين، وفي دعوى رفعها مواطن في أسوان ـ جنوب مصر ـ ضد أحد خصومه متهمًا له بوصفه أنه «لوح»، بما يعني الانتقاص من شأنه وتجريح شخصه، مع جفاف إدراكه وإحساسه ومشاعره. وهي لغة منتشرة ومعروفة، وحتى بين الأصدقاء في لحظات المرح المبالغ فيه، إلا إن القاضي رأى أن ينصح المدعي أن يتصالح مع المتهم، وضحك ـ من باب الدعابة ـ هامسًا: لو أصدرت حكمًا ضد اللوح فسوف تتحول المحكمة إلى «مغلق» ـ والمغلق مخزن ألواح الخشب ـ وعروقه أيضًا.

ويحظى اللوح بمواقع في تاريخ البشر، ربما يكون أقدمها لوحة

نارمر الرخامية السوداء الموضوعة بين قدمي الملك مينا ـ أول ملوك مصر ـ والتي شملت أمجاده التي تضمنت توحيد الوجهين البحري والقبلي لتصبح أساسًا دائمًا وخالدًا للقطر المصري. ثم هناك لوح الصلصال من الطين اليابس كان يكتب عليه أهل بابل مآثرهم وانتصاراتهم، كما أن للرومان لوحة مبادئ القراءة: صفحة من الورق تُخط عليها حروف الهجاء والأرقام وأدعياتهم بخط كبير واضح وجلي، وتلصق على لوحة رقيقة من الخشب. ومن الغريب أن المعاجم ودوائر المعارف تذكر ذلك دون الاهتمام بلوح كُتاب سيدنا محمد عثمان وأمثاله في كل أنحاء مصر دهورًا طويلة، بل إنهم ازدادوا اهتمامًا باللوح ليشيروا إلى النوع الشمعي الذي كان يكتب عليه الرومان ـ أيضًا ـ بطريقة يمكن طمسها وإزالتها لإعادة الكتابة عليه، لأنه لوح خشبي مغشى بطبقة من الشمع، مع أن أشهر لوح لا يزال يعمل حتى الآن: ذلك الذي يستخدمه عمال الأفران في إدخال رغائف أو رغفان الخبز ـ بمرونة فائقة ـ إلى بلاطة جوف الفرن الملتهب مع استعادتها بمرونة أكثر دقة، كما لا يمكن لك أن تغض العقل ـ وليس البصر ـ عن مشهد إمعان العازف الموسيقي للوحة المثبتة أمامه متضمنة «النوتة» الموسيقية.

وقد استطاعت اللوحة ـ واللوح أيضًا ـ بعد إنجازاتها في القراءة والكتابة والرسم والموسيقى والتسجيل التاريخي أسفل الأقدام أو فوق مساحات حوائط الهياكل ـ أن تنحني تحت وطأة القرارات والقوانين والتنبيهات في لوائح تنتشر في المؤسسات وأدراج المديرين وسطوة الرقابة والتحقيقات ونظم المخازن والمحافظة

على الأسرار وترتيبات الانضباط. لكن أي لائحة في أي موقع تخلو من وسائل الوشايات والدس والنميمة، لأن هذه الصفات تكمن في لائحة القلب أو بين عظام الجمجمة، وتؤدي عملها ـ المثمر ـ لتنهار كثير من القصور الجميلة إلى ألواح محطمة في العراء ـ ومع قليل من العزاء والسلوان.

أما أخطر أنواع الألواح التي حين تتحطم يصبح صعبًا ترميمها فهو لوح الظهر الإنساني الذي يتحمل ما لا تطيقه ألواح المخلوقات الأخرى، عليك أن تقرأ أي مذكرات لأي فرد مبدع في الأدب أو الهندسة أو السلوك الاجتماعي ـ أو أي مجال ـ لتشهد بنفسك ما تحسه في حياتك ـ أحيانًا ـ ودون مذكرات.

كلمات لها معنى

غريبة: عائلات عديدة تحمل لقب الشايب ـ أي الذي اخترق كل المراحل من الطفولة حتى المشيب، دون أن تجد عائلة واحدة تحمل لقب الشاب الذي في ريعان الحياة، ربما لأن الشاب في اللغة الخالصة تعني الذي يصيب مرة ويخطئ مرة، دعك من الشاعر أبو القاسم الشابي الآن.

❊

الذهول لا يصيب العقل فقط، فكثيرًا ما يصيب الأرض الخاوية الجافة بالمطر المفاجئ، فتضطرب وتنبت الحشرات دون النبات.

❊

أسير في خطى هادئة، عيناي إلى السماء، لكن أمنيتي أن أخترق الأرض.

*

أسرع وأخطر أنواع الموت: الترف الكسول..

*

لا بد من إنشاء جمعية لرعاية الموائد لكي تظل للسمر والمأكل والروائح الشهية، أي لحمايتها من جفاف ولؤم ومكر المباحثات، السياسية بالذات.

*

كل أنواع حروف الجر والعطف والوصل والإشارة جامدة لا تصلح للصرف مثل الأسماء والأفعال.

ما بين الطرح.. والطرحة

لا أستطيع أن أنسى: الطرحة السوداء ذات الطريقة الثابتة، والمحكمة، في ضبط رأس ستي ـ أي جدتي ـ نفيسة مع رقبتها وكتفيها، بشكل لا يتغير ولا يهتز في الأفراح أو الدهشة أو الأحزان أو التصفيق الراقص نشوة، أو حين تندمج في حلقات الزار أو احتضان الأحفاد الصارخين، وهو أمر لا تستطيع مواجهته طرح أو طروحات أخرى فوق دماغ فطيمة أو فريجة أو حافظة، تهتز وتضطرب وتنفك وتتهدل كلما داهمتها رياح أو نسائم أو حرارة أو عين رجل غريب. لاحظ أن ستي نفيسة تعبير عربي صحيح شائع في بلادنا ـ وسط الصعيد المصري ـ دون كلمة جدتي، كما أن «الست» صفة مطلقة للآنسة أو السيدة شائع في كل البلاد والأقطار، لكننا ـ نحن أبناء الكتابة ـ لا نطرح مثل هذه التعبيرات اعتقادًا بأنها عامية لا فصاحة فيها، إنه جهلنا الخاص، دعنا منه الآن، حيث إن كثيرًا مما يجري في مجال تفكيرنا يود أن يجد له مطرحًا بين السطور. ذلك أن المشهد الأثير عندي ـ والذي أشار إليه قائد الأوركسترا الموسيقية يوسف

السيسي ـ يرحمه الله ـ يركز في حركة ذراعي أمي خلال تحريك يديها بالمطرحة أمام فرن الخبيز الريفي، وقطعة العجين، تتحرك في دورة لدنة سلسة بالغة الرقة لتتسع وتتسع حتى تصبح رغيفًا أو بتاوة ـ باتساعها المعروف لتلقي بها فوق البلاطة الملتهبة، الأجيال الحالية ـ معظمها ـ لن يسعد بهذا المشهد، وربما أيضًا لا يدركون العلاقة الساحرة بين حركة ذراعي أمي أمام الفرن وذراعي يوسف السيسي قيادة للعازفين في الأوبرا، وكلاهما يصل بالإبداع إلى أوج النشوة، دون أن ينطرح اللحن أو الرغيف أرضًا.

وإذا كان الطرح ـ في الحساب ـ إنقاص عدد من عدد آخر، فإنه في الشواطئ يصبح زيادة في المساحة البرية التي يضاف إليها ما تطرحه المياه من طمي وشوائب، ليصبح طرح النهر ـ أو طرح البحر ـ مصطلحًا معروفًا يقع دائمًا في دائرة اهتمام خبراء الشواطئ والموانئ وعلماء البحار. ولعل المدينة المصرية مرسى مطروح هي الوحيدة التي أعرف أنها استأثرت بذلك داخل اسمها دون المواقع والمدن العديدة الأخرى الناجمة من هذا الطرح ربما خشية من الاعتقاد بأن هذا الأمر قد يؤدي بالمدن إلى أن تصبح طريحة الشواطئ مثلما نقع فيه نحن لنصبح طرائح الفراش، مع أن الأطروحة الكبرى ـ والجميلة ـ أن يكون ذلك صفة للقصيدة الجميلة في المنتدى الجماهيري الدافئ، لتتوالى بعدها أنواع من المطارحات التي فقدناها في المجال الخاص الذي يشعله شوق العشق حينما يتطارح اثنان ـ ذكر وأنثى ـ في همس التواصل الإنساني ذي الإيقاع البليغ على مساحات الصمت... البليغ أيضًا.

وعندما يدهم الشجن حياتنا ـ ليصبح حزنًا ضاغطًا ـ تنطرح الذكريات جاذبة كل أشواك الأسى التاريخي: في الأسرى ـ خلال الحروب ـ المنطرحين أرضًا، والأمنيات ـ خلال الهزائم ـ المنطرحة في الجهاز العصبي تعوقه عن التسامي والتحليق الهائم، حيث يصعب علينا أن نطرح الهموم جانبًا، ونقع في اختناق الطرحة المطروحة بين قواقع المياه بحثًا عن أسماك تتشبث بها حتى تطفو فوق السطح، إذ تظل الطرحة أداة للصياد الجوال على الشواطئ وللصياد الجوال ـ أيضًا ـ في الغابات بين الأشجار بحثًا عن قرد أو نمر أو ثعلب أو أرنب أو حتى جرذ أو سنجاب أو ثعبان في كثير من الأحيان.

ومن أكثر المشاهد العصرية انتشارًا الطريقة التي يطرح بها السياسيون أو نواب المجالس أو رجال النيابة أو المحامون أفكارهم على من يودون أن يقتنعوا بها من أصحاب السلطة من حكام وقضاة وذوي القدرة على اتخاذ القرار، حيث يلجأون إلى أنواع من البلاغة في الأداء وتحريك الأذرع والاهتزاز الدرامي المتداخل مع ما تحويه الذاكرة من مشاهد أفلام السينما ومسلسلات التلفزيون، حتى إننا نضحك في لذة حتى نكاد ننطرح أرضًا، دون أن ندرك أن الفاصل بيننا وبينهم طراح شاسع، أي مكان بالغ الاتساع.

إلا إن كل شؤون الطرح والتطارح والانطراح تنصهر ـ كلها ـ أمام الطرحة الوحيدة البيضاء ذات الإشعاع المتناغم مع الأضواء وإيقاعات الرقص وأمنيات السعادة، تلك التي تتألق فوق رأس عروس تتأهب لتدخل عالم السعادة المطروح في وجدانها، دعك مما سوف يحدث بعد ذلك من أمور تنطرح الآن في عقلك يا صديقي، والتي تراها في

ملابس العريس والتي تظل سوداء ليظل مضادًا لما ترتديه العروس ذات التألق ناصع البياض.

كلمات لها معنى

أخطر أدوات الابتزاز ليست الأذرع أو السكين أو المسدس، إنها العيون: عيون الأنثى بالذات.

*

الدليل على أن فن الشعر يعشق الهواء الطلق، أنه يجمع كل بيت منه ليصبح أبياتًا، دون أن يصبح بيوتًا مثل تلك التي نعيش فيها.

*

الشمس تتعمد السخرية بأفكارنا: انظر للعمائر أو الجبال أو أشجار النخيل الشامخة حينما تتعامد عليها الشمس فتفقد ظلها، ثم لا تلبث أن تتحرك فتجعل للفئران والأعشاب والعقارب ظلًّا ممتدًّا.

*

حاول ألا تيأس بسرعة، إياك أن تيأس ببطء، إنه الموت.

البدر والبدور

تصورت أن دخولي عالم البدر والمبادرة أمر سهل، حيث يمكن لي أن أبدو ذا قدرات لغوية فائقة، حينما أتجول حول البدر بصفته قمرًا مكتملًا ناصع التألق في استدارة خدود ثريا.. بنت خالتي في البوادر الأولى ـ أي المبكرة ـ لانفتاح حواسنا الصبيانية على الوجود، إلا إن بدر البدور قطعت الطريق على تجوالي حاملة قفص البداري فوق رأسها، وأصوات البداري تزقزق في شغب صغير ينبهك فورًا أنها تحاول الخروج من مرحلة الكتاكيت إلى عالم الدواجن ذات الأعراف والأجنحة المتداخلة الألوان، ولم أكن أدرك ـ أنا ورفاق مرحلة بوادر شبابنا ـ أن الأمر يخصنا نحن بالذات، ولا سيما أن حاملة القفص المفعم بالبداري كانت تتراقص في تناغم دقيق وقد غطت جزءًا من خدودها بكف يدها، أنظر إلى عيونها التي تدفع أهدابها كي تبدو بالغة الحرج حياء مما يبدر من الذين يهوون أكل البداري عند غروب الشمس بالذات، وذلك ما جعلنا نحنُّ الآن بأن المبادرة المبكرة في العلاقات الإنسانية قد خلعت

أرديتها اللغوية الجميلة حينما بدأت تؤدي دورًا آخر تحت سطوة المصطلح السياسي المعاصر.

إلا إن أمورًا أخرى بدأت تدفعني للوقوع فيما أنا فيه، فنحن الكتاب الذين يشار إليهم بالبنان ـ لا نستطيع استخدام كلمة «بُدرة» لأنواع المساحيق التي تسري على الخدود لتدفع بالجمال الأنثوي إلى أرق أنواع التجميل: أقصد الجمال، كما يستخدمها كل أنواع وجوه البشر في إعادة صياغة الملامح لحساب الشخصيات في الأدوار والشخوص التمثيلية على المسرح وشاشات السينما والتلفزيون، وعندما أواجه الكتابة ـ المقال أو القصة ـ فإني أحاذر استخدام لفظ البدرة لبعده الواضح عن اللغة الفصحى، فإذ بي أجد البدرة ـ بكل معانيها في المساحيق ـ تحتل موقعًا مميزًا في المعاجم العربية، كما أن البداري ليست الكتاكيت فقط، بل إنها تشمل أيضًا كل ما تثمره النباتات والأشجار في بوادر موسمها، ونحن في قريتنا نستدرج البداري كي تغطي بالامتنان صغيرات السن من الزوجات حينما تضع أول نتاج للتواصل، وأن البدري من الزرع والضرع ـ أي النبات والحيوان ـ ما بدر به الزارع أو المربي أول زمانه، مع أن أي فرد يحمل اسم «بدر» فإنه يرتبط مباشرة بالقمر المكتمل، أو امتنانًا لموقعة بدر (غزوة بدر الكبرى) الشهيرة في تاريخنا والتي وقعت في السابع عشر من شهر رمضان بين بوادر المسلمين من المهاجرين والأنصار ـ وكانوا قلة (٣١٣ رجلًا) والمشركين المناوئين لديننا الإسلام الحنيف ـ وكانوا كثرة (٩٥٠ رجلًا) ليحقق أجدادنا أقوى وأرقى بوادر الانتصارات في بدرَ التي تقع في الجنوب الغربي من المدينة المنورة.

ومن الحزن الشخصي الذي يخصني أني ضيق الصدر بالمدن الحديثة، والتي تخلو من البدر فأضواؤها ـ الثابتة أو المتراقصة مع إضافة ألوان الإنجاز العصري المتقافز في الأجواء وفوق الأبنية حالت بيننا وبين تلك المتعة الكبرى التي تسترخي فيها حواسك في ألفة مع الفطرة الكامنة فيك، لتشهد البدر ـ حينما تهجر المدن ذات الأضواء الضاجة ـ وهو يشرق في هدوء الشجن الساري بين الجوانح، حيث يمكن لك ـ دون أن تفتح فمك ـ أن تتجول في ليالي القمر، لتبدأ الأمنيات القديمة في التحليق تحت إيقاعات هائمة في صوت أم كلثوم داعية حبيبها للسهر معًا. المشكلة أنني حينئذ ـ على البحر أو التلال أو مشارف الوديان ـ ما أكاد أستنيم بخيالي على ليالي القمر حينما تهل، حتى تبدأ «بدرة» قريبة أمي في اختراق المشهد لتصل إلى فرن الخبيز بالمرح المعهود فيها، والتعليقات التي لو رصدناها لأخذت معنى غير مريح من عصر انخفاض حرارة الأفراد لتظل مرتبطة بالأفران فقط، أو السيد بدير ـ ذلك الممثل المشهور بشخصيته المتميزة والتي تفح بالفكاهة، حتى لو كانت شخصية الصعيدي المصري قليل الذكاء ابن عبد الرحيم بيه كبير الرحيمية قبلي، وكل منهما شخصية كاريكاتورية مفتعلة لاقت استحسانًا وشهرة، بل وقام كثير من أهلنا في الصعيد بتقليدها دون اهتمام بما فيها من اصطناع، إلا إن البدر يمكنه ـ إذا استطعت أن تنفرد به في الآفاق الممتدة ـ أن يغسل وجدانك من أي حقد أو شر، بعض الوقت حتى يغيب البدر في أحسن الأحوال.

كلمات لها معنى

أي أدب تتم كتابته تحت تأثير الجوع، فإنه يقع بين براثن الأنيميا والحزن، حتى لو كان الجوع إراديًّا أو أمرًّا طبيًّا.

*

أعظم خائن في التاريخ هو أنا، فما أكاد أبدأ في صناعة مكيدة أو نسج مؤامرة حتى تندفع إلى سطور كتاباتي كل أنواع الخداع لتتركني خارج النص أهيم بنظراتي في استكانة شاعرية.

*

كل الغيوم تشعر بالحرج حينما تحول بين زهرة وبعض الأشعة المقبلة من الشمس.

الجسر

ظللت المليون عام الأولى من عمري والتي قضيتها في قريتي، لا أجسر على أن أتصور أن كلمة «جسر» تعني المعبر أو الممر أو القنطرة، والتي تكثر في منطقتنا، حيث تلف وتدور وتخترقها: ترع الديروطية والشريفية، ثم شرقًا الإبراهيمية، وغربًا بحر يوسف، إنها منطقة زاخرة بالجداول والترع والقناطر والكباري، غير أننا حين نستخدم كلمة «جسر» فإنها تعني مباشرة: المنطقة المجاورة للشاطئ. غرب الجسر ـ بالنسبة لنا ـ هي تلك المساحة الشاسعة بالغة الشاعرية من وادي بحر يوسف، والتي تقع فيها عدة قرى أشهرها دشلوط التي ينتمي إليها الشيخ محمود أبو العيون شيخ الأزهر الشريف في أواخر الأربعينيات، لكني ـ حين تحركت من قريتي إلى القارات المصرية الأخرى، فوجئت بأن الجسر يعني المعبر والممر من شاطئ إلى آخر، ليبدو سهلًا أن أفهم ـ في حدود عمري ذاك الوقت ـ رواية «جسر على نهر درينا» لليوغسلافي «إيفو أندريتش»، والتي حاز بها جائزة نوبل العالمية في الأدب عام ١٩٦١، لاحظ أن تصنيف «أندريتش» بأنه

يوغسلافي قد أصبح مجازيًّا بعد أن تفككت يوغسلافيا الآن وعادت إلى تصارعها الدموي بين مختلف القوميات والعقائد، ثم هناك العمل الروائي والسينمائي الشرس والجميل: «جسر على نهر كواي» والذي أخرجه «دافيد لين» الشرس، وقام بالدور الأول الأمريكي «وليم هولدن»، مع أن الدور الأول الحقيقي كان للممثل الإنجليزي «أليك جينيس» الذي قاد فيلق الجيش الغربي المحاصر ـ في جنوب آسيا ـ بالجيش الياباني، حيث ـ بصفتهم أسرى في المعسكر المختنق ـ نفذوا إنشاء جسر على نهر كواي، وكان هؤلاء الجنود البريطانيون هم الذين استخدموا في التجربة الأولى لعبور النهر فوق الجسر، ذلك الذي قامت القوات الغربية بمهاجمته وتدميره دون اهتمام بأهلهم ومواطنيهم العابرين عليه، والفيلم ضد الحروب ونواتجها المروعة.
أما الجسر الآخر ـ الشهير جدًّا ـ فقد كان الخاص بموقعة «وولترلو» في الحرب العالمية الثانية، والذي قام بتمثيله النجم ـ الشهير جدًّا أيضًا ـ «روبرت تيلور»، وقد أنتج هذا العمل عام ١٩٤٠ في أثناء الحرب العالمية الثانية، أما «جسر الأشرار» فهو فيلم لا يذكره أحد، أنتجته سوريا عام ١٩٧٢، وقام بأداء أدواره طاقم مصري على رأسهم الراحل فريد شوقي، لاحظ أن الذاكرة السينمائية ـ والتلفزيونية أيضًا ـ التي تهيمن على أنواع الجسور هي الظاهرة المعاصرة التي وقعت فيها ـ أنا ـ دون أن أستدرجك ـ يا صديقي ـ إلى جسر قصر النيل في القاهرة، حيث لا أحد يربطه بكلمة جسر، إنه الكوبري الذي يربط وسط العاصمة بحديقة الأندلس، والتي قامت فيها الآن دار الأوبرا المصرية ذات الجمال المتألق، وخلفها مباشرة جسر صغير، كوبري الجلاء،

الذي يربط مدينة القاهرة بالجيزة لتصبح «العاصمة الكبرى» ـ هذا الجسر كان يحمل اسم الراقصة الشامية بديعة مصابني والتي لا تعرفها الأجيال التي جاءت بعد ذلك، وكانت ذات شهرة في إقامة الحفلات، إلا إن كوبري قصر النيل كان أكثر وقعًا في فؤادي شخصيًّا، حينما عانيت من فشل ـ أو خيانة ـ لبطلة قصة حبي المبكرة في العاصمة خلال الخمسينيات، كانت حالات الانتظار الفقير ـ والرومانسي ـ هي الجسر الحقيقي الذي دفع بالرؤى والأمنيات إلى القفز في الهواء لتسقط في النهر، إلا إن السلوان كان في كوبري المعاهدة، وهو الجسر الذي أقيم عام ١٩٣٦ فوق ترعة بحر يوسف ليربط منطقة قريتي غربًا وشرقًا، وقريبًا منه تشمخ قناطر ديروط بالغة الجمال الهندسي المتعدد الترع والجداول التي تتفرع منها شمالًا وغربًا وشرقًا، كي أذهب إلى هذه القناطر ـ حتى الآن ـ كي أستقبل شروق شمس ديروط، مع قليل من ذكريات مراحل الصبيانية، والتي كانت أكثر دسامة ونشاطًا وتواصلًا من مرحلة القاهرة، حتى الآن، لقد كانت أم الجسور التي عبرت عليها، وامتلكت موقعًا للإقامة قريبًا منها...

كلمات لها معنى

سوف أنصحك نصيحة هي الحاسمة في حياتك، تلك التي أثرت في حياتي بشكل عميق ومؤثر، آه... لقد نسيتها الآن، سأحاول أن أتذكرها.

*

حاول ـ حين تسترخي فوق مقعد على الشاطئ ـ أن تظل عيونك تتهادى فوق المياه ذات الأمواج الناعمة، ثم عليك أن تنتبه أن ذلك لن يستمر طويلًا، دعك من العواصف والأعاصير وعيون زوجتك، أنا لا أقصد ذلك، ارجع إلى فراشك أفضل.

*

دعك من إحصاء ثروتك من نقود، وكن مثلى، أي تستتر في ظلال الصفر، الرقم الوحيد الذي لا ظلال له.

القرن.. وقرونه الأخرى

ما زلت أمعن ـ ضيق الصدر ـ في مسألة أن زوجتي هي قرينتي، وأنني: قرينها، فتجتاحني قرائن الاتهام ثم الإدانة في القضايا ذات الحيثيات العصرية المتواترة في الصحف والمجلات، مع أن القرين ـ بصفته الرفيق المصاحب (لم أقل الصاحب المرافق كي لا تكتمل دوائر الاتهام) ـ وارد في كل الصفات الزوجية الصافية الأمينة على حوائط وأوراق آثار الأقدمين خلال الحضارات المتعاقبة.

إلا إن الأمر يصبح هادئًا عندما نتذكر بداية ظهور قرون الفول الأخضر البلدي والبعلي، إشارة إلى متعة الأكل الطازج لهذه الحبوب المنتظمة الغضة ـ كالقصائد والموسيقى ـ داخل القرون، قبل أن تنضج وتصل إلى مرحلة الجفاف، ولعل اقتطاف قرون الفول من نباتاتها في الحقول أعمق تأثيرًا في النفس ـ والمزاج الإنساني ـ من شرائها أكوامًا صغيرة في كفة ميزان الباعة، وعليك ألا تغادر هذه اللحظة الصبيانية المفقودة الآن في القرون الحديثة، ولا سيما القرن الذي مضى من ثلاث سنوات، ثم ذلك الضاغط على أعصابنا الآن بما فيها من ويلات

الحروب والانفجارات والمذابح والاجتياح، والغم التاريخي الذي يبدو أن قرونه لن تنكسر أبدًا لنصل إلى مراحل الهدوء والألفة والمراوحة بين نفوسنا والبراري والمراعي والحقول الخضراء، لنرى ـ ونستمتع ـ بذوات القرون التي تهيم بفطرتها الحرة دون مشاكسة وتناطح هجومًا ودفاعًا، ذلك أن هذه الحيوانات ـ الثديية بالذات ـ تملك ثلاثة أنواع من القرون: قرون جوفاء يتوسط كل قرن عظم ينمو من الجمجمة كما في البقر والجاموس والأغنام والظباء، ثم لا تلبث أن تتفرع القرون إلى أشكال تذكرك بأغصان الأشجار الجافة المتداخلة كما في الأيائل، والتي في ثالث أنواعها: تتشعب القرون حتى تكاد تجذب كل الأنظار دون الانتباه إلى تكوين حاملها لتجمع بين قرون البقر والأيائل، ليكون قرن الخرتيت، وهو غير الكركدن الذي يكون قرنه ذو الشكل الاستثنائي الفريد: ناميًا فوق أنفه، إنه وحيد القرن والذي يمكن ـ بحمقه المعروف ـ أن يكون وحيد القرن العصري أيضًا، والذي يظل متأهبًا لمداهمة الجيران والأصدقاء تنفيذًا لرغبات غير مدروسة، الإشارة قد تعني ـ دون أن أقصد ـ بعض الحكام وحيدي القرن العسكري الدموي المروع، فوق الأنف ليحجب النظر، وداخل الجمجمة أيضًا.

وقد لقب الإسكندر الأكبر المقدوني بذي القرنين، قيل إنه سمي بذلك لأنه كان على جانبي رأسه خصلتان عظيمتان من الشعر تشبهان قرني الحيوان، أو لأنه بلغ بجيشه قطري الأرض، وقد أطلق هذا اللقب على كثيرين كالمنذر الأكبر والأقرن ملك اليمن، إلا إن الأمر يدخل في دائرة شديدة الحساسية ـ والحرج ـ حينما يكون القرنان صفة لشخص ما (دون أن يكون اللفظ صياغة لمثنى قرن) إذ إن القرنين نعت سوء

للرجل الذي لا غيرة له على أهله، إنه نعت مشهور بيننا دون أن نتجرأ فنكتبه أو نسجله، مع أنه مرصود في (المعجم الوسيط) بطريقة هادئة دون اقتران الأمر بالحرج، كما أن القرنين مرسومان بوضوح في كل التشكيلات التي تناولت إبليس زعيم الشياطين ذا النشاط الشرير المداهم للنفوس منذ الحادثة الشهيرة التي أودت بأمنا حواء وأبينا آدم للنزول من الفردوس إلى ذلك العالم المرهق، حيث ولدنا جميعًا فيه.

علينا أن نتنفس قليلًا لعلنا نجد من يستضيفنا في القرن الذهبي ـ ذراع البوسفور التركي ـ حيث تقع مدينة استانبول، والتي كانت بموقعها الفريد وجمالها الراقي عاصمة للإمبراطورية العثمانية في العصور الحديثة، وكان اسمها القسطنطينية في العصور الوسطى والقديمة، وهي الآن تضم كنوز الفن الإسلامي وآثار حضاراتنا رغم انتقال العاصمة إلى أنقرة عام ١٩٢٣، فإذا استعصى علينا أن نصل إلى القرن الذهبي بتاريخه وجماله فيمكن لي أن أشير إلى قرية القرنة، ذات الطبيعة الجبلية قريبًا من وادي الملوك (أشهر منطقة أثرية في العالم) في الجبل الغربي المقابل لعاصمة مصر القديمة طيبة، والتي أصبحت الآن مدينة الأقصر المعروفة، وتنتشر منازل قرية القرنة بين قبور الأفراد (وليست قبور الملوك والحكام) منذ عهد الفراعنة، وهي التي كتب عنها الروائي الراحل فتحي غانم عمله الشهير: «الجبل»، أيام أن حاولوا تهجير سكانها إلى منطقة أخرى بعيدًا عن القبور الأثرية التي يداوم الأهالي الحفر فيها بحثًا عن كنوز الأقدمين. وقرية القرنة الحديثة هي التي خططها ورسمها وأشرف على إنشائها المهندس المصري الشهير حسن فتحي، ومع أن تكوينات بيوتها عصرية وصحية، فإن الهجرة

النهائية لم تتم من القرنة القديمة إلى الحديثة حتى الآن، والمشهد ـ من بعيد ـ يتيح لك رؤية القريتين لتحس بما يعنيه التمسك برائحة المكان ذي السطوة المعروفة على نفوسنا نحن الشرقيين ـ والعرب ـ بالذات. وليس من السهل أن نبحث عن وسيلة للخروج من مأزق القرون دون الإشارة إلى مدينة القيروان التونسية التي أنشأها الفاتح العربي عقبة بن نافع في بواكير العصر الإسلامي، والتي تشتهر حاليًّا بصناعة السجاد المنافس للسجاد الإيراني، كما أن بالقيروان جامعًا ذا شهرة معروفة في جماليات بنائه وقبابه ومئذنته. وقد يؤدي بنا ذلك إلى نوع من المقارنة في هندسة إنشاء أشهر المساجد في كل دول العالم، وهو أمر لا نستطيعه، تمامًا مثلما حدث لي حينما جرني الموضوع إلى الأدب المقارن والتشريع المقارن، والذي جعلني ألوذ بقارون ـ أشهر وزراء الفراعنة المصريين، والذي ورد ذكره في القرآن الكريم ثلاث مرات، أقصد ألوذ ببحيراته في الفيوم ـ غرب وادي النيل ـ كي أتنفس في الهدوء الجميل المتسع استقبالًا لشروق الشمس والمبتسم في شجن لغروبها آخر النهار.

كلمات لها معنى

أكثر أعضاء الجسد حنوًّا وأمومة: الجمجمة حينما تغلق كل ثقوب أو نوافذ الخطر كي لا يصل الهواء إلى المخ ابنها أو جنينها الوحيد، الذي يستنيم داخلها ـ في أمان ـ إلى الأبد.

*

الأستاذ الذي دهمني ببحث في مجلة أدبية نقدية عن إبداعي الرائع في مثل هذه الكلمات، سوف أرفع عليه دعوى تعويض، لأنه وضع عنوانًا للبحث: مستجاب.. يتأبط شرًّا، وتكرر الإعلان به عن المجلة.

*

ليس صحيحًا أنك الأذكى، الأكثر دقة أنك الأقل غباء حتى الآن.

طبق.. و.. تطابق

خضوعًا لنزعة شخصية، وتطبيقًا لمراعاة مشاعر أهلي ـ وكل أفراد الطبقة التي خرجت منها، ثم خرجت عليها، حاولت أن أتفادى الإشارة للموقف المحرج الذي أطبق على صدري حينما أشارت لي زوجة خالي ـ في أوائل أيام وصولي للقاهرة قادمًا من الريف ـ أن أناولها ثلاثة أطباق من المطبخ، هذا المكان الضيق المختنق بالأواني والصحون، وظللت أسعى بعيوني باحثًا عن أي طبق دون جدوى، حينئذ داهمتني زوجة خالي ساخرة لتتناول ثلاثة صحون، لم أكن ـ خلال تلك الأيام المبكرة ـ قد قمت بتعديل القاموس الريفي: فالطبق في بلادنا يعني مباشرة هذا الاتساع المصنوع من خوص وسعف النخيل، ويتم على مساحته رص وتنظيم خبزنا الحميم ـ البتاو ـ لادنًا طريًّا أوِ مقمرًا ساخنًا، أما الإناء الذي تناولته ـ غاضبة وهازئة ـ فهو الصحن وليس الطبق، وبالتالي فقد اضطربت ـ في عقلي الواسع ـ النظريات السياسية والاجتماعية التي تناولت الطبقات دون الصحون، وكانت الطبقة التي أنتمي إليها قد استحوذت على لفظ البروليتاريا

تاركة الطبقات التي نعاديها (ونبحث عن كل أمراضها مع إسقاط أي امتياز إيجابي لها) تمرح بين البرجوازية والأرستقراطية، ورأينا فيها أوبئة الوصولية والانتهازية والأنانية والنفاق وممارسة أنشطة وأفعال تفشت ـ بلا أخلاق ـ في النصوص الأدبية والمسرحية وأفلام السينما ـ في ذلك العصر، دون أي محاولة منا لاختراق الجزء الراقي في أي طبقة منها، والمتمثل في إنجازات الفنون الراقية من موسيقى وتشكيل ولوحات وصناعات ودبلوماسية وعروض الأوبرا والباليه وصياغة البيوت والمدارس والمعاهد والمباني الدينية في المآذن والقباب والزخارف والآيات المتألقة في وجداننا الشعبي، ملاحظة سريعة من باب الاستدراك: إن تصميم هذه الأفكار سيحتاج إلى إحساس متمدين بالغ الرقي، أما تنفيذ هذه التصميمات فقد تقوم به الطبقة التي أنتمي إليها من ذوي القدرات الفذة في البناء والتشييد وإدراك المساحات والتحمل والاحتمالات، وخلال هذا التصادم الطبقي في هذه العهود ظل العنصر الأساسي المشترك بين كل الطبقات هو الطباق، نعم: إنه ذلك النبات العشبي المعمر من الفصيلة الأنبوبية ذات الزهور المركبة، أقصد نبات الدخان في أرخص أنواع السجاير، وفي أرقاها وأغلظها وأكثرها رونقًا: السيجار، والذي نادرًا ـ بل من المستحيل ـ أن تجد واحدًا من أهلي استخدمه إلا إذا زار أوروبا أو أمريكا ليعود مجللًا بافتخار خصوصية السيجار ـ بعض الوقت ـ ليعود إلى طباق السجاير والشيشة (ذات اللي) مع إضافة أصناف أخرى تضع الموضوع كله خاضعًا لتطبيق قانون المخدرات، مع أن الطباق لغة يعني المطابق، أي الجمع بين معنيين متقابلين عند

أهل البديع، مثل: يحيي.. ويميت، إلا إن الثقافة الحديثة ـ أقصد ثقافة الطبق الطائر ـ لم تعد تتوقف عند الموروث الحي من اللغة العربية، فأطبقنا عقلنا، وشفتينا، تمامًا مثلما نطبق طرفي الصحيفة لنركنها جانبًا بعد القراءة السريعة لمحتوياتها، مع أن التطبيق ـ الذي كان متوقفًا على الخبز ذي الاتساع أو الملابس النظيفة عند ترتيبها في مكان حفظها أو التعامل معها ـ هو ذاته فن التطبيق (علم التطبيق أفضل) الذي يعني ـ في بدايات المعرفة: إخضاع اللغة لقواعد النحو والصرف، ثم ـ بعد ذلك ـ إخضاع وتطويع المسائل والقضايا والسلوك والتعامل للقواعد العلمية ونصوص القانون والمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية.

إني أحس أن أمورًا عدة بدأت تحاصرني وتطبق على عقلي وفؤادي، مما أصاب قلمي بالطباقاء، والطباقاء تعني ـ كما في المعجم ـ من يريد الكلام فتطبق شفتاه، وكنت معتقدًا أن ذلك تعبير عن العنف الذي يمارسه زعماء العصابات أو ذوو السطوة الإدارية أو الانضباطية (من الضبط والانضباط)، إلا إن الأمر يظل واضحًا في تلك الطباقاء التي يمارسها ذوو القدرات الضاغطة من المذيعين ومقدمي البرامج في الإذاعة والتلفزيون، تسألني نجمة تلفزيونية في طباقاء واضحة: لماذا اخترت منطقة الصعيد لتكتب عنها قصصك ورواياتك، والإجابة تبدو سهلة: لقد قمت بتقسيم العالم ووضعته في طبق واسع من سعف النخيل أمامي: منطقتي سيبيريا وألاسكا والشمال المتجمد، أوروبا الشرقية ثم أوروبا الغربية، ثم منطقة الشام ـ حيث سوريا ولبنان والأردن، ثم شبه الجزيرة العربية، وبعدها منطقة الدلتا المصرية مع إضافة

سيناء إليها، وقبل أن أتحرك جنوبًا لمناطق أفريقية وآسيوية حتى استراليا، أحسست بأنني أصبحت أسير الإجابة عن سؤال طباقائي: وأن اختياري للصعيد موقعًا لكتاباتي سوف يطبق على صدري، فرفضت الإجابة كما رفضت أيضًا أن أمعن في أصابعها المتشبثة بأوراق رقيقة، أمعنت فقط في عيونها، لعلها كانت اللحظات النادرة في حياتي التي اخترقت فيها طبقات الوعي الشخصي، والتي كانت أكثر صلابة من طبقة الصخور الرسوبية، والتي تختلف عن طبقة الرمال المتحركة تحت سطوة العواصف التلفزيونية المفتعلة، وهو ما لا يعرفه الكثيرون من ذوي أو ذوات الوجوه اللامعة، حيث لا يدركون أن بنات طبق هي السلاحف، وأن الطبق ـ في علوم التشريح الطبي ـ هو الغضروف بين كل اثنتين من فقرات الظهر، وهو ما يخضع له واحد مثلي ـ بصفتي من غلاة المثقفين أو هكذا تبدو لنا الأمور ـ حينما يفوتنا أن بعضنا ينعم في (جهل أو جنون مطبق)، وأننا نمارس المطبَّق: هذا الشيء الذي يلصق به قشر اللؤلؤ حتى يصير كأنه لؤلؤ أصيل.

ومن الغريب أن الطابوق ـ أي صناعة الطوب ـ لم يرد التعريف بها في الموسوعات والمعاجم، مع أن اللفظ مصطلح وارد ويستعمل دون أي ضعف لغوي، وما ينتج من طوب يمتاز بتماسك جزيئاته وقلة المسام التي تحول دون نفاذ الأجواء الحارة جدًّا أو شديدة البرودة إلى المنازل التي تقام حوائطها بهذا (الآجر) وتكاد البيوت المصرية ـ الريفية بالذات ـ تستفيد من هذه الطبيعة الجميلة، وبالذات بيوت أهل النوبة ذات الجو ـ المعتدل في منطقة

بالغة الحرارة صيفًا، وهو ما يناسبني الآن كي أضع ذراعي تحت رأسي وأطبق عيوني، وأنام.

كلمات لها معنى

أمر يراه البعض غريبًا، كل أماكن إقامتي تكون الآن في الأدوار العليا، هل لهذا علاقة بالأدوار السفلى التي عشت في ظلالها ـ أو ظلامها ـ آلاف السنين المبكرة؟!

*

أجمل ما يمكن أن نستمتع ـ في هدوء ـ به، يكون دائمًا ـ ويستحسن أن يظل ـ غير خاضع للتفسير والتحليل.

*

إحساس لم أستطع طرده أو الاعتراف العلني به، أن أحفادي المتقافزين في البيت، على الفراش والمقاعد وأسفل المكتبة في صخب طفولي بديع، ألقوا في جوفي بسؤال شائك: لماذا يحدث ذلك بعد أن توقفت عن الإنجاب بمجرد ظهور الجيل الثاني؟!

*

أوزع ما أملكه من نقود ـ قليلة بالفعل ـ على كل جيوبي، حتى لا أضع يدي في أي جيب فأجده فارغًا خاويًا.

النجوم [مرة أخرى]

قد ينجم ـ عن مصاحبتك لي في هذه السطور ـ نوع من الهم، أو الحزن الحديث، الناجم عن حصارنا في المدن بالجدران ذات اللوحات والنوافذ والستائر، مع الأحلام والأمنيات المنسابة من الشاشات التلفزيونية الملونة.. والراقصة أيضًا، لتنغلق الطرق ـ دون أن ندري ـ بين عيوننا والآفاق الممتدة أشجارًا وتلالًا وزقزقة عصافير تتسلل إلى أعشاشها، لتبدأ النجوم في الظهور هامسة بالنور الخافت تنغيمًا موسيقيًّا يتسلل في الجوانح، ولذا فإن ما تراه الآن من ظاهرة ارتداء الأطفال للنظارات الطبية ناجم عن زوال العلاقة الطبيعية الساحرة بين العيون والنجوم، فالمدينة تخلو من القمر مهما تألق بدرًا وقصائد شعرية وأغنيات تتراوح في شجن العشاق، واندثر المنجمون الذين يراقبون النجوم حسب أوقاتها ومجالات حركتها ليدعوا معرفة الأنباء والتوقعات والاحتمالات بمطالعها وتركوا ذلك الأمر ـ المثير للخيال ـ للمعامل العلمية ذات الأجهزة الحديثة القادرة على التحليل بتشغيل العقل الجاف الذي يخترق كل المجالات دون إحساس أو مشاعر،

هل لهذا تتفتت الرؤى الشعرية القائمة الآن لتقع على الأرض صريعة انغلاق الآفاق الممتدة إلى هالات القمر والنجوم؟

لكننا ـ علاجًا لهذا الحزن الحديث، وابتعادًا عنه ـ قمنا بتوزيع نجوم الفلك السماوي على ذوي الشهرة البارزين ـ والبارزات بالذات ـ في فنون الغناء والتمثيل، فاتن حمامة نجمة لا تزال تملك تألقًا في الأداء رغم كثرة النجوم الأخرى التي تدور في أفلاك ـ جمع فلك ـ أقل تأثيرًا وأكثر ضجيجًا، إلا إن النجم الرجالي ـ الآن ـ غاب وراء ضباب لم يكن قادرًا على تخفيض رؤيتنا وإحساسنا أيام نجيب الريحاني ومحمود المليجي وأنور وجدي وعماد حمدي وعلينا أن نذكر النجم المؤثر ـ يمنحه الله طول العمر ـ محمود مرسي، وربما كان هذا الأمر وراء استئثار العظيمة أم كلثوم بلقب «كوكب الشرق» تاركة النجومية لغيرها.

وتعد الكهوف والمغارات والأغوار (جمع غار) منجمًا ملهمًا لمعادن ثمينة يحصل عليها الأديب المبدع إذا شاءت له ظروفه أن يعيش بعض الوقت في غورها المطل على اتساع العالم المذهل، وربما كان ذلك وراء هذه الأعمال الرائعة لفتحي غانم في «الجبل»، وصبري موسى في «فساد الأمكنة» وخليل قاسم في «الشمندورة»، نعم إنها روايات ظل الخيال المنطلق من الواقع يدفعها إلى آفاق الرؤى التي تكمن وراء قصائد محمود حسن إسماعيل وامرئ القيس وعلى محمود طه وأبو العلاء المعري ـ ذلك الضرير الذي ظل منجمه داخل اتساع عقله في الدنيا والآخرة، غير أن الإبداع ذا الخيال لا يحول بيننا وبين الانتباه إلى عبد الله النجومي ـ والذي رافق الملك المصري فاروق

السابق مباشرة على عصر جمال عبد الناصر، وسوف تجد اسمه على غلاف كتاب عن الحيوان دون أي ذكر له بأي تعريف في أي موقع مكتوب آخر، إلا إني ـ من الذاكرة ـ أعرف أنه كان برفقة الملك فاروق خلال رحلات الصيد في الصحراوات المصرية ـ الشرقية بالذات، وكان خبيرًا بسلوك الحيوانات بين التلال والجبال ومنحنياتها الصخرية: الغزلان والأيائل والضباع، وقد شغل مسؤولية حديقة الحيوانات الشهيرة بمدينة الجيزة عدة سنوات، وربما يكون عبد الله النجومي من عائلة عبد الرحمن النجومي القائد السوداني الذي انضم إلى ثورة المهدي (١٨٨١) ولعب دورًا مهمًّا في حصار مدينة الخرطوم ضد الإنجليز، ثم اختاره المهدي على رأس حملة كبيرة لغزو مصر في ذلك العصر الاستعماري، لكنه هزم في معركة توشكى جنوب أسوان عام ١٨٨٩، وهو ما لا يعرفه ـ فيما أعتقد ـ الذين يقومون الآن بمشروع توشكى لزراعة الصحراء المصرية في جنوبها.

إلا إن انطلاق النجوم من عقال التشبث البشري ارتباطًا بعلوها وارتفاع أمنياتهم فيها، لا يحول بيننا وبين إعادتها من أفلاكها للإشارة إلى نجم البحر المعروف بجلده الشوكي وتكوينه النجمي أي يشبه النجوم، والذي يغلب عليه استيطان المياه الشاطئية الضحلة، ويميل أصحاب الخبرة إلى إدخال مكوناته في طعام الباحثين عن القوة الجسدية بسبب ما يحتويه من فوسفور، وهو ما لا يتحقق في نجوم أخرى كالنجم القطبي ـ نجم حقيقي وليس مجازيًّا ـ ويتألق في آخر شمال الكرة الأرضية بصفته ألمع نجوم كوكبة الدب الأصغر في نهاية الليل الجليدي المشهور في كتب الذين أمكنهم الوصول إلى آخر

أطراف سيبيريا وألاسكا، إلا إن نجمة إبراهيم ـ الممثلة التي شاعت قدرتها المعبرة عن الشر، حازت موقعًا في نفوسنا المرتعبة حينما كانت تطل علينا بوجهها الناعم الشرس في أفلام سينمائية عديدة، دورها في فيلم «ريا وسكينة» لا يمكن لأحد منا أن ينساه، في حين أن نجمة بيت لحم ـ وهي زهرة من فصيلة الزنبق ـ لم يعد يذكرها سوى غلاة الموغلين في علوم النبات، في حين أنها اقترنت بالنجم الذي هدى الحكماء إلى المكان الذي ولدت فيه العذراء مريم السيد المسيح عيسى النبي، لم نعد نعرف نجمة المساء واكتفينا بمعرفة نجمة الزنبق ـ حتى نظل في دائرة منجم الصدق، في القول والكتابة، دون أن نلف وندور حول الثريا بنجومها اللامعة التي فتحت ذائقة المتعة في عيوننا، فلا نقع تحت صفة «المنجوم» وهي لغة شعبية كانت أمي ـ يرحمها الله ـ تصفني بها كلما أتيت فعلًا غير مريح، أو غير مقنع، أو تشوبه حالة الخروج على المعتاد من السلوك، حتى لو كان صدى لقصة أو رواية يراها المثقفون ممتعة، إنها محاولة ضرورية حتى لا ينجم عن سطوري إحساس جديد بالهم ـ أو الحزن ـ الحديث، بسبب انطفاء عيوننا عن الإمعان في النجوم، ولو لبعض الوقت أو لمرة واحدة تطالعنا فيها نجمة الصباح.. المبكر.

كلمات لها معنى

رغم تجاوزي نصف قرن من الزمن، ما زلت أعاني من أني لا أفهم من علم الجبر سوى الأمر الصادر كي أرضخ له.

*

الآن تمد يدك إلى جيبك لتخرج سلاحك للدفاع عن نفسك، ثم لا تلبث أن تنظر حولك كي تفك الورقة النقدية ذات الحجم الأكبر من الموقف ذاته.

*

أشار لي أن أنظر، في الأفق سربًا من الطائرات، فظللت فترة أمعن في الرمال باحثًا عن سرب من النمل.

*

كلنا نخاف من الجبال ونخشى المرور قريبًا منها، جرب مرة أن تصعد جبلًا وتجلس فوق قمته في استرخاء. الذين فعلوا ذلك أعادوا النظر في حياتهم كلها، لا تفعل ذلك بالمرة يا صديقي.

*

لماذا ينهمك أصحاب التجارب الإنسانية في مصادقة الكلاب؟

الصدف

لم أكن أدرك أن الإمعان في بعض الجزئيات ـ أو الذرات ـ قد يؤدي بي إلى موقف غير مريح، وغير قابل لأن أستنجد ـ أو أستجير ـ بالآخرين كي ينقذوني منه، فقد تصادف أن فكرت في أسباب إطلاق أسماء بعينها لها وقع في النفس وإيقاع في اللغة والنطق، على أشخاص وأماكن ونباتات وحيوانات، مثل النشوة والنشوى ونشأت والنشوء (والارتقاء) دون الوقوع ـ من باب المرح ـ في النشل والنشع والنشر، لكني لم ألبث أن هويت الدوران والتسلل إلى أسماء في عائلتي، إذ إن أول إنجاب لأمي وأبي كان بنتًا، نعم: أنثى ـ واسمها كمال، وهو اسم شائع بين الذكور، ولا يمكن أن يكون ذلك مشكلة إلا إذا تنبهت إلى أن المولود الثاني كان بنتًا أيضًا: إنعام، ثم لم يلبث الثالث أن جاء أنثى ـ يا للهول ـ في أسرة تنتمي إلى تكوين يحب الذكورة بالمعنى العظيم للرجولة: إنها صدف (بضم الصاد وفتح الدال)، وبعدئذ جاء المولود الرابع أنثى، وكانت «رابعة» دلالة على ترتيب إنجابها وعلى الإحساس السري بالبؤس أو الإحباط، ذلك أن أبي تسلل بأمي ذات

البنات الأربع وخرج بها ـ ليلًا ـ من بيت جدي ذي الغرف ـ لم أقل ذا الحجرات ـ الضيقة التي يقيم فيها مع أبنائه العتاة الأقوياء الذين أنجبوا كلهم أول مولود لهم: ذكرًا، وخارج القرية لجأ أبي إلى كوخ ـ أصبح بعد ذلك بيتًا ـ على بركة مائية أو طينية تطن في أبهائها الحشرات والضفادع وغابات النجيل مع بعض النخيل ـ أو النخلات أفضل، لتلدني أمي أنا، الذكر الأول المدلل المأمول المحبوب الذي انتظروه طويلًا.

بعد ذلك بأحقاب بدأت أنتبه إلى أن كمال ـ البنت الأولى ـ أطلقوا عليها هذا الاسم (كمال) ذا الإيحاء الذكوري دون أن ينتقص منه أن يكتشف الآخرون أصحاب القدرة على الفخر بإنجاب الذكر الأول أنها أنثى فور إنجاب أمي للذكر التالي، لكن الذكر جاء بعد سنوات طويلة مريرة من الإناث، إنعام ـ الثانية ـ بمعنى أنها جزء من النعمة، فماذا عن صدف؟

الصدف: جمع صدفة، ومعناها السائد المعروف بين كل أنواع الناس أن تلتقي بفلان من غير موعد أو ترقب أو توقع. لكن إذا ما أصاب الصدف فتح الصاد وكسر الدال: صَدِف، لينطلق الفعل فإنه يعني تصادم إحدى الركبتين بالأخرى أثناء المشي، فهو أصدف وهي صدفاء. فإذا استطعت أن تصدف أحدًا فقد نجحت أن تقنعه أو تجبره على الانصراف، وعندما تخلو الصُّدفة أو المصادفة من فجائية الفعل دون توقع، وتصادف أحدًا من دون هذا المعنى المعروف فسوف يدل على الموازاة والمحاذاة: في السير أو التفكير أو الحصول على المأمول من جوائز أو شهادات أو مؤهلات (أو قمة نجاح

قصة الحب بينكما على أن تكونا ذكرًا وأنثى)، لكن الأمر قد يتطور عندما تتصدف مع آخر: أي تتعرض له أو تعرض عنه، دون الوقوع في مأزق الحياة الذي قد يحيلك إلى الإصابة ـ حماك الله ورعاك ـ بالصُّداف الشدقي: تلك البقع المتكلسة الصلبة غير المنتظمة في الفم أو الشفتين ـ وبالذات جانب الفم من ناحية الخد، وقد يتناثر هذا الصُّداف حتى يصيب حليمات الثدي بالتضخم، لكنك تستطيع أن تفتح مجالًا أكبر حينما تتماوج عيونك في نظرة واسعة إلى صدف الطبيعة الممتد جبلًا أو تلالًا ترتفع متراقصة ـ آخر النهار ـ تحت توافق مع ضوء الشمس المتهادي غربًا، وإذا رغبت في بعض الشراسة فإن صدف السلحفاة الذي يغطي جسدها القديم قد يقطع بحراشفه المعروفة ليونة الغروب الهادئ، مع أن هناك صدفًا من نوع آخر ـ وأكثر صلابة ـ غشاء للدُّر: كنز البحر الذي اخترق حكايات وأساطير الأقدمين، وله شعبية في منطقة الخليج العربي أكثر من أي منطقة أخرى، أما إذا أنثت الصدف ليصبح صدفة فإنها ـ دون اختلاف بينهما: فإنها المحارة بالذات، والتي قد يكون بداخلها درة أيضًا، إلا إنها، هذه الصدفة دون المحارة ـ تطلق على الأذن الخارجية، غير أني أطمع في أن أهمس لك أن الصدوف صفة للمرأة التي تعرض وجهها للناظر ثم تصدف، وهذا أهون من أن أكشف لك أن الصدوف أيضًا تعني الأبخر، تلك الصفة التي نطلقها على من أصابت فمه رائحة غير مريحة، وبالتالي فإنه يصبح مناسبًا ـ لي أنا بالذات ـ أن ألجأ إلى صدفتي الخاصة، والتي أصابتها الثقافة المعاصرة بتعبيرات ومصطلحات أدت بكثير من الدرر إلى الهروب في الأغوار

البعيدة، لتترك لي فرصة التساؤل ـ بعض الوقت ولو مرة بين أسبوع وآخر ـ لماذا أطلقت أمي وأبي اسم صدف على أختي الثالثة، مع أن هذا الاسم ظل نادرًا بين أبناء عائلات في قريتي (ديروط الشريف ـ أسيوط) الواسعة الرحبة ومقصورًا على بنت أو بنتين على الأكثر، ولم يعد أحد يستخدمه الآن حتى للسلاحف الحديثة، لكني أزعم أن أغنية للمطرب الراحل عبد الحليم حافظ حملت هذه الصدفة، كما أن عائلة لا أعرف منبتها ولا الموقع الذي ترعرعت فيه لها اسم جميل وغريب: المصادفة، ومنها أديبة روائية حازت موقعًا متميزًا يؤدي بها إلى شهرة تثير الضغينة، ولذا فسوف لا أدون اسمها هنا، مكتفيًا بأن «صدفا» واحدة من مراكز محافظة أسيوط أيضًا، حيث يصبح ملائمًا لالتقاط الأنفاس لأستريح في صدفتي بعض الوقت.

كلمات لها معنى

أمر غريب: أن الغراب نادرًا ما ينعق أو ينعب وهو يطير، ما يكاد يستقر على أغصان الشجر حتى يبدأ في ذلك النعيق.. المقلق.

❊

الحوائط تفقد صلابتها حينما تستريح على صدرها لوحة جميلة.

❊

حتى أصابع القتلة أو النشالين تتحول إلى أنامل بالغة الرقة والنعومة والدفء حينما تلامس وجه طفل أو.. أصابع أنثى.

❊

في القطار التقيت بها ـ وبعد أربعين عامًا من الفراق ابتسمنا ثم لم تلبث ابتسامتنا المرحة أن شابها اضطراب ناجم من شراسة الشعر الأبيض المظلم فوق رأسها.. ورأسي.

*

الليل إذا عسعس إنما هو يسعى كي يصبح سلوانًا لك، النهار لا يمكنه أن يفعل ذلك.

أطواق الطاقة

ظلت الطاقة ـ تلك النافذة البدائية الصغيرة في بيتنا الريفي ـ تجذبني خلال ليل الصمت والحركة الناعمة للنسيم ـ لأنظر منها إلى الغيطان الممتدة على شواطئ البرك والمستنقعات وغابات قصب السكر والأذرة وقدرات أبو زيد الهلالي الشجاع الباسل، وهو ما لم تمنحه لي كل أنواع النوافذ ذات مصاريع الشبابيك والستائر في كل المدن بعد ذلك، حتى بعد أن داهمني «أينشتاين» ـ هذا العالم الألماني الأمريكي ـ بنظريته التي ربطت الطاقة بمحصلة ضرب الكتلة في مربع سرعة الضوء لتتوالد القنبلة الذرية التي دمرت هيروشيما ونجازاكي، لتستسلم اليابان بعد ألمانيا إنهاء للحرب العالمية الثانية، وتركتني هذه الطاقة أحاول أن أفرغ محتوياتها الساخنة في الفؤاد داخل رسائل العشق والغرام: الأساس الإنساني في الإبداع الأدبي، مع أن هذه الطاقة ـ نافذة بدائية أو نظرية علمية ـ التفت طوقًا مبكرًا حول وسط «مفيدة» راقصتنا الريفية التي هزت أجناب ذكرياتنا الصبيانية والرجولية بصفتها أجمل من امتلك

اهتزازًا أنثويًّا في تاريخ قريتنا، ولذا فقد جاء ابن حزم ـ بعد دخولنا مراحل الإدراك الثقافي خلال الأحقاب التالية ـ ليختصر الأحلام والأمنيات والتجارب في «طوق الحمامة» دون استبعاد طوق مفيدة المشار إليه، وتحريك أي طوق لغويًّا يؤدي إلى الطاقية الشهيرة بكل أنواعها في مختلف بلادنا العربية ـ والشرقية أيضًا، تلك التي تصنع من الصوف أو القطن أو الكتان لتصبح غطاء للرأس، والتي ـ هذه الطاقية ـ تشير بشكلها وإشارات الزخرفة والألوان في خيوطها إلى انتماء صاحبها، وفي بلادنا المصرية ـ كمثال ـ نجد أن الطاقية النوبية تحمل تكوينات متداخلة في جمالية بالغة الروعة، وهو ما لا يتوافر في طواقي المناطق المتعددة في صعيدنا المصري، بل وتتحول إلى تكوين أبيض خالص وبسيط إشارة للبراءة والنقاء في من يميل إلى إعلان انتمائه الديني، كما أن الجماعات البشرية المتنقلة المتحركة دون ثبات في الصحاري والجبال المصرية والسودانية: مثل الغجر، والنور، والحلب ـ مع أهمية فتح الحاء واللام ـ تستخدم كل منها طاقيتها ذات الإشارات اللونية الدقيقة الرقيقة، التي تصنع تناسقًا فطريًّا بالغ السلاسة والتواصل الفني مع أبناء الوادي ـ الذين أنا منهم، وهو ما رأيته مختلفًا عندما تواصلت رحلاتي في طواقي العبابدة ـ وهي قبائل مستقرة في الصحراء الشرقية ـ ذات اللون الواحد والتكوين المشرع في فروسية من الأمام فوق الجبهة مباشرة. ولقد أدى بي ذلك أن اقترحت على أساتذة التراث الشعبي أن يدرسوه ـ مع باقي إشارات الملابس الأخرى على باقي الجسد، وخصوصًا أننا في معظم المناطق

الشعبية المصرية بدأنا نتخلى عن الزي الشعبي الموروث تحت سطوة الملابس العصرية الوافدة ـ غازية لنا ـ من الغرب، حتى إن الطاقية بالذات بدأت تنزاح أو تتطاير أو تندثر من فوق رؤوس الموظفين، ساحبة معها كل أنواع الملابس الأخرى.

وأخطر من استخدم مصدر الطاقة والطاقية والطوق هم جنود الأمن حينما يحاصرون ـ أقصد يطوقون ـ مناطق الخارجين على القانون، وجنود الجيش تطويقًا لمعسكرات الأعداء، والأساطيل ذات البوارج الضخمة غزوًا للموانئ والمواقع البحرية، وطاقية الإخفاء التي ارتداها أحد أبطال «ألف ليلة وليلة» لتخفيه عن عيون البشر فيحقق ببساطة ـ ودون خوف ـ أمنياته وآماله في الحصول على المال والغذاء والسلوك الحر الذي يشتعل بالرغبات التي جاءت ـ بعد ذلك ـ في أفلام سينمائية. أشهرها ما قام به بشارة واكيم ـ بعد عثوره على طاقية الإخفاء ـ ليصل إلى ما يريد ـ وعلى رأس ما يريد: الراقصة الشهيرة: تحية كاريوكا، لكنه يجد نفسه موضع الخيانة والغدر ممن يحيطون به، فيمزق الطاقية ويعود خاويًا وخالصًا إلى منزله. وقد أنتج هذا الفيلم المصري عام ١٩٤٤، فحقق نجاحًا، فقام مخرج آخر بإعادة صياغة الحكاية في «عودة طاقية الإخفاء» بعدها بسنتين مستخدمًا بشارة واكيم مرة أخرى ومستخدمًا الممثلة أميرة أمير بديلة لتحية كاريوكا، ثم تناثرت طاقية الإخفاء في مشاهد سريعة إثارة للمرح بين الناس في مواقف مسرحية أو إيحاءات حوارية في مسلسلات التلفزيون وقصص الأطفال.

إلا إن أهم كائن حيوي استولى على التطويق كانت الحية، يقال: تطوقت الحية، أي التف جسدها الثعباني تمهيدًا لأن تأخذ موضع الهجوم الدقيق الشرس على الضحية، وشاءت بي ظروف العمل في الصحراء أن أسمع حكايات من جنود سلاح الحدود ـ وكلهم من أبناء النوبة ـ عن القدرات الفذة التي تستخدمها الطريشة حينما تلتف بسرعة مذهلة حول نفسها ثم تقفز من فوق الرمال اختراقًا لواحد من هدفين: الهدف الأول وجه الجندي الممتطي الجمل، والهدف الثاني ـ الأقل قيمة ـ وجه الجمل ذاته، في الحالة الأولى يضطرب الجندي قائد الجمل فيفقد السيطرة على الجمل. وفي الثانية: يضطرب الجمل ويمكن للجندي أن يسيطر على الجمل، والطريشة نوع من الحيات بالغة الشراسة والمكر والخداع، وتعيش في الصحاري فقط دون مناطق الزراعة أو الغابات، وهذا ما جعل كثيرين يطلقون على الطريشة صفة «المطوقة» فقط، في حين أن يحيى الطاهر عبد الله استخدم الطوق ـ بمعنى الحصار ـ موازيًا للإسورة ـ أي السوار الذهبي في روايته الشهيرة.

ومع ذلك فإن أنواع الحيوانات والحشرات والزواحف المطوقة نادرًا ما تظهر في النص الأدبي ـ العربي بالذات، في حين قامت نمور بتطويق بطل «ثلوج كليمنجارو» في خيمته لـ«أرنست هيمنجواي»، كما أن بحارًا قائدًا لسفينة صيد هاجمه حوت مما أدى به إلى فقدانه لإحدى ساقيه، فظل بقية عمره يسعى في المحيطات والبحار بحثًا عن «موبي ديك» أي هذا الحوت، حتى عثر عليه فيَ جنوب المحيط الأطلنطي، وقام بتطويقه مع معاونيه حتى بدا

الحوت وكأنه استسلم، ليقفز البحار المنتقم على ظهر الحوت الذي يندفع به إلى آفاق ـ أو أعماق ـ البحار، إنها رائعة الروائي الأمريكي «هيرمان ملفيل». ومن الغريب أن الذي قام بالدورين في هذين الفيلمين كان «جريجوري بيك»، وقد قرأنا وشاهدنا في روايات أخرى محاصرة النمل أو تطويق القرود أو مطاردة العفاريت أو هيمنة الخفافيش أو التفاف العناكب والعقارب على معسكرات جنود أو معتقلات أو سجون أو أسوار حدائق أو مساكن وكهوف مناطق سكنية، ربما لأن خيالي ـ وثقافتي ـ تم تطويقها أيضًا ـ بأنواع عديدة من الكائنات الغريبة، التي حالت بيني وبين أن أجد طوقًا شرقيًّا أو عربيًّا أستخدمه في النجاة من هذه الأمواج الهادرة، حتى لو كانت فدوى طوقان من أشهر شاعرات العصر العربي الحديث.

كلمات لها معنى

الهم والغم والحزن تدفعك للخلف، أو للخوف أو للاضطراب أو للأمام ـ حقدًا أو دفاعًا عن النفس، الفرح والسرور والارتياح يدفعك للإحساس بالمتعة والرضا: إلى الأمام فقط.

*

لماذا تكثر لحد الانتشار كتابة الذكور للمذكرات أكثر بمراحل عن الإناث؟

*

عليك أن تلقي نظرة ـ بريئة ـ إلى مدارات الحظ التي ننشرها يوميًّا ـ وكل صباح في الصحف والمجلات، ابتداء من السرطان والأسد والقوس والحوت وانتهاء بالعقرب والدلو والثور، لماذا لم تستطع الزهور والعصافير والفراشات أن تجد مدارًا واحدًا بين كل هذه المدارات.

الحلبة والحليب

خلال حالات الشغب ـ أو التمرد ـ الطفولية: كانت أمي ـ وأمك أيضًا ـ تقوم بتهديدي بأن تسقيني الحلبة إن لم أمتثل لأوامرها، وقضيت دهورًا حتى اتضح لي أن هذه الصياغة المريرة بالعقاب تنسحب في جميع أركان حياتنا المتناثرة: المدارس الابتدائية المبكرة تمهيدًا لمراحل مدرسية أخرى غير مبكرة، فترات الرياضة الصباحية، مناطق أو أقسام الشرطة والأوراق الرسمية، أثناء جني القطن أو جمع كيزان الذرة علنًا وسرًّا، التسلل إلى دار السينما حتى لا يعرف أهلنا ـ في تلك الأيام ـ أننا نحب الملاهي، وأحيانًا كانت كلمة «الحنظل» تحل في صيغة التهديد مكان الحلبة. هذا النبات ـ الحلبة أقصد ـ الذي تتطلب الدراية به بعض النضج كي تفرق بينه وبين نبات البرسيم، فهما متشابهان تمامًا، وإن كانت أوراق الحلبة الخضراء الغضة تسري فيها خطوط ناعمة لا يسهل إدراكها، كما أن صفرة تحيق بأزهارها بالغة الرقة، تمهيدًا للنضج إنتاجًا لبذور الحلبة المرة الشهيرة، والتي يعترف بها مختلف الأطباء والمعالجين والدجالين والمهيمنين على شؤون

بيوتنا؛ علاجًا لأنواع عدة من الأمراض، ويذكر داود الأنطاكي في «تذكرة أولي الألباب»، مجموعة من تلك الأمراض تحتاج إلى كل التخصصات الطبية «تحلل سائر الأورام، ومتى طبخت بالتمر والتين والزبيب ومزج ماؤها بالعسل، أذهبت أوجاع الصدر المزمنة والقروح والسعال والربو وضيق التنفس، كما تحلل ـ أي تخفف ـ المغص» و«الجلوس في ماء الحلبة بعد نقعها يسهل الولادة للحوامل»، ومع زبيب الجبل تمنع تولد حشرات الجسد (ولا أحب أن أسجلها هنا)، كما أن الحلبة إذا نقعت في ماء الورد عالجت الدموع والحمرة وبقايا رمد العين، مع أهمية دقيق الحلبة الذي يصلح الكلى وينشط الكبد، وعشرات الأمراض المختلفة الأخرى في الفم والبلعوم والشرايين والأهداب والآذان والعنق والركب (جمع ركبة)، وأعضاء عدة ليس من السهل الوقوع في مأزق الكتابة عنها، حيث لا بد لنا من الخروج من الحلبة المريرة المعالجة والمنتشرة مشروبًا ذا طعم جميل يميل إلى المرارة في البيوت والمقاهي والنوادي في بلادنا ـ إلى الحليب الذي تحس بنوع من المتعة المبكرة عندما تنطق لفظه. فالحليب لبن مبكر سلس في فترات طفولتنا عندما ينساب من ثدي الأمومة الدافئ في أفواهنا ـ قبل أن تلتاث هذه الأفواه بالقهوة والشاي والكركديه والشعارات والاحتجاج والشد على النواجذ غضبًا، وقد يعني الحليب البراءة والتي يمكن لك أن تحس بها ـ دون لف أو دوران أو مداهنة عصرية ـ إذا ما زرت منطقة حلايب وشلاتين في جنوب الشرق المصري قريبًا من الحدود السودانية. وقد يكون ذلك اللفظ البريء مصدرًا وراء مدينة حلب السورية المعروفة شمال غرب

الشام، وكانت لها شهرة قديمة في الألف الثانية قبل الميلاد، حيث ازدهرت باعتبارها واقعة على طريق القوافل الرئيسي المتجه نحو أرض الرافدين ـ العراق الآن، وكانت مركزًا لمملكة الحثيين، ثم دخلت مجال بداية الازدهار العربي خلال القرن السابع الميلادي. وظلت حلب عنصرًا أساسيًّا في ظروف الاستعمار الأجنبي للمنطقة العربية، السلاجقة والأتراك والصليبيين والمغول والعثمانيين. وقد اشتهرت مدينة حلب بإنتاج الحرير والمنسوجات القطنية والصوفية، والإتجار بالجلود والفاكهة. وأطلق عليها العرب لقب «الشهباء» لسموها وعلو صيتها وشهرتها، والتي وصلت أوجها بفضل أحد أبنائها ـ الذي ولد ونشأ فيها ـ ثم اكتمل نموه ووعيه بالأزهر الشريف في القاهرة، ليكون البطل سليمان الحلبي الذي قام بقتل الجنرال «كليبر» قائد الحملة الفرنسية على مصر فور عودة قائدها الأصلي نابليون إلى فرنسا، وعوقب هذا البطل العربي الحلبي ـ فور محاكمته عسكريًّا ـ بالإعدام صلبًا على الخازوق بعد إحراق يده اليمنى، ليلقى بجسده بعد ذلك ليكون طعمة للعقبان والغربان، وما زال خنجر سليمان الحلبي الذي طعن به القائد الفرنسي محفوظًا في مدينة كركاسون بفرنسا.

ثم يدخل الحلب معنى آخر حين يقال: حلب الدهر أشطره، أي جرب أموره المختلفة خيرها وشرها، فهو حالب، وهي حالبة. وأعتقد أن ذلك يعني أنه ـ وأنها ـ تحت هذه الصفة الحالبة، أصبحا صاحبي خبرة، فإذا قيل «احلبوا معهم» أي كونوا أنصارًا لهم، وبالتالي فإن حالبت أحدًا فإنك تباريه ـ أو تناصره وتعاونه، فإن

تحلب المائع ـ أي فاقد الصلابة ـ فإنه يصبح سائلًا، ولذا فإن العرق إن تحلَّب فإنه يسيل على الجلد أو البشرة الإنسانية، فإذا ما تحلب الفم يكون الروال مقصودًا، لكن العين إن تحلبت فإن الدموع تبدأ بالتعبير عن الحزن والشجن، مع أن العيون قد تتحلب ـ دموعًا ـ وابتهاجًا أيضًا.

وقد حاولت تفادي الاستحلاب بصفته مصدرًا مقلقًا يتجاوز ما قد يأمر به الأطباء من استحلاب بعض الأقراص العلاجية لالتهاب الزور أو الحنجرة، أو ضيق التنفس، لكن الذي استشرى في مختلف المجتمعات هو استحلاب مواد مخدرة مميتة مثل المورفين والأفيون. وبالتالي فإن استحلاب الذكريات ـ هروبًا من هذه التعاسة المريرة ـ أفضل حينما أجد نفسي على شاطئ نهر النيل فتقوم الذاكرة باستحلاب قدرتها لتشع في الوجدان شجنًا يتسلل من حياتي المبكرة وسط الحقول وعلى شواطئ الترع، فأزداد اختناقًا ـ تحت سطوة هذا الاستحلاب ـ من جو المدينة الضاجة الصاخبة ولو اكتسبت الهدوء.

كلمات لها معنى

لم أفطن لذلك ـ بالرغم من ذكائي، الحق يتكون عندنا من حرفين الحاء والقاف، وهذان الحرفان بالذات لا يمكن نطقهما في اللغات الأوروبية والأمريكية.

❋

كل الحيوانات المرنة النشطة الجميلة: لا تنطح ولا تعض وتمعن في الأفق كثيرًا: الغزلان والظباء والشياه (دون الخراف) والأرانب وكل الأمهات حينما يصبحن جدات.

*

الأبواب التي تصدر أصواتًا مقلقة عند فتحها، تعبر عما يجيش بصدرك إزاء عائلتك، أو ما يجيش بصدر عائلتك ضدك.

*

الفرق بين الليل الطويل والقصير: الهم والغم والقلق، عناصر تعويق حركة الزمن فيهما.

القميص.. والمقموص

ظللت دهورًا أتقمص شخصيات لأقوم بدورها الرائع الممتع: أبو زيد الهلالي سلامة أثناء انسيابه من ترانيم ربابة الراوي الممتزجة بانطلاق لسانه وملامح وجهه في الآفاق الصحراوية لمصارعة الزناتي خليفة، عنتر الفارس العتيد الذي احتواه جسد وكيان سراج منير تمثيلًا ليحقق حلمه ـ وحلمي أيضًا ـ في الوصول إلى عبلة، طرزان المتقافز مع أبناء الغابة بين أشجار تتراقص قرودًا تتحدى الرياح والأعاصير. ثم لم ألبث ـ مع التطور الفكري ـ أن هدأت خواطري في الإمعان الرقيق الدقيق في عذاب عماد حمدي لأتقمص دوره مع شادية وماري كويني، بعدها جذبتني تحية كاريوكا عدة ليالٍ في سخونة أو عذوبة مواقفها المتوالية مع نجيب الريحاني وكمال الشناوي، وحاولت أن أتقمص أي دور ليوسف وهبي فاتضح لي أني لا أتوافق معه، وأن أسمهان كان يجب أن ترحل موتًا دون أن تتوافق معه أيضًا، وكان الأجدى أن أخرج على كل هؤلاء في الوادي الذي تقع فيه قريتنا ـ ديروط الشريف ـ لأزيح جانبًا عمر

الشريف حتى أنفرد بفاتن حمامة، والتي لم تلبث أن ابتسمت لي في حب أخوي لا يصلح ولا يتناسب مع ما أضمره. وكانت النخلات السبع تتهادى مع النسيم في ساحة بيتنا المبتسم فوق تعاريج البرك والمستنقعات خارج القرية، وبالتالي فقد نزعت عني قميص الأدوار كلها لأضطرب حين مشاهدتي لأفراد متسللة من الحقول: اللصوص والذئاب والثعالب والكلاب والنموس أو الأنماس (جمع نمس) مع إضافة القطط والضفادع والجرذان والعقارب والثعابين وبعض الطيور الشريرة حيث لم ألبث ـ خروجًا على ما ارتديت من تقمص ـ أن بدأت أكتب خطابات غرام بديلًا لخيول وأشجار وأسلحة لا أمتلكها، ولا أجيد استعمالها إن امتلكتها، وهو ما أدى بي إلى أن أشعر بسخرية مريرة ـ ومريحة ـ إزاء كل ما مر في حياتي المبكرة ـ لفقداني الشجاعة والقدرة على المواجهة أو المداهمة في أكوام قمصان مهملة على شواطئ وصحاري وجبالي النفسية، دون أن أدرك أن الدابة حين تقمص فإن ذلك يعني أنها بدأت تنفر وترفض وتحتج على ما يجري، ثم لا تلبث أن تضرب الأرض بأرجلها. مع أن القمْص ـ في معنى آخر ـ كما جاء في المعجم ـ يؤدي إلى أنها تجري أو تعدو في مرح ونشاط، لكن البحر حين يقْمُص ضد سفينة فإنه يحركها بموجه المضطرب، تمهيدًا لأمور أخرى قد تحدث بسبب العواصف، ذلك أن التقمص في الماء يعني التقلب للانغماس ـ أي الغرق في الأعماق.

وأعظم قميص له دور إنساني مؤثر كان قميص النبي يوسف عليه السلام حينما راودته عن نفسه زليخة زوجة العزيز التي هو

في بيتها: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ». ومع أهمية العبرة الأخلاقية في حادثة قميص يوسف فإن القيمة التعبيرية بالمفهوم الأدبي لا بد أن أقف أمامها كما حدث لي مرات من قبل، ذلك أن بعض كتاب القصة أو الرواية كثيرًا ما يلجأون إلى وسائل تعبير بالغة الاستقطاب الفاحش، لأنواع من جماهير القراء لا يملكون الدروع والحصانة النفسية، حين يستقبلون ـ في حرية وشجاعة ـ مثل هذه المواقف، وهو ما يؤدي ـ في حالات عديدة ـ إلى تدخل السلطة القانونية حماية للأخلاق من تعبيرات وأحداث تؤذي المشاعر، ولو انتبهوا بشكل جيد إلى هذا الوصف الأنيق الراقي الذي ورد في القرآن الكريم، لأدركوا المعنى الحقيقي للتفاعل الأدبي الراقي أيضًا، دون النظر إلى تلك الشهرة التي قد تتحقق لهم بالأسلوب ـ عذرًا ـ الرخيص. ولعل معظم أشهر أدباء النصوص القصصية ـ في العالم العربي ـ وغير العربي ـ حققوا مجدهم بالانتباه الجيد للتعبير المشار إليه عن حادث قميص يوسف.

وعندما تشدد الفعل الماضي ليصبح «قمَّص» فإنه المبالغة في التعبير عن حالتين متعارضتين: قمَّص القميص: أي ارتداه ولبسه، أما قمص فلانًا: أي ألبسه القميص، وخروجًا على القميص الذي هو ما يرتدى، فإنه القميص أيضًا غلاف القلب، والمشيمة تلتف حول الجنين، وكنا في زمن غابر قد شهدنا مرة أو مرتين بعض من انتصر على خصمه فألحق به إيذاء بطريقة استعراضية، حيث يكبله ـ أي يقيده ـ جالسًا على مسطح

عربة، وقد خلع عنه قميصه ليلتف حول رقبته وجسده. وهو مشهد تخلصنا منه في بعض مجتمعاتنا منذ ما يقرب من نصف قرن، وكان يقال إن المنتصر قد وشم هذا المغلوب. واعتقدت أنها جاءت من الوصم لا الوشم، لكن وقوعي في لفظ المشيمة وأن مرادفها القميص يعيدني إليها الآن، لا سيما أن القمصة تعني مباشرة البعوضة حين تطير فوق الماء، بل إن المشيمة قد تأتي من الشامات التي هي علامة في البدن يخالف لونها اللون السائد في جلد صاحبها.

أما «التقامص» فإنه التسابق في الجري، وهو ما تعودنا على مشاهدته في مباريات العدو بين العدد الكبير من الشباب للوصول إلى الهدف، والقُمُّص بصفته أحد ذوي المراتب الدينية في الكنيسة المسيحية، فإنما أصله اللغوي: القمس ـ بالسين لا بالصاد، واحتل وقع حرف الصاد محل حرف السين في النطق، ثم لم يلبث أن أصبح لفظ القُمُّص هو المعهود نطقًا وكتابة الآن، مع أنها وردت من اللغة اليونانية ومعناها «المدبِّر»، وهو أعلى من القس، وجمعه قمامصة، بصفته لفظًا منتشرًا في التناول المصري لبعض رجال الدين المسيحي.

لكن ما لم أجده في المعجم أن بالقمص معنى شعبيًّا معروفًا، حيث يقال إن فلانًا «انقمص» ـ على وزن انفعل، أي فشل في تحقيق هدفه سلوكيًّا، أو منطقيًّا في التحاور، أي عدم إقناع الطرف الذي يود أن يستفيد منه، فيحس حينئذ بالألم والضيق والفشل، إنه ينقمص، وكثيرًا ما كنت أسمع واحدًا من ذوي الشأن ينبه من يشكو أن يستمع إليه جيدًا ولا ينقمص، وربما كان هذا الانقماص إحساسًا واردًا عند زليخة ـ زوجة العزيز ـ عندما باءت بالفشل في مسألة قميص يوسف،

لنرث هذا الانقماص منفصلًا عن الحادث، أو هكذا يجب أن ننظر للأمور، كي نحافظ على هذا اللقب الذي نميل إلى إضفائه على من يتمكن من الهيمنة على منطقة عمل لنطلق عليه «أبو القمصان» دون أن ندري السبب، وحتى لا يظل أحدنا مقموصًا.

كلمات لها معنى

يا لهذا الجمال الرقيق الذي يشع من المياه الهادئة الساكنة، إياك أن تجعلها تستمر في سكونها، إياك...

*

أكثر الناس بعدًا عن كتابة الخطابات الغرامية المتألقة: من يكتبون المعاهدات الدولية.

*

مع أهمية علامات التعجب والاستغراب: يقوم القمر بدور مؤثر في قصص غرام الأصدقاء، مع أنه مذكر، والشمس مؤنثة.

*

الحديد والنحاس والألومنيوم، وحتى الرصاص والماغنسيوم والكوبالت واليورانيوم ـ وكل عناصر المعادن ـ تؤدي مهمات واضحة في الأرض والسقف والحوائط والفراش والنوافذ والمواقد والأفران، عدا الذهب، إنه لا يقوم بأي دور مؤثر في حياتنا، ولا يزال الذهب هو الأكثر استمرارًا وشيوعًا، دعك من البلاتين فإن معظمنا لا علاقة له به.

القنديل.. والجندول

بينما ظل المثقفون العرب يتألقون بأضواء الحوار والأفكار حول قنديل الرواية - يحيى حقي، احتفالًا بتاريخ مولده المئوي في القاهرة: قامت أنامل البيئة الريفية التي عشت فيها المليون عام الأولى من عمري بانتزاع «قنديل أم هاشم» من المؤتمر ليكون قنديلنا الآخر والأساسي، الذي لم نطلقه على أي مصباح، قنديل الأذرة الشامية، أو كوز الأذرة في لغة أهل المدن، غير أني - عشقًا لقنديلنا الذي أدمنت انتزاعه من حقولنا وحقول الآخرين - فوجئت بأن المعاجم ودوائر المعارف توقفت عند القنديل ذي الأنوار، دون القنديل المشوي ذي الصفوف المتوالية من الحبوب الغضة اللينة اللدنة، حول وفوق عظام الكوز، وحاولت أن أجد أي أثر في صياغة أخرى، كأن يكون القنديل وراء الجندول، الذي كان عنوانًا معروفًا وجميلًا وشهيرًا لقصيدة شاعرنا علي محمود طه، والتي انتشرت بين كل جماهيرنا العربية حينما شدا بها محمد عبد الوهاب العبقري البارع في لحن ساحر متماوج، فإذا بالطامة الكبرى أن أجد الجندل بمعنى الصخور

التي تعترض مجرى الأنهار، وتُسمى خطأ بالشلال ـ وهو ما ورد في معجم الجيم الكبير، وسبب التقاء القنديل بالجندول، أننا نعاني مأزق نطق الجيم المعطشة لغويًّا في الريف، لتتحول إلى قاف فاقدة الخصوبة القديمة كما أن هذه القاف ذات الخصوبة في القلم أو ذوي القربى في لغتنا الفصحى والريفية، تتحول في المدن إلى «الألم» و«زوي الأربى» كما هو منتشر ومعروف، ولم أعثر لـ«جندول» علي محمود طه ومحمد عبد الوهاب على أي أثر.

وبالتالي قررت أن أترك جانبًا هذا المأزق، ودنيا الحياة اللغوية واسعة وكريمة، ولا تجادلني وتحاورني إلا في حدود المتعة التي أسعى إليها، غير أن الجندول عاد إلى جداول قلبي يتهادى ويتماوج على مياه البندقية الإيطالية، تاركًا أمر الاعتراف به لغويًّا جانبًا وهو ما أدى بي إلى نزق خاص بي لا أحب أن ينتبه إليه الآخرون بصفته تصرفًا غير محسوب، لأخلع ملابس المخ ـ أقصد العقل ـ وأقفز من فوق الجندول أو اليخت أو القارب إلى مياه الجداول والأنهار، ودون اعتبار لعدم درايتي الجيدة بالسباحة، أو حتى العوم الصبياني القديم، لأشهد تلك الفنادق ذات الشهرة السياحية في مصر وتحمل اسم «كتراكت»، وتعني مباشرة الجنادل: أي الصخور التي تعترض مجرى النهر عند الجغرافيين، وتصنع مشهدًا بالغ الروعة في منطقة أسوان بين جزيرة النباتات ثم جنوبًا نحو خزان أسوان، ثم تختفي فور بناء السد العالي، من منطقة النوبة حتى وادي حلفا على حدود مصر مع السودان. وكلها ـ هذه الجنادل ـ ليست شلالات تندفع المياه من فوقها، متساقطة في المجرى المندفع إلى أسفل، كما في

مناطق شلالات نياجرا شمال أمريكا، وكليمنجارو المتدفقة من فوق الجبل إلى غابات أفريقيا الاستوائية، والتي كانت موضوعًا جذابًا في العمل الروائي الشهير لـ«هيمنجواي» «ثلوج كليمنجارو»، حيث كانت «سوزان هيوارد» تقيم في خيمة وسط ضجيج الطبيعة الشاعرية مع «جريجوري بيك» في فيلم سينمائي بالغ المتعة، وبالغ الضراوة أيضًا.

الأخطر من «هيمنجواي» وعلي محمود طه والآخرين السابق ذكرهم: هي أمي، تلك المرأة ذات السليقة الفطرية الريفية، التي عرفت مصطلح القندلة أو الجندلة قبل أي من هؤلاء، صفة أو تهديدًا أو دعاء بالعقاب، والفرد المجندل أو المقندل هو سيئ الحظ، الذي يقع تحت سطوة لحظات عدم الحب، أو ضيق الآخرين به، وكثيرًا ما يلجأ المنافسون إلى وصف بعضهم البعض بهذه الصفة خلال أوقات الغضب أو الحقد والنميمة، ومع ملاحظة أن المعاجم لم تذكر أيًّا من هذين اللفظين: القندلة أو الجندلة، إلا أنها أوردت أن قندل ـ فعل ماضٍ ـ فلان: أي عظم رأسه، ومشى في استرسال واسترخاء، وهو نوع من الكبر أو الكبرياء المفتعلة ـ الجملة الأخيرة وضعتها أنا تفسيرًا لمشاهد بعض من أعرف، مع أني أميل إلى سماع صوت المغني الراحل محمد قنديل دون الربط بينه وبين أي قنديل آخر، مضيئًا أو ملعونًا، ووجهه الضاحك المرح باكتنازه الواضح: يثير في الوجدان بهجة أخرى، مضافة إلى تلك الصادرة من عناصر الغناء من كلمات وطرب وموسيقى وتدفق في الحنجرة، ولذا فإن كل كلمات الأغاني المفعمة بالحزن والأسى تتحول عندنا ـ دون

قصد ـ إلى حزن جميل، وأسى مقبول بسبب هجر الحبيب، حيث قام بترسيب اليأس في قلوبنا المبكرة غناء الآخرين ـ أقصد معظم الآخرين. وربما كان ذلك وراء عدد واضح من رفاق الصبى حملوا اسم قنديل، ومن المؤكد أن قنديل أم هاشم ليحيى حقي لا علاقة له بهم، في حين أن الجندل كان اسمًا لَجندل بن عبيد الشاعر الأموي، الذي لم يكن مشهورًا، وهو ابن الراعي النميري الأكثر شهرة والذي كانت بينه وبين جندل المثنَّى الطهوي (٩٠ هجرية ـ ٧٠٩ ميلادية) مهاجاة شعرية لم تصل في شهرتها إلى المهاجاة التي قامت بين جرير والفرزدق وازدحمت بها كتب المدارس.

وفي المثل الموروث «جندلتان اصطكتا» ـ أي وصفًا للصراع بين اثنين شديدي التصلب بصفتهما قرنين يتصاولان أو يتصادمان أو يتجادلان في خشونة.

ولعل دومة الجندل تصلح إنهاء لهذا الموج الصاخب في اللغة، الذي ألقى بالجندول بعيدًا عن كل مسطحات المياه نهرية أو بحرية، لكن دومة الجندل تظل مدينة شامية قديمة، وتاريخية أيضًا تبعد عن دمشق ما يقرب من ٢٥٠ كيلومترًا، مشهورة بحصونها، وأرسل رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، القائد العسكري الشهير خالد بن الوليد لفتحها، حيث نجح في ذلك، وعقد معاهدة سلام مع حاكمها أُكيدر الذي قدم ـ بعد المعاهدة مباشرة ـ إلى رسول الله في المدينة المنورة، لتأتي دومة الجندل بعد ذلك في هذا البيت الشعري:

حمامة جرعًا دومة الجندل أسجعي فأنت بمرأى من سعـاد ومسمـع

كنا نقول ـ في زمن مبكر ـ مدحًا لشاعر أو كاتب: إنه مطبوع، صفة للفطرة الطبيعية في إبداعه، الآن يمكن لك أن تلجأ لذات الصفة ـ بعد أن فقدت وظيفتها السالفة ـ لتصبح كاتبًا أو شاعرًا مطبوعًا في كتب أو دواوين حتى تعترف بك فصائل اتحاد الكتاب في البلاد العربية، دون أن نعترف بك نحن.

*

أحر من الجمر، اندثر الجمر تحت اجتياح الأدوات الكهربائية، ولم يبق سوى جمر الفحم في بقايا إعداد الكباب فقط، هل يصلح تعبير عصري أحر من أسلاك الكهرباء أو فرن الغاز؟

*

كل الأوامر قصيرة وجازمة، لكن التواصل والابتهال والإمعان والتهويم في الآفاق الممتدة تظل ممتدة دون حزم أو جزم.

*

كل الأعاصير والزوابع والطوفان بسبب الزلزال في جنوب شرق آسيا: مجرد احتجاج من ملل عصري يمتصه الكون من برامج التلفزيون.

الشال.. والشاليه

ما كدت أمعن في الشال، الذي تألقت بين انسياب نعومته: جارتنا القديمة، وأحفادها يتعابثون ـ مرحًا ـ حولها، حتى جرفتني ذكريات هذا النوع من تكوينات النسيج الذكي المتسلل حول الرقبة والصدر لتلتف أطرافه حول المنكبين. ضحكت جارتنا حينما ذكرتها بأنني ظللت أحقابًا طويلة بين قوسين من الشيلان: شال الرجال، الذي ينفرش على الجزء العلوي من البدن، وأحيانًا تعاد صياغته عمامة، ثم شال السمك النهري، الذي كان يصطاده من يدرك أن الشال لا يأكله أي أحد كالقرموط أو المشط أو البساريا. فالشال السمكي نوعان: أبو ريالة ـ وهذا ما ورد في كتب السمك دون تدخل مني ـ والقرقور، وكلاهما ضخم بالنسبة لأسماك الأنهار، مع صغره وضآلته بالنسبة لأسماك البحار، كما أن كليهما أملس الجلد، كبير الرأس، يقومان بتحريك أشواك الزعانف فترة طويلة بعد الصيد، ويصدر القرقور أصواتًا تكاد تكون إحساسًا بألم الاغتراب، بعيدًا عن الماء، وبعضه تظهر له عيون شقراء تظل مفتوحة حتىَ تبدأ عملية إعداده لدخول جهنم في الطريق إلى المائدة الكريمة.

لكن هذه الشيلان ـ حول الرقبة أو بين مياه الأنهار ـ لم تنتبه إلى نوع من البطيخ الشيليان، انتشر في أقطارنا منذ نصف قرن، مع أنواع أخرى من البطيخ المتضخم استدارة أو طولًا، شديد الاحمرار، حتى إن البطيخ البلدي المعهود بدأ يضطرب لونًا ولبًّا، لأن البطيخ ـ كل أنواعه ـ يملك من اللب ما لا يتصوره نبات آخر، وظل هذا الشيليان الضخم الممتد هدفًا لذوي الثقافة والقدرات المادية، حتى قضى في السنوات الأخيرة على البطيخ البلدي بشكل واضح. وهي ذاتها الطريقة التي تمكنت بها الشاليهات من القضاء على العشش والأكواخ، لا أقصد عشش وأكواخ المكافحين من أهلي في الريف، بل تلك العشش البسيطة المصنوعة من البوص في المصايف الراقية على البحر، والتي اشتهرت منها ـ في رأس البر التابعة لمدينة دمياط المصرية ـ عشش أم كلثوم ومحمد التابعي ومصطفى أمين، وماري كويني، ويوسف وهبي، وعدد كبير من مشاهير الفنانين والوزراء ورجال المجتمع. وأثناء اندثارهم رحيلًا قضاء وقدرًا لا اعتراض عليهما، قامت الشاليهات بإعادة صياغة عشش رأس البر بشكل راقٍ وجميل يشابه تلك الشاليهات، التي تتراقص في هدوء على مسطحات وقمم جبال الألب الأوروبية في سويسرا وشمال إيطاليا وغرب فرنسا، لتؤدي دور المصحات، بعيدًا عن ضجيج المدن وفقر العشش. وهو ما أدى بي شخصيًّا ـ حين كتبت عن حياتي ـ أن أستخدم مصطلح الشاليه فوق المستنقعات السويسرية، التي ولدت على ضفافها خارج قريتنا ديروط الشريف، دون أن أقترب من كلمة كوخ أو بركة، أو أي إشارة لهذه التكوينات القروية، وسيكون مريحًا ـ حينما تقرأ هذا

الموضوع ابتداء من الشيلان والشيليان والشاليهات: أن تراعي إيقاع الكتابة حينما تنفصل مقاطعها بالشولة، تلك الفاصلة ـ ثم أصبح اسمها الفصلة ـ التي تحول دون الاندفاع في القراءة، مما يعوق عقلك عن متعة الاستقبال. وقد شاءت ظروفي أيضًا ـ أثناء العمل في بعض الصحف ـ أن أواجه كتابات كثير من الأصدقاء ـ أو حتى الأساتذة ـ بضرورة الاهتمام بهذه الفاصلة أو الشولة، وما قد تحتاج إليه الكتابة من علامات أخرى للاندهاش أو التعجب أو الاستفهام، أو حتى النقطة الضرورية عند انتهاء المقطع أو الموضوع. إن للشولة دورًا مؤثرًا في استقبال قراءة أي نص، وقد تخلص أستاذنا إحسان عبد القدوس ـ في رواياته المنشورة كلها ـ من كل ذلك باستعماله لثلاث أو أربع نقط بين الجمل، لكن ذلك لا يحل وظيفة الشولة بالمعنى الذي أقصده. ولقد كان شيلوك ـ تاجر البندقية عند زميلنا شيكسبير ـ شديد الحرص ـ مع همس الكلام، مع فواصل المقاطع، لتنتهي مسرحيته بنجاحه في الوصول إلى قطع رقبة من استدان منه المقابل قبل بداية الشولات.

إلا إن الذي يعلو على كل هذه المسائل: الشهر الجميل شوال الهجري، الذي يأتي جوابًا لقرار رمضان الكريم الموسيقي، حينما تأتي الأسرة بأفرادها المتناثرين يوم عيد الفطر أول أيام شوال، يلعبون ويلهون ويأكلون صباحًا الفطير والبسكويت وكعك العيد، ثم يقومون بتقليب جيوبي، انتزاعًا لثروتي، ليتقافزوا سعيًا إلى المراجيح والمزامير، وركوب الخيول الخشبية، ليتركوني وحدي في البيت أسعى ـ دودة تتقلب وسط أوراق الكتب ـ باحثًا عن «شيلر» الفيلسوف الإنجليزي، صاحب كتاب «ألغاز أبو الهول»، وتلك الجملة المشهورة

عنه «إن الإنسان معيار للقيم والأشياء جميعها»، و«فرناند شيلر» هذا مختلف ـ عصرًا وانتماء ـ عن الأكثر شهرة «فريدريك فون شيلر»، الشاعر والكاتب المسرحي والمؤرخ والفيلسوف الألماني، والذي عاش طريدًا، هاربًا من الدوق «فريتمبرج»، الذي سيطر عليه، وعينه طبيبًا بالجيش، ليكتب مسرحية «اللصوص»، والتي يقال إنها من أعظم مسرحياته، وخلال تجواله الهروبي في أوروبا قبل رحيله عام ١٨٠٥ ميلادية، تمكن من إبداع معروف في فن التراجيديا، وبعد مسرحيات عدة، اعتزل الحياة مجهدًا، ونتذكر هنا نشيد «إلى الفرح»، الذي لحنه الموسيقار الشهير «بيتهوفن» في السيمفونية التاسعة ذات التألق الموسيقي المتفرد. وسوف يجرنا الكلام عن «شيلر» إلى دروب وأنفاق وحدائق وبحيرات وشاليهات أخرى عدة، سوف تسبب لي إرهاقًا، قد يدفعني أن أفعل مثل «شيلر»، فأهرب ـ فوق الأرض أو تحت السماء إلى شيلي، آخر جنوب أمريكا الجنوبية، لأمعن في البحيرات والبحار ـ باحثًا عن مستنقعات قد أسعد على شواطئها باصطياد واحد من شيلان بحر يوسف في صعيد مصر.

كلمات لها معنى

كل شيء يبدأ هادئًا وبسيطًا، دعك من الصياح الآن، انظر إلى لحظة غروب شمس آخر النهار. عليك أن تظل ممعنًا في جمال الوجود حتى لو تواطأت الرياح ضدك.

*

الشر يساوي الكتلة في مربع سرعة الفراغ.

*

أول ما يبلى في الملابس الكريمة: الجيوب، الملابس البخيلة لا جيوب لها.

*

يكثر هذه الأيام أن أبدأ كلامي بمصطلح بالغ التهذيب: صدقني، لو أمعنت في وجهي لاكتشفت أنني لا أثق فيك، ولا في نفسي، وكلانا يبتسم.

*

لو استطعت أن تستعيد الفطرة القديمة في الإحساس والتواصل والكلام والصمت، فسوف تأكل وتستمتع وتحس بما لن يحس به جهاز التلفزيون، الذي سوف يتعطل لعدم الاهتمام به وتشغيله، وقد يقع على الأرض.

*

السلام يقل المعرفة ـ جملة موروثة دون أن ندري أن الحرب تدمر المعرفة، والجمجمة التي تنفثها.

البرق

البرق قبل البريق، والبرق معروف للكافة، يصب الفزع والاضطراب في أفئدة المخلوقات في أقل من ربع ثانية، أي بمجرد أن يندلع قصيرًا خاطفًا في السماء، والعامة يقرنون حدوثه بالشيطان، أعوذ بالله، ومع ذلك فقد ترك البرق السريع ـ الخاطف ـ بريقه في القلوب، يتألق آسرًا على الشفاه، وفي العيون، وفي الأنامل الممتدة للعزف، وفي الأيدي المستورة خلال فعل الخير، وفي الصدى الصادق للفن الصادق، وفي ترقب اللقاء الحميم، وفي المستحيل حينما يلمس حافة الممكن، وفي الأخضر عندما يتلاطم مع الأصفر، وفي صدى اعتراف المحب وفي خفقان القلب امتنانًا وعرفانًا.

أما البرق ـ ذلك الخاطف المرعب ـ فإنه ما يكاد يحط على الأرض حتى يستحيل إلى جواد، وفي الشعر العربي القديم لا يتحرك البرق إلا جوادًا مقاتلًا مندفعًا أو سلسًا ذلولًا (براق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في الإسراء والمعراج)، ولم يستطع أي جمل أو زرافة أو تمساح أو أسد أن يكتسب من البرق صفة خلال أحقاب التاريخ

الماضي. أما الأبرق فهو مكان غليظ فيه حجارة ورمل وطين، ويقال للمؤنث منه برقاء، والبيرق: الراية والعلم، ومنه جاء اسم حامل العلم بالفارسية البيرقدار، والاستبرق الحرير الغليظ فإذا ضغط على البرق قليلًا أصبح فاكهة اسمها البرقوق، أو سلطانًا مصريًّا له نفس الاسم وترك مسجدًا في القاهرة، فإذا حافظت على الرسم الحرفي للبرق وفتحت الراء بدلًا من سكونها أصبح البرق، أي الحمل الوديع ابن العنزة أو النعجة، وبذلك يفقد البرق سناءه السماوي ويتمزق بين الطوب والطين والحرير الغليظ والحملان، ولا يتبقى منه سوى برقية شاردة تحمل لك خبرًا نأمل أن يكون سعيدًا.

مختارات الكرمة

١. مليم الأكبر ـ عادل كامل
٢. دنقلا ـ إدريس علي
٣. مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس ـ أحمد حجي
٤. الشبكة ـ شريف حتاتة
٥. الناس في كفر عسكر: أولاد عوف ـ أحمد الشيخ
٦. النزول إلى البحر ـ جميل عطية إبراهيم
٧. ملك من شعاع ـ عادل كامل
٨. إجازة تفرغ ـ بدر الديب
٩. رابعة ثالث ـ علي الشوباشي
١٠. رباعية أيام الطفولة ـ إبراهيم عبد الحليم
١١. الرحلة (الجزء الأول) ـ فكري الخولي
١٢. الرحلة (الجزءان الثاني والثالث) ـ فكري الخولي
١٣. حديث شخصي: أربع تنويعات ـ بدر الديب
١٤. الباب المفتوح ـ لطيفة الزيات
١٥. أوراق شخصية ـ لطيفة الزيات
١٦. الشمندورة ـ محمد خليل قاسم
١٧. بيت سري ـ عثمان صبري

١٨. هوامش الفتح العربي لمصر ـ سناء المصري
١٩. صدمة طائر غريب ـ كمال القلش
٢٠. صاحب البيت ـ لطيفة الزيات
٢١. الوسية (ثلاثية «الوسية» ١) ـ خليل حسن خليل
٢٢. الوارثون (ثلاثية «الوسية» ٢) ـ خليل حسن خليل
٢٣. السلطنة (ثلاثية «الوسية» ٣) ـ خليل حسن خليل
٢٤. قاهر الزمن ـ نهاد شريف
٢٥. نبش الغراب في واحة العربي. الجزء الأول: الإنسان ـ محمد مستجاب
٢٦. نبش الغراب في واحة العربي. الجزء الثاني: الكائنات ـ محمد مستجاب
٢٧. نبش الغراب في واحة العربي. الجزء الثالث: الأشياء ـ محمد مستجاب
٢٨. ليلة القبض على فاطمة ـ سكينة فؤاد

«استطاع مستجاب أن يبتدع لغة جديدة في السرد العربي الحكائي. قام بالتأليف بلغة عربية فخمة للحديث عن ناس من قاع الحياة، فخلق بذلك مفارقة مذهلة»

خيري شلبي

«محمد مستجاب من أبرز الكُتَّاب المصريين»

سلوى بكر

«مستجاب من أهم كُتَّابنا المصريين المعاصرين»

د. عبد المنعم تليمة

«محمد مستجاب عبقري القصة القصيرة، وحكَّاء مصر الأول، وآخر طابور الساخرين العظام»

د. خالد منتصر

«لغة كل كتابات مستجاب الفنية تحطم القوالب المعتادة، الكليشيهات في تجاوز الألفاظ، وتخلق ترابطات غير متوقعة للكلمات والصور لبث الاضطراب في الصيغ المألوفة للمفاهيم الراكدة»

إبراهيم فتحي

«تتحول الكتابة عند محمد مستجاب إلى إبداع خلَّاق من نوع خاص، فهو كاتب يعيش الكتابة في حياته اليومية، فلم تعد هناك مسافة بينه وبين الكتابة، وإنما تتحول معه إلى معايشة واعتراف وحلول»

د. رمضان بسطاويسي

«محمد مستجاب لا ينقطع أبدًا عن الضحك والتندر»

د. علي الراعي

هذا هو الجزء الثالث من المجموعة الكاملة لمقالات محمد مستجاب البديعة في واحة العربي، ويتناول فيه بذكائه الشديد ووجهة نظره المتفردة وقلمه السلس، عالم الأشياء التي حولنا.

كما يحتوي الكتاب على حِكمه الساخرة التي كان ينشرها مع كل مقالة.



محمد مستجاب (١٩٣٨-٢٠٠٥) أديب مصري. ولِد في جنوب مصر. عمل في العديد من المهن، فاكتسب خبرة حياتية عميقة وواسعة، انعكست على كتاباته وأسلوبه.

نشر أول قصة قصيرة عام ١٩٦٩، فجذب إليه الأنظار. صدرت له ثلاث روايات وست مجموعات قصصية وأربعة عشر كتابًا، جمعت أغلب مقالاته الأدبية التي نُشرت في المجلات والجرائد، ومن أشهرها «نبش الغراب في واحة العربي» في مجلة العربي الكويتية.

تُرجمت قصصه إلى عدة لغات، وحُوِّلت إحدى قصصه إلى فيلم سينمائي عنوانه «الفاس في الراس».

حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٨٤ عن روايته الأولى «من التاريخ السري لنعمان عبد الحافظ»، ووسام الفنون والآداب من الطبقة الأولى، وجائزة الدولة التقديرية.

ISBN 978-977-6743-50-2
الكرمة